

تأليف: رينيه ديكارت
ترجمة: محمود محمد الخضيري

مراجعة وتقديم
الدكتور محمد مصطفى حلمي

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية



مقال عن المنهج

مقال عن المنهج



تأليف: رينيه ديكارت

ترجمة: محمود محمد الخضيري

مراجعة وتقديم

الدكتور محمد مصطفى حلمي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٥

الطبعة الثالثة
١٩٨٥

تقـــديــم

بقلم : الدكتور محمد مصطفى حلمى

١ ـ الفلسفة القديمة

يحدثنا تاريخ الحياة العقلية والروحية الانسانية ، بأن كثيرا من الأمم القديمة ، سـواء فى مصر والهند والصين وفارس ، وفى غيرها من الأمم ذوات الحضارات فى الشرق القديم ، قد كانت لها فلسفاتها التى انطوت عليها دياناتها ، وبأن هذه الفلسفات انما كانت بمثابة المرآة التى تتجلى على صفحتهاالمعانى الفلسفية والروحية والخلقية التى كانت ماتزال بعيدة عن الفلسفة بمعناها الحقيقى ، وهو هـذا المعنى الذى يعـول فى فهمه على العقل أداة ، ويتخذ فيه من النظر العقلى منهجا يعين على كشف الحقيقة ، ومعرفة حقائق الأشياء ، وتفسير الوجود تفسيرا منهجيا يعلل وجـودها ، ويحلل عللها ، ويبين

طبيعة مايحيط بها ، ويصدر عنها . فهذه الفلسفات لم تكن اذن فلسفات بالمعنى الفلسفى الدقيق ، بقدر ماكانت ألوانا من الحكمة . وضروبا من المبادىء والقواعد ، مما كان يتصل من قريب أو من بعيد بالدين والعقائد ، ويرمى الى تصفية النفوس من الناحية الروحية ، والى تنقية القلوب من الناحية الخلقية . أكثر مما يرمى الى ترقية العقول من الناحية النظرية ، واعمال هذه العقول اعمالا منهجيا منظما ، ومؤديا الى نتائج ان لم تكن يقينية كل اليقين ، فلا أقل من أن تكون قريبة من هذا اليقين .

ويحدثنا تاريخ الحياة العقلية والروحية الانسانية أيضا ، بأن الفلسفة بمعناها الحقيقى ، وبمنهجها الحسى حينا ، والعقلى النظرى حينا آخر ، والتجريبى العملى تارة ، والذى يؤلف بين الحس والعقل والتجربة تارة أخرى ، قد نبتت شجرتها فى أرض اليونان . ومافتئت هذه الشجرة تتعهدها العقول والقلوب حتى نمت وأينعت ، وآتت أكلها مناهج وأنظارا عقلية ، وطرقا ووسائل حسية ، وأذواقا ومواجيد روحية ، ثم تفرعت أغصانها النامية ، وامتدت ظلالها الضافية ، واذا ثمارها ناضجة دانية ، واذا الانسانية كلها تنعم بهذه الثمار . وتستظل بتلك الظلال ، فتجد عندها غذاء

العقل ، ونزهة القلب ، وبهجة الروح ، وهــذا يعنى بعبارة أخرى ان فلاســفة اليونان هــم الذين مهــدوا للانسانية سبيل التفكير الدقيق ، والنظر العميق ، فى الكون ، وفيما يشتمل عليه الكون من ظواهر وأحداث، وفيما لهذه الظواهر والاحداث من صلة بخالقها ومبدعها وبالانسان الذى يؤثر فيها ويتأثر بها ، وفى ذات الاله، وذات الانســان ، وفيما همــا عليــه فى ذاتيهما . فالانسانية من هــذه النواحى كلهــا مدينــة لليونان بفلسفتهم النظرية والعملية التى ليس من شك فى أنها كانت نتاجا عقليا خصبا ، وعملا روحيا جليلا للعبقرية اليونانية . ذلك بأن فلاسفة اليونان هم أول من فلسف على الحقيقة . وهم أول من تأمل تأملا فلسفيا فى بحثه عن الحقيقة ، وهم أول من اصطنع العقل ونظر العقل فى تفسير حقائق الأشــياء تفسيرا منهجيا يوغل فيمــا يظهر ويخفى ، باحثا عن علل الأشياء بصــفة عامة ، وعن العلة الأولى التى تصــدر عنهــا كل العلل ، وترد اليها كل الأشياء بصفة خاصة .

عــلى أن اليــونان حين تأملوا الكون ، وفسروا أحداثه وظواهره ، كانوا ينظرون اليه على أنه «كل» قد اتحدت أجزاؤه ، واتسقت عناصره ولعل الذى جعلهم ينظرون الى الكون هذه النظرة الكلية الشاملة ، هــو

اعتقادهم بأن الكون ليس طائفة من الأحداث ينفصل بعضها عن بعض ، ولا يتصل بعضها ببعض ، ولا يؤثر بعضها فى بعض ، وانمـا هو فى الواقع كل مؤتلف الأبعاد ، قد ساد أجزاءه النظام والانسـجام والاتساق التام ، وعلى هـذا النحـو ينبغى أن تتكون عن الكون فكرة فى العقل ، أو فى الوجود العقلى ،مضاهية لصورته فى الواقـع ، أو فى الوجـود العينى ، بحيث لايكون الكون ، سواء فى صورته الحسية أو فى فكرته العقلية، الا كلا متسقا أخص خصائص هذه الوحدة التى لا كثرة فيها ، ولا تفرقة معها ٠

ولعل من العوامل التى أعانت على نهضـة الفكر الفلسفى اليونانى ، هو هذه القدرة التى تهيأت للعقل، وهيأته لأن يخلص من القيـود المادية ، ومن الأغـلال الحسية ، ومن شواغل الحيـاة العملية ، بحيث أصبحت الفلسفة صناعة فريق من المشتغلين بها ، والمتخصصين فيها ، والمعلمين غيرهم منها ، كما أصبحت لدى فريق آخر أنبل وأشرف استغلال يمكن للانسان الراقى أن يستغل فيه وقت فراغه ، لاسيما أن فى هذا الاستغلال شعورا بالمتعة الفنية ، وتذوقا للقيم الجمالية ، وذلك لما يثيره الجمال من لذة فى النفس ، وبهجة فى القلب، فضلا عما تؤدى اليه معـرفة الحق من راحـة العقل ،

وماتنتهى اليه معرفة الخير وفعله من رضا الضمير : فقد كان لذلك الشعور بالجمال بصفة خاصة أثره الواضح الجلى فيما صدر عن الفلاسفة من مذاهب وآراء ، ذلك بأن الحقيقة التى لم تكن تمتاز بالجمال ، ولا تثير في النفس متعة فنية ، انما كانت عند أولئك الفلاسفة اليونان حقيقة ناقصة خاطئة ، ومن هنا كانت هذه الفكرة التى تصور الكون فى صورة منظمة منسجمة لابد من أن يدركها عقل منظم منسجم هو أيضا . ومن هنا أيضا نشأ هذا المقياس الذى كانت تقاس به المذاهب الفلسفية ، وتتقوم به قيمها ، وهو ماعسى أن تؤديه هذه المذاهب الفلسفية من اشباع حاجة العقل ، ومن ارضاء متعة القلب ، ومن بلوغ الى رضا الضمير .

وكثيرا مايلاحظ على بعض مؤرخى الفلسفة اليونانية ، انهم كثيرا ماينسبون الموضوعية الاعتقادية الى هذه الفلسفة اليونانية . وهذه الموضوعية الاعتقادية هى التى تجعل من نشاط العقل شيئا يعول على وجود مايدركه هذا العقل . ويقول أصحاب هذه الموضوعية العقلية الذاهبون مذهبها ، ان الوجود العقلى هو مبدأ التعقل ، كما أن الوجود الحسى هو مبدأ الاحساس . على أن هذا ، وان كان صحيحا ، الا أن هناك الى جانب هذه الموضوعية الاعتقادية . ذاتية اعتقادية من شأنها

إن تتخذ من رضا النفس واطمئنانها الى الشيء الذى تدرك ، دليلا على وجود هذا الشيء · ولعل ايثار فلاسفة اليونان لهذه الذاتية الاعتقادية ، وتأثرهم بها، كانا أشد وأقوى من ايثارهم للموضوعية الاعتقادية ، وتأثرهم بها : فمهما حاول فلاسفة اليونان من محاولات ، ومهما كان لمحاولاتهم من نتائج وثمرات ، وذلك فى تغليب الموضوعية على الذاتية أحيانا ، الا أنهم لم يستطيعوا ان يحددوا بالدقة الوسائل التى يمكن أن يعتمد عليها العقل ليخلص من ذاتيته ، ويخرج عن نفسه · وينسلخ من دائرته ، الى حيث يخلص الى موضوعه ، ويستقبل بحثه لهذا الموضوع بحثا مستقلا عن نفسه ، لايتأثر فيه بشيء مما يعمل عمله فى نفسه، وآية هذا كله أنهم وان كانوا قد أدوا للانسانية أجل الخدمات ، وقدموا اليها أروع وأمتع الثمرات ، وفتحوا أمامها كثيرا من الآفاق العلمية والفلسفية ، منهجية كانت هذه الآفاق او مذهبية ، ونظرية كانت أو عملية، لاسيما فيما أقبلوا عليه ، وعرضوا له ، من طبيعيات ورياضيات وميتافيزيقيات، ومن أخلاقيات واجتماعيات وسياسيات ، الا أنهم مع هذا كله لم يتهيأ لهم أن يبلغوا بالعلوم التجريبية ماكانت خليقة أن تبلغ من حد الرقى والتقدم والكمال ، ولعل كل ماكانوا يعلمون عن هذه

العلوم التجريبية ، هو أنهم كانوا يعرفون قيمة التجربة من الوجهـة النظرية ، دون أن يعرفوا كيفية اجـراء التجارب ، ولعل هذا لم يكن ناشئا لديهم من أنهم كانت تعوزهم الآلات التى تصطنع فى اجراء التجارب فحسب، وانما هو راجع أيضا الى أنه لم تكن لديهم فكرة ما عن الآلات التى تستخدم فى دراسة المادة ، يضاف الى هذا أنهم كانوا يسرفون فى الايمان بالتوافق المباشر ، أو الملاءمة المباشرة ، بين العقل والأشياء التى يدركها هذا العقل .

على أن هذا كله لايعنى على وجه الاطلاق أن فلسفة القدماء كانت كلها خلوا من روح النقد الذى يعتمد على التحقيق ، والتحليل الذى يستند الى التدقيق ، وانما نحن نلاحظ أن فلسـفة القـدماء قد طبعت فى بعض أطوارها بطابع لم تكن تؤمن معه بكل شىء ، ولا تستيقن فيه من كل شىء ، ولا تطمئن الى كل شىء ، بل كانت فى بعض هذا الطور أو ذاك تنقد قبل أن تقرر ، وتزن قبل أن تؤمن ، وتشك قبـل أن تستيقن ، وكل هـذه عناصر يتألف منها روح النقد ، ومنهج البحث ، كما أنها أنوار يستضاء بها فى سبيل كشف الحقيقة ، سواء فى الفلسفة النظرية ، أو فى العلوم التجريبية .

فأنت ترى اذن أن الفلسـفة اليونانية قد اتخذت

لنفسها ، في وقت ما ، أو في أوقات متفاوتة من أطوار حياتها ، مقياسا تقيس به وجود الأشياء ، ومحكا تعرف به حقيقة هذا الوجود ، وأنت ترى أيضا أن هذا المحك وذلك المقياس ، يرتكز أحدهما أو كلاهما ، على أن وجود الأشياء ، وحقيقة وجود هذه الأشياء ، انما يقاس كل منهما بنسبة الكمال الذى يوجد فى أحدهما ، كما هو فى الآخر ، وذلك على الوجه الذى يدرك عليه هـذا الكمال عقل منظم قادر على التنظيم ، حتى ان الفلسفة اليونانية حينئذ قد اتخذت من هذا الكمال دلالة جوهرية على الوجود ، أو علة خفية لهذا الوجـود ، وأنت ترى بعد هذا كله أن أظهر ما ظهر روح النقد فى الفلسفة اليونانية ، فانما كان ذلك عندما انتهت هذه الفلسفة الى الشك ، فاذا اصـحابها يرون أن نسـبية المعرفة ، واضافية الحقائق . من شأن كل منهما أن تجعل العقل مرتابا فى قيمة مايدرك ، واذا هم يغرقون فى هذا الشك حتى لايكادون يستيقنون من الوجود الموضـوعى لأى شىء . وليس معنى هذا أنهم كانوا جميعا شكاكا كذلك . ينكرون الحقائق العقلية ويزورون عن العالم العقلى . ولايعترفون الا بالحقائق الحسية ، ولايثبتون الا العالم الحسى ، بل ان منهم من كان يرى أن الانسان هو مقياس الأشياء ، فما يراه حقا فهو حق ، وما يراه باطلا فهو

باطل ، وما لا يدركه الحس فهو غير موجود ، أو بعبارة أخرى من عبارات ابن سينا ، «أن ما لا يناله الحس بجوهره ، ففرض وجوده محال » .

على أننا نرى من ناحية أخرى أنه اذا كان ثمة فريق من فلاسفة اليونان ، قد ميز بين ماهو روحى وما هو مادى ، فان هذا الفريق لم يكن يعنى البتة أن كلا من المادى والروحى انما هو جوهر مستقل فى ماهيته ووجوده عن الآخر : فعند أفلاطون مثلا ترى أن الاثنينية بين العالم الحسى والعالم العقلى لم تذهب بهذا الفيلسوف مذهبا يجعله ينكر معه العالم الحسى انكارا تاما ، أو لايعترف معه بالصلة بين هذين العالمين .

وعلى هذا النحو كان الشأن فيما يتصل بالحياة الخلقية العملية ، فردية كانت هذه الحياة أو اجتماعية : فالعقل حين يقوم بتسيير سلوكنا وتوجيهه الى الوجهة المثلى ، فهو انما يأخذ نفسه بترتيب الميول الطبيعية وتنظيمها ، أكثر مما يعمل على كبح جماحها ، والتصدى لها ، بحيث يكون العقل فى حياة الفرد والجماعة هو الذى يروى ويفكر من ناحية ، وهو الذى يرتب ويدبر من ناحية أخرى ، وهو الذى يرى بعد هذا وذاك أن فى الدولة ، وفى التقاليد ، وفى المبادىء التى تسيرها ، وفى القوانين التى تحكمها ، تكمن قوة الدولة ، ويتركز

المصدر الأعلى الذى تصدر عنه كل الحقوق والواجبات ، أى كل ما للانسان وما عليه ، سواء فيما يتعلق بنفسه من حيث هو فرد ، أو فيما يتعلق بنفوس أشباهه ممن يحيا معهم ، ويتصل بهم ، ويعطيهم ويأخذ منهم . واذا كانت سلطة القانون المدنى قد تزعزعت الى حد ما عند بعض مفكرى اليونان ، فان هذا لايعنى دائما أن هذا الفريق من المفكرين كان منطويا على سخط خفى من شأنه أن يجعل الاخلال بالنظام أمرا مشروعا ، وانما الدولة هى الدولة دائما ، وهى هى مصــدر السلطات أبدا ،وهى المدبرة لكل شئون الحياة الفردية والاجتماعية، والقيمة على الشعائر الدينية .

تلك هى الفلســفة اليونانية فى أعم صــورها ، وأخص خصائصها ، وفى أشمل مذاهبها ومناهجها ، وأجمل وأروع أنظارها ونتائجها ، لابد من أن نعترف معها بما كان لأصحابها فيها من فضل ، لم يكن مقصورا عليهم وحدهم ، بل تجاوزهم الى غيرهم فى الأجيال التى تعاقبت بعدهم ، وحسبهم أنهم هم الذين وضعوا الحجر الأساسى فى صرح الفكر المنهجى العلمى والفلسفى . ولقد انقضى عصر هذه الفلسفة اليونانية بما خلف فيه قادة الفكر من تراث غنى خصب كان للانسانية بمثابة المصباح الذى استضاءت به فيما تلى العصور القديمة

من عصور وسطى وعصور حديثة ، ومافتئت تستضىء به العقول المفكرة ، والقلوب الشاعرة ، فى تاريخنا المعاصر حتى وقتنا الحاضر .

٢ ـ فلسفة العصور الوسطى

انقضى عصر الفلسفة اليونانية ، وجاءت العصور الوسطى ، واذا الناس قد خضعوا لظروف أخرى من ظروف الحياة ، واذا هم قد آمنوا بغير ماكان يؤمن به اليونان من عقائد وأديان ، فآمن بعضهم بالاسلام ، وآمن بعضهم الآخر بالمسيحية ، ووجد أولئك وهؤلاء الى جانب كتبهم السماوية وعقائدهم الدينية ، فلسفة نظرية وعملية ، خصبة وغنية ، هى تلك التى خلفها اليونان ، واذا الناس فى تلك العصور الوسطى يرون أنفسهم بين أمرين يتنازعان عقولهم وميولهم وعواطفهم: هم بين هذه الكتب السماوية والعقائد الدينية يؤمنون بها ، ويطمئنون اليها ، ويجدون فيها المثل الأعلى لتمثل الكون وتصوره ، ولتصوير هذا الكون وتفسيره من ناحية ، وبين تلك الكتب الفلسفية ، والمذاهب العقلية ، والقواعد المنطقية ، والأنظار الميتافيزيقية ، والنظريات العلمية والمبادىء الخلقية التى تركها اليونان

من ناحية أخرى . وبعبارة أوجـز يمكن أن يقال ان الناس كانوا وقتئذ بين عاملين : عامل الايمان . وعامل العقل ·

وليس من شك فى أن فيما خلفه اليونان من ذلك التراث الخصب الفنى ، فلسفة رائعة فتانة مغـرية . فيها مايغرى الناس بها ، ومايحببهم فيها ، وفيها أيضا ماينقض الدين ، ويناقض الايمان ، ويزعزع العقيدة، ومن ثم فما كان أحرى برجال الدين وقادة الفكر من أهل العصور الوسطى أن يضيقوا بالفلسفة ، وينفروا منها ، ويزوروا عنها · ومع ذلك فقد استطاع فريق من هؤلاء القادة وأولئك الرجال أن يلتمس أوجهـا للتوفيق بين عقائد الاسـلام والمسيحية ، وبين أنظـار الفلسفة اليونانية ومناهجها · ومن هنـا كان المجهود الذى تركزت فيه قوة الفكر الانسـانى ابان العصور الوسطى ، موجها الى محاولة التوفيق بين العقل والايمان من ناحية ، والى اخضـاع العقل للايمـان من ناحيـة أخرى ·

على أن تلك الحـركة الفـكرية التى كان قوامها التوفيق بين الفلسفة والدين ،واخضاع الفلسفة للدين، وذلك عن طريق استغلال الفلسفة اليونانية اسـتغلالا

يلائم عقائد الاسلام والمسيحية ، لم تمض دون أن يصيب الفلسفة شيء غير قليل من الأذى والاضطهاد : فقد أوذى بعض فلاسفة المسلمين ، كما اضطهد بعض فلاسفة المسيحيين ، وأكبر الظن أن ايذاء أولئك ، واضطهاد هؤلاء لم يكن مصدرهما الا هذا الجهل وضيق الأفق والتعصب والتعسف ، مما سيطر على بعض العقول فلم يفتح أمامها الطريق الى فهم الفلسفة والدين فهما صحيحا مستقيما ، فضلا عن المنافع والمطامع والضغائن والأهواء التى تهيمن على بعض النفوس والعقول والضمائر فتفسدها ، وتجعل منها أشياء تضر ولا تنفع، ولاتشفع لأصحابها ولا ترفع ٠

وها هنا ملاحظة لابد منها ، وهى أن ايذاء الفلاسفة واضطهادهم لم يكونا من الظواهر التى ظهرت فى العصور الوسطى دون العصور السابقة عليها : ذلك بأنه كما اضطهد ابن رشد فى ظل الاسلام ، وكما اضطهد غير ابن رشد فى ظل المسيحية ، فقد اضطهد من قبل كل من سقراط حتى حكم عليه بالاعدام ، وأرسطو طاليس حتى اضطر الى الهرب وذلك فى ظل الوثنية ٠ وها هنا مرة أخرى وهى أن الفلسفة فى الوقت الذى توفق فيه الى اقامة مذاهبها على دعائم قوية ، والى اشاعة مبادئها فى عقول الاغلبية حينا ، والأقلية حينا آخر ،

وفى الوقت الذى تلقى فيه قبولا لها ، واقبالا عليها ، لدى هذه العقول أو تلك ، تراها قد صادفت نفوسا ضيقة ، وقلوبا مغلقة . وعقولا جامدة ، كما ترى أن أصحاب هذه النفوس والقلوب والعقول التى كانت كذلك لم يتح لهم هذا الحظ من الفكر الحر ، والبحث المستقل ، والنظر البعيد عن مزالق الهوى ومواطن الشطط ، مما يهيىء لهم سبيل فهم الفلسفة على الوجه الذى ينبغى أن يفهموها عليه ٠

ومهما يكن من شيء ، فقد وفقت الفلسفة المدرسية فى هذا التوفيق الذى حاولت بين الفلسفة والدين ، وذلك حين أقبلت على دراسة أرسطو طاليس ، فاذا هى تجد عنده مايرضى رغبتها ، ويشبع حاجتها : ففى مذهب المعلم الأول أصابت الفلسفة المدرسية حظا كبيرا من الفلسفة الطبيعية للنفس الانسانية ، ومنه استمدت أصدق تصوير وأكمل تعبير عن هذا العقل العام الذى أخذت نفسها بالتوفيق بينه وبين العقائد الدينية ٠ ومع ذلك فنحن مضطرون الى أن نلاحظ أن بين عقائد الدين وبين مذهب أرسطو طاليس خلافا قويا ، واذن فمن الغريب أن يعول المدرسيون هنا على مذهب لايتفق وعقائدهم اتفاقا تاما ، ولكنهم كانوا من البراعة بحيث استطاعوا أن يفهموا مذهب أرسطو طاليس ، وأن

يسيغوه ، وأن يصطنعوه ، ويستغلوه ، على الوجه الذى أرادوا به الى التوفيق بين الدين والفلسفة .

على أن فلسفة العصور الوسطى تختلف عن الفلسفة اليونانية من حيث طبيعة المبادىء التى أقيمت عليها ، ومن حيث حقيقة الأفكار التى دعت اليها ، فضلا عن نوع الظروف التى أحاطت بها : فالمسيحية مثلا من حيث هى وحى دينى خالص لا أثر للجمال الفنى فيه ، تشتمل على كل الأصول والمبادىء والحقائق التى تكفل للانسان السعادة والسلام . وهاهى ذى بعض المذاهب الفلسفية للمدرسيين تنطق بحقارة الطبيعة ازاء العظمة الالهية، وبخضوع العقل للوحى ، وباذعان الفكر الحر لسلطة الدين ، وكل هذه مذاهب ألفتها واحتضنتها وغذتها فلسفة العصور الوسطى ، ثم قبلتها واعتنقتها وآمنت بها ، وتعصبت لها . تعصبها للمسيحية وايمانها بها . وينبغى ألا يفهم من هذا أن هذه الفلسفة المسيحية كانت كلها فلسفة جامدة لا أثر فيها للفكر الحر : فلقد كان الى جانب هذه المذاهب التى أخضعت العقل للدين ، مذاهب أخرى قوامها فكر حر ، وفلسفة خالصة أو كالخالصة من قيود الدين ، غرضها التوفيق بينها وبين هذا الدين ، أكثر مما كانت تقصد الى اخضاع الفلسفة للدين . وفضلا عن هذا فقد كان هناك بعض المسائل

الفلسفية البحتة التى درست دراسة فلسفية خالصة ظهر فيها الاستقلال عن الدين الى حد بعيد • ومهما يكن من أمر هذا الاستقلال فان الطابع الذى طبعت به فلسفة العصور الوسطى بصفة عامة ، والفلسفة المدرسية بصفة خاصة ، كان طابعا دينيا ، ان دل على شىء فانما يدل على أن قيادة الفكر الفلسفى كانت للدين أكثر مما كانت للعقل •

٣ ـ الفلسفة الحديثة

لم يكد القرنان الخامس عشر والسادس عشر للميلاد يظلان الناس فى أوربا ، حتى كان الدين قد أسلم قيادة العقل الى العقل نفسه • وماهى الا أن استكشفت الكتب الفلسفية والعلمية والأدبية لليونان والرومان ، كما استكشفت غيرها من الكتب التشريعية والسياسية والفنية ، لهاتين الأمتين الخالدتين ، والا أن عكف الناس على كل هذه الآثار ، فأوسعوها نقلا وشرحا وتحليلا ، وتعليقا وتفسيرا وتأويلا ، والا أن قرءوها وفهموها ، وأساغوها وهضموها ، وطبعوها وأذاعوها ، حتى انتشرت فيهم ، وشاعت بينهم ، وآتت ثمارها فيهم • واذا كان ذلك كذلك ، فقد نهضت الفلسفة ، وتقدمت

العلوم ، وازدهرت الفنون ، وأشرقت الآداب ، وكان لابد لهذا كله من أن يعمــل عمله ، ويؤتى أكله ، فى الفكر الانسانى بصفة عامة ، وفى الفكر الفلسفى بصفة خاصة ، كما كان هذا كله قواما لحركة الاحياء التى قامت بها النهضة الأوربية فى العصور الحديثة ، وذلك بما قصدت اليه من احياء القديم ، واخراجه للناس فى صور شائعة جــذابة كان لها خطــرها العظيم وأثرها البعيد فيما وصلت اليهالفلسفة وغير الفلسفة من نهوض وتقدم وازدهار واشراق ابان هذه العصور الحديثة

وقد ترتب على هذا كله أن تطورت الحياة الفكرية، وأن تغير معها وجه كل شيء ، وان أصبحت الظــروف الاجتماعية ، والأحوال الخاصة لحياة الفرد والجمــاعة فى العصور الحديثة غير ماكانت فى العصور الوسطى ، وفى العصور القديمة ، وان استغلت النهضة الأوروبية هذا التراث الخالد الذى خلفه اليونان والرومان استغلالا خصبا منتجا فى حياة الفكر الأوروبى ، حتى اذا جاء القرن الســابع عشر للميــلاد كان كل شيء مما تركه اليــونان والرومان قــد درس وحلل ، وشرح وأول ، وطبع ونشر ، وحتى كانت فلسفة اليونان قد أذيعت بين الناس ، ففهموها وذهبوا فى فهمها مذاهب شتى . فمنهم من ذاد عنها وتعصب لها ، ومنهم من ازور عنها

وتعصب عليها ، واذن فقد أثرت وآثمرت فلسفة القدماء في فلسفة المحدثين أثرا قويا ، وثمرا شهيا ، بحيث يمكن أن يقال ان الفلسفة الحديثة على مافيها من جدة وطرافة وابتكار ، انما كانت على وجه ما ، والى حد ما، ثمرة يانعة رائعة من الثمرات اليانعة الرائعة الكثيرة التى أنتجتها وخلقتها ، أو غذتها ونمتها ، الفلسفة القديمة وفلسفة العصور الوسطى .

على أن الفلسفة الحديثة قد انتهجت لنفسها منهجا جديدا فى البحث عن حقيقة الكون وقيمة الكائنات ، ولكنها على الرغم من التجديد فى هذا المنهج ، وعلى الرغم من النتائج القيمة التى وفقت اليها آكثر مما وفقت الفلسفة القديمة ، فانها لم تكن قد خلصت خلاصا تاما من تأثير القديم الذى تبنت عناصره فى تضاعيف المناهج والمذاهب الحديثة . ومع ذلك فليس من الحق ، ولا من الانصاف ، آن نغلو كثيرا ، فى تقديم أثر القديم من المناهج والمذاهب الفلسفية ، فى الحديث عن هذه المذاهب وتلك المناهج : فمما لاشك فيه آن قد اتسع نطاق المسائل الفلسفية فى العصر الحديث عما كان عليه فى العصر القديم . ومما لاشك فيه أيضا أنه قد تنوعت هذه المسائل تنوعا مدهشا ، بحيث ترى أن الفلسفة قد اندست فى كل شىء ،وسيطرت على كل شىء،

وتقدمت لحل المعضلات فى كل فرع من فروع المعرفة الانسانية : فهى التى توجه العلم ، وتمده بالمنهج القديم الذى يعينه على كشف الحقيقة . وهى التى توجه السياسة وتمدها بقواعد الحكم وأصوله ، وبأنواع الدولة ، وبأى هذه الأنواع يجب أن تأخذ الحكومات . وهى التى تفسر الحياة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية تفسيرا يكشف عن حقيقة النفس الانسانية وطبيعة الملكات النفسية على أنحاء مختلفة من البحث ، ومناهج نفسه مايغنى ، ويكفى لاعطاء صورة حقيقية لما كانت متفاوتة فى طرق الدرس والتحليل والتعليل ، والفلسفة بعد هذا كله قد أثرت فى الأدب ، وفى مدارس الأدب المختلفة ، وفى مذاهب النقد المتعددة . ومعنى هذا كله أن العصر الحديث فى كل مجالاته ومقوماته ونزعاته هو عصر الفلسفة حقا ، وأن قادة الفكر الانسانى فى هذا العصر الحديث هم الفلاسفة الذين جلسوا على عرش الفكر ، وأصبح اليهم أمر هذا الفكر ، بقدر ما أصبح لديهم القرن السابع عشر هو العصر الذهبى للفلسفة على الحقيقة .

٤ ـ فلسفة ديكارت ومنهجه

لعلنا اذا أردنا أن نبين هنـا الفرق بين فلسـفة ديكارت و بين فلسفة كل من أفلاطون وأرسطوطاليس ، باعتبار أن هذين يمثلان الفلسفة القديمة ، على حين أن ذاك يمثل الفلسفة الحديثة ، وجـدنا عند ديكارت نفسه مايغنى ، ويكفى لاعطاء صورة حقيقية لما كانت عليه الفلسفة قديما . ولما انتهت اليه حديثا ، وهاهو ذا ديكارت يحدثنا عن الفلسفة اليونانية فيقول : «... وأول وأكبر من وصلت الينا مؤلفاتهم هما أفلاطـون وأرسطو ، ولم يكن بينهما من فرق سـوى أن أفلاطون قد سار على آثار أستاذه سقراط ، فاعترف فى خلوص نية بأنه لم يهتد بعد الى شىء يقينى ، وأنه قد اكتفى بتحرير مابدا له شيئا محتمل الصـدق ، وتخيل لهـذا الفرض بعض مبادىء حاول بواسطتها أن يفسر الأشياء الأخرى . أما أرسطو فكان أقل صراحة ، ومع أنه تتلمذ على أفلاطون عشرين سنة ولم يكن لديه مبـادىء غير مبادىء أستاذه ، فقد غير طريقة عرضها تغييرا تاما ، وقدمها على أنها صحيحة ومؤكدة . ولو أن الأرجح أنها لم تكن قط فى تقديره كذلك ... والنزاع الكبير الذى نشب بين تلاميذهما انمـا كان مداره أن يتبينوا هـل

ينبغى أن توضح الأشـياء كلهـا موضع الشك ، أم أن هناك أشياء يقينية . وهو خلاف أفضى بالفريقين الى ضلال بعيد : لأن فريقا ممن ذهبوا الى الشك قد وسعوا نطاقه وجعلوه يمتد الى أفعال الحياة ، بحيث أنهم أهملوا استعمال الحيطة والتبصر فى سلوكهم . أما من ناصروا مذهب اليقين فقد افترضوا انه يعتمد على الحـواس ، فاطمأنوا اليها كل الاطمئنان ، حتى أنه يقال ان أبيقور بلغت به الجـرأة فى أقواله أن صرح ، خـلافا لجميع استدلالات علماء الفلك ، بأن الشمس ليست أكبر حجما مما تبدو لنا .. لكن خطأ من مالوا كل الميل الى جانب الشك لم يجد من تابعه زمنا طويلا . أما خطأ الفريق الآخر فقد تيسر تصحيحه شيئا ما ، حين تبين أن الحواس تخدعنا فى كثير من الأشياء - غير أنى لا أحسب أن ذلك الخطأ قد زال زوالا تاما ، لأن أحـدا لم يبين أن اليقين ليس فى الحواس ، بل فى الذهن وحده حين يكون لديه مدركات بديهية ، وأنه حين لايكون لدينا الا معارف اكتسبناها عن طريق درجات الحكمة الأربع ، حينذاك لاينبغى أن نشك فى الأشياء التى تبدو لنا حقيقية اذا كانت متصلة بسلوكنا فى الحياة ، ولكن لاينبغى كذلك أن نعدها يقينية يقينا يمتنع معه أن نغير رأينا فيها اذا اضطرتنا الى ذلك بداهة من بداهات العقل .» (ديكارت:

مبادىء الفلسفة . الترجمـة العـربية للدكتور عثمان أمين . القاهرة : سنة ١٩٦٠ ، ص ٥٢ ـ ٥٦) .

ومن هنـا نسـتطيع أن نتبين مـع ديكارت أنه لا أفلاطون ولا أرسطو . ولا الشكاك الذين وسعوا دائرة الشك حتى جعلوه يوغل فى أفعال الحياة ، ولا الآخذون بمذهب اليقين حتى قصروه على الحواس ، وجعلوه محلا للاطمئنان ، قد أرضى أحد منهم ديكارت ارضاء يمكن أن يقال معه ان هاهنا عند هذا أو ذاك منهم يقينا بالمعنى الصحيح الذى يفهمه ديكارت ، وهو اليقين الذى لاشك فيه بحيث لايمكن لأى شىء مـريب أن يتسرب اليـه ، ولا لأية شائبة من شوائب الغلط أو الخداع أن تخدعنا عنه . أو أن تجد سبيلا الى تشويه معرفتنا له . واذا كان ذلك كذلك فقد ترتب عليه أنه ليس ثمة أحد بين الفلاسفة السابقين على ديكارت ، أو المعاصرين له ، قد استطاع أن يصل الى مبدأ يقينى أو بديهى يمكن أن يتخذ منه نقطة بدء لاستنباط نتائج بديهية ، وذلك لأن الامر هو كما يقول ديكارت : «ان جميع النتائج التى تستنبط من مبدأ ليس بديهى لايمكن أن تكون بديهية مهما يكن الاسـتنباط من حيث صـورته صـحيحا . ويترتب على هذا أن جميع الاستدلالات التى أقاموها على مثل تلك المبادىء لم تستطع أن تؤدى الى المعـرفة

اليقينية لشيء واحد ، ولم تستطع بالتالى أن تجعلهم يتقدمون خطوة واحدة فى البحث عن الحكمة» (مبادىء الفلسفة : ص ٥٩) ٠

واذا كان ذلك كذلك مرة آخرى فقد آورد ديكارت بعد ايضاح هذه الأمور الأدلة اللازمة لاثبات آن المبادىء التى تعيننا على الوصول الى مراتب الحكمة ، وهى قوام الخير الأسمى فى الحياة الانسانية ، هى المبادىء التى وضعها فى كتابه المعروف باسم (مبادىء الفلسفة) ٠ وها هنا يكتفى ديكارت بايراد دليلين اثنين لاثبات صحة مايذهب اليه : الدليل الأول هو آن هذه المبادىء واضحة جدا ٠ والدليل الثانى هو آنه فى استطاعتنا أن نستنبط منها جميع الحقائق الاخرى (مبادىء الفلسفة : ص ٦٠) ٠

أما كيف آثبت ديكارت آن هذه المبادىء واضحة جدا ، فما أيسر ماكان ذلك عليه ، وما آظهر ما أبان به عنه ، وعن كل المبادىء والنتائج التى استنبطها منه، وكان جماع هذا كله عنده هو قوام منهجه ومذهبه اللذين تتآلف منهما فلسفته ، وذلك على الوجه الذى يظهرنا عليه فى قوله : «ومن الميسور لى آن آثبت آنها واضحة جدا : آولا ، بالاستناد الى النحو الذى وجدتها عليه ، آعنى باطراح جميع القضايا التى عرض لى فيها

وجه من وجوه الشك . اذ من المستيقن أن القضايا التى
أنعمنا النظر فيها ، ووضعناها موضـع الاختبـار فلم
نستطع اطراحها بعد ذلك ، هى أجلى وأوضح مايستطيع
الذهن الانسانى أن يعرف • ونظرا الى أنى رأيت ان
من يريد أن يشك فى كل شىء لايسـتطيع مع ذلك أن
يشك فى وجوده حين يشك ، وأن ماسبيله فى الاستدلال
هذا النحو من عدم استطاعته أن يشـك فى ذاته ولو
كان يشك فى كل ماسواه ، ليس هو مانقول عنـه انه
بدننا بل مانسميه روحنا أو فكرنا ـ بهـذا الاعتبار
أخذت كينونة هذا الفكر أو وجوده على أنه المبدأ الأول•
ومن هذا المبدأ استنبطت بكل وضوح المبادىء التالية :
أعنى وجود اله هو صانع ماهو موجود فى هذا العالم •
ولما كان الله تعـالى منبع كل حقيقة ، فانه لم يخـلق
الذهن الانسـانى على فطرة تجعله يخطىء فى الحـكم
الذى يطلقه على الاشياء التى يتصورها تصورا واضحا
جدا ومتميزا جدا • تلك هى المبادىء التى استعملتها
فيما يتصل بالاشياء اللامادية أو الميتافيزيقية • ومن
هذه المبادىء استنبطت استنباطا واضحا كل الوضوح ،
مبادىء الاشياء الجسمانية أو الفيزيقية ، أعنى وجود
الأجسام ممتدة طولا وعرضا وعمقا ، وذات أشـكال
مختلفة ، ومتحركة على أنحاء مختلفة • وهذه بالايجاز

جميع المبــادىء التى استنبطت منها حقيقــة الاشــياء الأخرى . والدليل الثانى على وضوح هذه المبادىء هو أن الناس عرفوها فى كل زمان وتلقوها جميعا على أنها مبادىء صحيحة ولا سبيل الى الشك فيها ، ولايستثنى منها الا وجود الله . اذ وضعه بعضهم موضع الشك ، بسبب اسرافهم فى الاعتــداد بمدركات الحس ، وأنهم لايستطيعون أن يروا الله بأبصــارهم ولا أن يلمسوه بأيديهم - ولكن على الرغم من أن جميع الحقائق التى أضعها بين مبادئى قد عــرفها الناس جميعا فى جميع الازمان ، غير أنى لا أعلم أن أحدا حتى الآن قد تبين أنها هى مبادىءالفلسفة ، أى أنها من‌شأنها أن تستخلص منها المعرفة بجميع الأشياء التى فى العالم ، ولذلك‌يبقى على هاهنا أن أثبت أن هذا هو شأنها . ويبــدو لى أن أفضل ســبيل استطيع به أن أثبت ذلك هــو أن أبينه بالتجربة ، أى أن أدعو القراء الى قراءة هذا الكتاب . لأنى وان لم أكن قد تناولت فيه جميع الاشياء لاستحالة هذا الامر ، فانى أحسب أنى قد فسرت جميع الاشياء التى عرضت لها فى مواضعها ، بحيث أن من يقرءونه بشىء من الانتباه سيكون لديهم مايدعوهم الى الاعتقاد بأنه لا حاجة الى التماس مبادىء أخــرى غــير ماقررت للوصول الى أرفع معــرفة أتيح للذهن الانســانى أن

يبلغها . فاذا قرءوا مؤلفاتي أولا ، وحرصوا على ملاحظة تفسيرها للمسائل المختلفة ، واذا تصفحوا أيضا مؤلفات غيري لرأوا قلة ما أولوا فيها من الادلة المقبولة لتفسير تلك المسائل نفسها بمبادىء مخالفة لمبادئي وأود أن أقول لهم كيما يتيسر لهم القيام بما أدعوهم اليه ، ان أولئك الذين ألفوا آرائي يلقون في فهم مؤلفات غيري ، وفي معرفة قيمتها الحقيقية عناء أقل بكثير مما يلقاه من لم يألفوا تلك الآراء . وهذا عكس ماقلت منذ قليل عمن بدءوا بدراسة الفلسفة القديمة، من أنهم كلما زاد اشتغالهم بها قل في الغالب استعدادهم لتعلم الفلسفة الحقة .» (مبادىء الفلسفة : ص ٦٠ ــ ٦٤) .

وهكذا يمضي ديكارت في عرض مبادىء فلسفته الواضحة الجلية التي نتبين معه من خلالها أي منهج جديد في البحث قد انتهج ، وأي مذهب طريف في الفلسفة والكشف عن الحقيقة قد ذهب اليه ، وأي أثواب من التجديد في بناء الفكر الانساني واقامةصرحه قد أضفى ديكارت عليه ، مما جعله فذا بين الفلاسفة ، وجعل منهجه ومذهبه بدعا بين القديم والحديث من هذه المذاهب وتلك المناهج ، حتى لقد كان يشعر هو نفسه بمقدار مابلغه في فلسفته من درجات الحكمة ، وما وصل

اليه فيها من مـــراتب الكمال ، وذلك على النحـو الذى يحدثنا به فى مختتم رسالته التى بعث بهـا الى مترجم كتابه (مبادىء الفلسفة) من اللاتينية الى الفرنسية ، فاذا هو يقـول : «ولكن أقول فى الختـام انه اذا كان الاختلاف الذى سيرونه بين هذه المبادىء وبين مبادىء أى مذهب آخر . والموكب الكبير من الحقائق التى يمكن أن تستخلص منها ، يجعلهم يعرفون أهمية الاستمرار فى بحث هذه الحقائق ، ومدى مايســتطيع أن يوصلنا اليه من درجات الحكمة وكمال الحياة وغبطتها ، فانى مقتنع بأنه لن يوجد واحد لا يحـاول أن يشـغل نفسه بهذا البحث المفيد ، أو على الاقل لايؤيد ولايعاون بكل قــواه أولئك الذين يهبون أنفســهم للمضى فى هـذا السبيل موفقين ٠ ان أمنيتى أن يأتى يوم يشهد فيــه خلفاؤنا هذه العقبى السعيدة ٠» مبادىء الفلســفة : ص ٨٣ ــ ٨٤) ٠

على أن ديكارت لم يقف عند هذا الحد من الابانة عن منهجه ومدى ارتباطه بمذهبه عندما يكون موضوع البحث عن مشكلات الميتافيزيقا فحسب ، وانما هو قد تجاوز الميتافيزيقا الى العــلوم حيث يكون الموضــوع موضوع بحث من تلك التى يبحث فيها عن الحقيقة فى العلوم ، فاذا هو يضع كتابا خاصا بالمنهج ، هو هـذا

الذى يسميه (مقال عن المنهج لاحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة فى العلوم) ، وجعل هذا المنهج مؤلفا من قواعد أربع يسلم بعضها الى بعض ، ويؤدى كلها الى كشف الحقيقة فى أى من العلوم لا فى الميتافيزيقا وحدها • والذى يعنينا هنا هو أن نقف معه عند قاعدته الأولى ، فهى الرئيسية بين قواعد المنهج جميعا كما أنها أفعل هذه القواعد فى مجال الميتافيزيقا بمقدار ماهى أدخل فى مجال العلم على اختلاف فروعه ، وكما أنها أدل قواعد المنهج الديكارتى على المنهج نفسه ، سواء فيما يعرض له من هذه الحقيقة أو تلك من حقائق الفلسفة والعلوم ، وحسبنا أن نورد هنا منطوق هذه القاعدة فى لغة صاحبها التى غير بها وجه الحقيقة فى العصر الحديث ، وتغير معه وجه كل شىء فى الفلسفة ، وفى العلم ، وفى كل شىء يتصل بالحضارة الانسانية من قريب أو من بعيد ابان هذا العصر الحديث . فقد قال ديكارت : «••• وكما أن كثرة القوانين كثيرا ماتهيىء المعاذير للنقائص ، بحيث تكون الدولة خيرا حكما ونظاما ، عندما لايكون لديها من القوانين الا قليل جدا ، فتصبح هذه القوانين مراعاة بدقة كثيرة . كذلك اعتقدت أنه بدلا من هذا العدد الكبير من المبادىء التى يتألف منها المنطق . فالاربعة التالية حسبى ، بشرط أن

يكون عزمى على ألا أخل مرة واحدة بمراعاتها صادقا ودائما • الاولى ألا اقبل شيئا ما على أنه حق ، مالم أعرف يقينا أنه كذلك : بمعنى أن أتجنب بعناية التهور ، والسبق الى الحكم قبل النظر ، وألا أدخل فى أحكامى الى مايتمثل أمام عقلى فى جلاء وتميز ، بحيث لايكون لدى أى مجال لوضعهموضع الشك • » (ديكارت: مقال عن المنهج ، هذه الطبقة ، القسم الثانى) •

هذا هو منهج ديكارت فى أخص مبادئه ، وذلك هو مذهبه فى ألصق عناصره ، وهما — بما هما عليه من اتخاذ الوضوح والجلاء ، وانتفاء الشك ، واتقاء الشبهة، وحصول اليقين ، وتحصيل المعرفة اليقينية التى تنبع من ذات العارف بادىء ذى بدء ، لا من موضوع المعرفة بعد استدلالات قد تكون مقدماتها ظنية أو مشكوكا فيها — أسس للمعرفة اليقينية ، يمكن أن نخلص منهما الى أخص خصائص الفلسفة الحديثة كما جاءت على يد أب الفلسفة الحديثة : ذلك بأن الفلسفة الحديثة — مفهومة على الوجه الديكارتى ، وفى ضوء المنهج والمذهب الديكارتيين — كانت من غير شك خليقة أن تبحث عن الشروط التى ينبغى أن تتوافر لدى العقل حتى تتحقق له المعرفة اليقينية الحقة ، كما كانت جديرة أن تمتحن قيمة الصلات الوثيقة ، والروابط الدقيقة

مابين الاشياء والمعانى ، أو ان شئت فقل بين الاشياء وبين حقائق الاشياء ، هذه الصلات والروابط التى كانت تنظر اليها الفلسفة القديمة وفلسفة العصور الوسطى ، على أنها يقينية : فالحس والعقل ، الجسم والنفس ، الطبيعة والأخلاق ، الفردية والجماعية ، العالم والاله ، كل هذه مسائل تناولتها الفلسفة الحديثة بحثا دقيقا ، ودرسا عميقا ، وانتهت من درسها المدركة فيما بينها من ناحية ثانية ، وبينها وبين حقائق توجد بينها وبين بعض من ناحية ، وبينها وبين الأشياء هذه الأشياء المنطوية عليها من ناحية ثالثة · وعلى حين كانت فلسفة القدماء ترى أن نشاط الذات أو الشخص (Objet) ، وأن تمثل الشيء أو الموضوع(Sujet) وكأن أحدهما يوجد فى الآخر ، فقد رأت فلسفة المحدثين أن توغل فى أعماق الذات ، وتنفذ الى باطن الشخص ، لتكشف فيه شروط الحقيقة الواقعة ، وبالأحرى قل لنكشف فيه المبادىء السليمة القويمة التى يتولد منها ادراك الحقيقة الأولى ، وبقية الحقائق الأخرى التى تتفرع على هذه الحقيقة الأولى ، وينبنى فهمها عليها · وفوق هذا كله فقد وفقت الفلسفة الحديثة بفضل ديكارت الى أن تضع منهجا فلسفيا دقيقا اصطنعه العلماء فانتهى بهم الى أحسن النتائج ، وأيقن المعارف،

واصطنعه الفلاسفة أنفسهم فوفقوا بفضله الى آكد وأوثق معرفة للحق والخير والجمال ، كما وفقوا فى ظله الى أمن اليقين الذى أحسنوه ، ويحسه معهم كل مصطنع لهذا المنهج عندما يريد أن يعرف حقيقة كل من النفس الانسانية والذات الالهية والطبيعة الكونية معرفة صحيحة صادقة ولاشك فيها ٠

فاذا كان ذلك كذلك ، وكنا قد تبينا مع ديكارت طبيعة المبادىء التى أقام عليها فلسفته ، والحقائق التى أعمل فيها منهجه ، فلعل من الخير أن نعرف ماذا كانت الفلسفة ومنهجها من العلوم والمناهج الأخرى عند مجدد الفلسفة وأبيها فى العصر الحديث ؟ الحق أن ديكارت قد نظر الى الفلسفة ومنهجها نظرة كلية شاملة ، وذلك اذ جعلها لكل العلوم أشمل ، كما جعل منهجها فى أبواب كل العلوم أدخل ٠ وليس أدل على ذلك من أنه عرف الفلسفة بأنها دراسة الحكمة ، والحكمة ليست مجرد الفطنة فى الأعمال ، بل هى المعرفة الكاملة بكل مافى وسع الانسان معرفته بالاضافةالى تدبير حياته ، وصيانة صحته ، واستكشاف الفنون ، ولكى تكون هذه المعرفة كذلك فلابد من أن تكون مستنبطة من العلل الأولى ٠ ومثل الفلسفة كمثل شجرة جذورها الميتافيزيقا ، وجذعها العلم الطبيعى ، وأغصانها بقية العلوم ، وهذه

ترجع الى ثلاثة كبرى هى : الطب والميكانيكا والأخلاق العليا الكاملة التى تفترض معرفة تامة بالعلوم الاخرى، والتى هى آخر مرتبة من مراتب الحكمة (مقدمة مبادىء الفلسفة) · واذا كانت الفلسفة كذلك ، فهى نظرية من وجه ، وعملية من وجه آخر ، والعمل فيها هو الغرض الأسمى ، كما أن العقل فى الانسان هو أهم جزء فيه ، وكما أن الحكمة هى خيره الأعظم ، وكما أن للعمل غرضا هو ضمان رفاهة الانسان وسعادته فى هذه الحياة الدنيا ، بمد سلطانه على الطبيعة ، واستخدام قواها لصالحه · وهاهنا يلاحظ بادىء ذى بدء أن ديكارت لم يكن مجددا للفلسفة سواء فى تعريفها أو فى تقسيمها ، ولا مخالفا فى هذا أو ذاك لما قاله القدماء من قبل ، سواء فى تلك النظرة الكلية الى الفلسفة ، أو فى ذلك الشمول العام الذى جعل منها أما للعلوم جميعا، أو أصلا لهذه العلوم التى هى منها بمثابة الفروع لها ، أو التطبيقات العملية عليها · أما التجديد الحقيقى الذى استحدثه ديكارت فى الفلسفة فانه لم يكن فى تعريفها، ولا فى تقسيمها ، ولا فى النظرة الكلية الشاملة اليها ، وانما كان فى تفصيل المسائل التى عرضت لها ، وفى تحليل المبادىء التى قامت عليها ، وفى تحصيل النتائج التى وصلت اليها ، وفى غير هذا كله من الأفكار

والأنظار التى لايتسع مثـل هـذا التقديم لاحصـائها واستقصائها ، وحسب القارىء من هذه الأنظار وتلك الأفكار ماسيقع عليه منها فى هذا المقال عن المنهج الذى يكاد أن يكون الماما عاما بكل العناصر الرئيسية التى تتألف منها فلسفة ديكارت ، فضلا عن القواعد الأساسية التى يشتمل عليها منهجه ٠

أما كيف كان ديكارت مجددا فى المنهج ، فذلك مايمكن أن نتبينه معه من خلال نظرته الى المنطق بصفة عامة ، والى القياس الأرسطاليسى والاستقراء التجريبى بصفة خاصة : فالمنطق يقف عند أفعال العقل ، يحللها تارة ، ويدل على مواطن الصدق والخطأ فيها تارة أخرى، وديكارت وبيكون وأشباههما من المحـدثين يرون أن هذا التحليل عقيم ليس وراءه طائل ، ولا فيه غناء ٠ والقياس الارسطاليسى وهو اله الاستنباط عند المعلم الأول لايسمن ولا يغنى من جوع ، لأنه ليس الا طائفة متسلسلة من الحدوس تمضى بحركة متصلة من حد الى حد ، وهنا يربط العقل بين حـدود لم تكن عـلاقاتها واضحة بادىء ذى بـدء ، ومايزال العقل ماضـيا فى استنباطه حتى يبلغ من هذا الاستنباط غايته ، وهنالك يرد المجهول الى المعلوم ، والمركب الى البسيط ، والغامض الى الواضح (قواعد تدبير العقل) ٠

والاستقراء كما يعرفه المناطقة والتجريبيون بصفة عامة ، انما يصل الى معارف متفرقة ، اذا اجتمع بعضها الى بعض ، وحشد بعضها مع بعض ، وألف بين بعضها وبين بعض ماكان منها علم ملفق مهلهل ، ليس لليقين اليه من سبيل . ولا كهذا أو ذاك كان منهج ديكارت : ذلك بأن منهج ديكارت فى الفلسفة والعلم هو الحدس الذى يتناول المبادىء البسيطة ، ويستنبط من المبادىء قضايا جديدة . وهـذا المنهج هـو الذى يبين القواعد العملية التى يجب اتباعها لاحكام قيادة العقل فى اقامة العلم . والعلم عند فيلسوفنا استنباطى ، من حيث أنه يضع المبادىء البسيطة الواضـحة المتمايزة ، ويتدرج منها الى النتائج . ولعل آخص مايمتاز به منهج ديكارت هو وضوح مبـادئه ، ويقين نتائجه ، على نحـو ماهو معروف فى الرياضيات التى تمضى من البسيط الواضح الى المركب الغـامض بنظام محـكم . واذا كان العقل واحدا ، وكانت الفلسفة جملة واحدة ، تؤلف علما كليا واحدا ، وكانت العلوم لاتتمايز فيما بينها بموضوعاتها ومناهجها ، لأنها ثمرات هذا العقل الواحد ، فقد ترتب على ذلك آن يكون المنهجواحدا ، وآن يكون هذا المنهج الواحـد هو المنهج الوحيـد المشروع . الذى يصطنعه العقل الواحـد فى العلم الواحـد ، آو فى كل علم من

العلوم الجزئية المتفردة التى اذا تآلفت نشأ من تآلفها هذا العلم الكلى الواحد الذى هو عند ديكارت عبارة عن دراسة الحكمة ، أو هو شجرة جـذورها الميتافيزيقا ، وجذعها العلم الطبيعى ، وأغصانها بقية العلوم ، وهو انما يعنى به الفلسفة على حد تشبيهه لها ، وتعريفه بها، فيما سبق أن أثبتناه آنفا ٠

على أن ديكارت لم يكن يقنع فى نتائجه باصطناعه لهذا المنهج الذى يمتاز بوضوح مبادئه ، ويقين نتائجه، على نحو ماهو معروف فى الرياضيات ، وانما هو قد اصطنع التجربة أيضا ، واشترك مع فرنسيس بيكون فى الابانة عن عقم القياس الارسططاليسى ، ولهذا قد يتسرب الى بعض الأذهان أن ديكارت كان تجريبيا ، وأن مثله فى هـذا المنهج كان كمثل بيكون فى (الأرغانون الجـديد) ، والواقع أن ديكارت لم يكن كـذلك : لأن التجربة عند ديكارت لم تكن هى الأداة الوحيدة للوصول الى النتائج القاطعة ، وانما كانت التجربة عنده وسيلة من الوسائل المختلفة التى كان يستعين بها الفيلسوف الفرنسى على تحقيق النتائج التى يصل اليها فى العلوم، بحيث يتبين له بعد اجرائه لهذه التجربة أو تلك ، على هذا الشىء أو ذاك ، وجه الدقة فى تطبيق المنهج الذى اصطنع ، ووجه اليقين فى النتائج التى بها اقتنع ، حتى

يصبح اليقين عنده شيئا لايأتيه الشك من بين يديه ولا من خلفه .

وهكذا كانت الفلسفة كل شيء في العصور الحديثة . وهكذا كان منهج ديكارت تجديدا حديثا لما كان عليه الفكر الانساني قديما ، كما كان تحريرا حديثا مما كان يرسف فيه هذا الفكر الانساني قديما من سلاسل وأغلال ، كانت في كثير من الأحيان عائقة له عن الحرية والاستقلال . وهكذا تهيأ لديكارت أن يقيم الفكر الفلسفي والعلمي على دعائم أرسخ ، وأن يؤسس بناءه على وجه أشمخ ، حتى بلغ من رسوخه وشموخه ، أن أصبح ديكارت وكأنه يطل من علياء هذا الصرح الراسخ الشامخ ، ويشير الى غيره من الفلاسفة والعلماء وأهل الفن والأدباء ، والى غير أولئك وهؤلاء من المفكرين السياسيين والاجتماعيين ، ويدعوهم أن هلموا الى رحاب الوضوح والجلاء ، والى روض اليقين والضياء ، اليكم عن كل ماهو غامض مبهم ، وقائم مظلم ، وعليكم بكل ماهو واضح جلي ، وبين يقيني . وليس من شك في أن ديكارت في دعائه هذا ، وفي استجابة الناس له ، واتباعهم نهجه ، قد بدد الشك باليقين ، وحطم باطل المبطلين ، ودعم حق المحقين ، واذا الحقائق في الفلسفة والعلم ، وفي غير الفلسفة

والعلم من مجالات الحياة والانسانية، قد تكشفت واضحة جلية ، وبينة يقينية . وتلك لعمرى هى أخص خصائص الفلسفة المنهجية الديكارتية ، التى تميزها أشد التميز من فلسفة العصور الوسطى والفلسفة اليونانية ·

واذا كانت تلك هى اخص خصائص فلسفة ديكارت ومنهجه ، وكان ديكارت بهذا المنهج وتلك الفلسفة قد طلع على الناس بهما فى القرن السابع عشر ، فكان مستحدثا للجديد،ومحررا للفكرمن ربقةالقديم ،ومؤثرا فى كل وجه من أوجه الحياة المعاصرة له ، والتالية بعده، فقد تبين اذن لم يعد القرن السابع عشر الذى ظهر فيه ديكارت بعبقريته وبراعته ، وبما استحدث من منهج ومذهب ، وبما عرض له من مسائل ، أو بما خلف من كتب ورسائل ، عصرا ذهبيا للفلسفة الحديثة التى لم يقف ازدهارها عند هذا القرن السابع عشر فحسب ، وانما تجاوزه الى مابعده ، من قرون مازالت الانسانية المفكرة العاملة تنعم بظلالها الوارفة ، وقطوفها الدانية الى اليوم ·· أما كيف كان ذلك كذلك ، فذلك ماتتبينه من خلال الحركات الفلسفية والعلمية والأدبية والفنية التى قامت لدى أمم العالم المتحضر منذ عصر ديكارت الى عصرنا هذا : ففلسفة القرن السابع عشر من أوله الى آخره فى فرنسا وانجلترا وألمانيا وايطاليا وهولندا،

انما كانت كلها فلسفة ديكارتية الى حد بعيد عند بعض الفلاسفة ، وديكارتية الى حد ما عند بعضهم الآخر : فما لبرانش واسبينوزا وليبنتز وكثير غيرهم من فلاسفة القرن السابع عشر لم يكونوا الا ديكارتيين ، يتفاوتون في ديكارتيتهم تطرفا أو اعتدالا ، وظهورا أو خفاء ، وتأييدا أو تفنيدا ٠

وكـذلك كانت الحيـــاة الفـكرية والسـياسية والاجتماعية فى القرن الثامن عشر مرآة صادقة تتجلى على صفحتها الآثار الباقية للفلسفة الديكارتية : ذلك بأن قيادة الفـكر فى كل نواحيـه ، وقيـادة الحيـاة الاجتمـاعية فى كل مرافقهـا ، والتمهيـد للحيـــاة الديمقراطية الحرة فى كل ثوراتها، انما كان كل أولئك أمره الى الفلاسفة الذين صـدروا كثيرا أو قليلا عن منـابع ديكارتية ٠ الحـق انه لو لم يكن منهج ديكارت ومذهبه لما كانت فلسفة كانط النقدية التى انتهت الى كثير من القوة والدقة والكمال ،فيما عرضت له وتعمقت فيه من مسائل تتصل بأنظـار العقل وأفعال الأخـلاق وأذواق الجمال ٠ واذا كان كانط نفسهقد نقد ديكارت نقدا عنيفا فى بعض الآحيان ، ورفيقا فى بعض الأحيان الأخرى ، الا آنه كان على كل حـال متأثرا بفلسـفة ديكارت على أى من أوجه التآثر المباشر آو غير المباشر ،

ناهيك بأن النقد الكانطى ، اذا حللته الى عناصره ، وأوغلت فيه الى بواطنه لاسيما فيما يتعلق بنظرية المعرفة ومصادرها ومراتبها وقيمها ٠ لم يسفر هذا كله فى حقيقته الا عن صورة جديدة للشك الديكارتى الذى اتخذه ديكارت له منهجا يوصله الى اليقين ، كما اتخذ كانط من النقد منهجا يبصره بالمعرفة اليقينية التى تختلف فى طبيعتها وقيمتها وخاصتها الحسية والعقلية ، عن المعرفة الظنية ، كما يختلف الشك عند ديكارت عن اليقين الذى هو من غير شك أخص خصائص، وأدل دلائل المعرفة اليقينية التى لايكتنفها الغموض ، ولا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها ٠ واذن فأنت ترى ان شك الفيلسوف الفرنسى ونقد الفيلسوف الألمانى ، انما هما لغتان وان اختلفت احداهما عن الأخرى فى ظاهر اللفظ والعبارة ، الا أنهما فى حقيقتهما لغتان مترادفتان تعبر احداهما عما تعبر عنه الأخرى ، بمعنى أنك اذا قلت ان ديكارت يشك فكأنك تقول ان كانط ينقد ، وكل ماهنالك من فرق بين اللغتين هو أن لغة الشك الديكارتى كانت اللاتينية أو الفرنسية، كما أن لغة النقد الكانطى كانت الألمانية ٠

هذا من حيث أثر المنهج الديكارتى فى فلسفة القرن الثامن عشر ، أما كيف كانت الفلسفة الحديثة

بصفة عامة ، وفلسفة ديكارت بصفة خاصة . مؤثرة فى
حياة الفكر فى كل نواحيه فى مسيرة للحياة الاجتماعية
فى كل مرافقها ، فيكفى أن نشير هنا الى أن هذا المنهج
الديكارتى فى الشك ، انمـا كان منهجا فى الفـكر ،
وطريقا الى تحرير هذا الفكر مما قيده من قيود حالت
بينه وبين التفكير الحر والرأى المستقل عن الدين ابان
العصور الوسطى • واذا كان يقال منذ زمان بعيد أن
جان جاك روسو ، وديدرو • ومونتسكيو ، وكلهم من
الفلاسفة المرموقين ، هم الذين مهدوا بمؤلفاتهم وآرائهم
سبيل الثورة الفرنسية التى حققت كثيرا من مبادىء
الحرية والمساواة والاخاء ، والتى لم تؤثر فى فرنسا
فحسب ، وانما أثرت فى فرنسا ،وقلبت الحياة السياسية
والاجتماعية للأفراد والجماعات رأسا على عقب ، فى غير
فرنسا من الأمم الحديثة . اذا كان يقال هذا كله ، ويردد
دائما حتى لقد أصبح معروفا مألوفا منذ أمد طويل .
فمن الحق أيضا أن يقال ان البذور الأولى التى نبتت
منها أشجار هذه الحرية الفكرية والسياسية فى العصور
الحديثة ، يمكن أن تلتمس عنـد ديكارت فى منهجه ،
وفى مذهبه . وفى موقفه من الفلسـفة المدرسـية فى
العصور الوسطى ، ومن الفلسفة اليونانية فى العصور
القديمة . ذلك بأن ديكارت قد جـدد القـديم وحرر

الوسيط ، وتحرر هو من أغلال هذا وذاك ، وأخذ يفكر تفكيرا حرا لم يؤثر فيه وحده فحسب ، ولا تأثرنا به نحن في مصر المعاصرة . وقد تجلت آية هذا التأثر تجليا واضحا وجريئا على يد أستاذنا الجليل عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين ، وذلك عندما اصطنع منهج ديكارت الفلسفي العلمي في دراسة مشكلة كبرى من مشكلات الأدب العربي ، وهي مشكلة الشعر الجاهلي ، أصحيح هو في نسبته الى أصحابه من الجاهليين الذين ترتبط أسماؤهم بقصائد هذا الشعر ، أم هو منحول عليهم . معزو زورا اليهم ، اذ هو ليس من نظم الجاهليين في شيء ، وانما هو من نظم الاسلاميين في كل شيء ؟

وليس أدل على مبلغ اصطناع أستاذنا الجليل الدكتور طه حسين ، لمنهج ديكارت في الشك ، ومدى تأثره به في قواعده ، لاسيما قاعدته الأولى التي تعرف بقاعدة اليقين والوضوح والتمايز والجلاء ، ليس أدل على هذا كله ، وعلى أن منهج ديكارت لم يؤثر في الفلسفة والعلم والاجتماع والسياسة فحسب ، بل في الآداب أيضا ، وفي دراسة الأدب العربي بنوع خاص ، من قول أستاذنا نفسه ، حين يقول عن نفسه : «أحب أن أكون واضحا جليا ، وأن أقول للناس ماأريد أن أقول دون أن أضطرهم الى أن يتأولوا ويتمحلوا ويذهبوا

مذاهب مختلفة فى النقد والتفسير والكشف عن الأغراض التى أرمى اليها · أريد أن أريح الناس من هذا اللون من ألوان التعب ، وأن أريح نفسى من الرد والدفع والمناقشة فيما لايحتاج الى مناقشة · أريد أن أقول انى سأسلك فى هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة · أريد أن أصطنع فى الأدب هذا المنهج الفلسفى الذى استحدثه (ديكارت) للبحث عن حقائق الأشياء فى أول هذا العصر الحديث · والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هى أن يتجرد الباحث من كل شىء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالى الذهن مما قيل فيه خلوا تاما · والناس جميعا يعلمون أن هذا المنهج الذى سخط عليه أنصار القديم فى الدين والفلسفة يوم ظهر ، قد كان من أخصب المناهج وأقومها وأحسنها أثرا ، وأنه قد جدد العلم والفلسفة تجديدا ، وأنه قد غير مذاهب الادباء فى أدبهم ، والفنانين فى فنونهم ، وأنه هو الطابع الذى يمتاز به هذا العصر الحديث · فلنصطنع هذا المنهج حين نريد أن نتناول أدبنا العربى القديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء ، ولنستقبل هذا الأدب وتاريخه وقد برأنا أنفسنا من كل ماقيل فيهما من قبل ، وخلصنا من كل هذه الأغلال الكثيرة الثقيلة

التى تأخذ آيدينا وأرجلنا ورءوسنا فنحول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرة ، وتحول بيننا وبين الحركة العقلية الحرة أيضا ٠٠» (الدكتور طه حسين : فى الأدب الجاهلى، القاهرة سنة ١٩٢٧ م ، ص ٦٦ ــ ٦٧) ، وحين يقول أيضا : «٠٠ فأنت ترى أن منهج ديكارت هــذا ليس خصبا فى العلم والفلسفة والأدب فحسب ، وانما هو خصب فى الأخلاق والحياة الاجتماعية أيضــا ٠ وأنت ترى أن الأخذ بهذا المنهج ليس حتما على الذين يدرسون العلم ويكتبون فيه وحــدهم ، بل هــو حتم على الذين يقرءون أيضا ٠ وأنت ترى أنى غير مسرف حين أطلب منذ الآن الى الذين لايستطيعون أن يبرءوا من القديم ويخلصوا من أغلال العواطف والأهواء حين يقرءون أو يكتبون فيه ألا يقــرءوا هــذه الفصول ، فلن تفيدهم قراءتها الا أن يكونوا أحرارا حقا» (فى الأدب الجاهلى، ص ٦٩) ٠

٥ ــ مقال ديكارت عن المنهج

لعلك قد أدركت من خلال ماقدمت بين يديك من معلومات ، أن ديكارت قد عرض لمنهجه فى الفلســفة والعلم فى أكثر من كتاب من كتبه الخصــبة القيمة ،

وها أنت قد رأيت أنه عرض لهذا المنهج فى (مبادىء الفلسفة) . وفى (قواعد لتوجيه العقل) ، وفى (مقال فى المنهج لاجادة قيادة العقل ، والبحث عن الحقيقة فى العلوم ، يليه البصريات والآثار العلوية والهندسة ،وهى تطبيقات لهذا المنهج) . وليس من شك فى أن أهم هذه الكتب جميعا ، وأجمعها للمعلومات التاريخية التى تتصل بحياة ديكارت وأطوارها الفكرية والعلمية ، وأشملهاللأفكار والأنظار الفلسفيةوالعلمية ، وأوضحها فى الابانة عن قواعد المنهج الديكارتى ، هو هذا الكتاب الذى يعرف باسم (المقال عن المنهج ...) .

على أن ديكارت لم يخرج مقاله عن المنهج اخراجا مباشرا ، ولا على الوجه الذى هو عليه الآن ، وانما هو قد أراد أن يقيم لنفسه مذهبا فى الفلسفة ، وأن يجعل لهذا المذهب منهجا لايقف فى البحث عند حقائق هذه الفلسفة فحسب ، بل يتجاوزها الى حقائق العلوم جميعا، وهى هذه العلوم التى سبقت الاشارة الى أنها تؤلف مع الفلسفة علما كليا واحدا ، وهذا يعنى أن ديكارت لم يكن يأخذ الفلسفة بمعناها النظرى العقلى الضيق ، وانما هو يأخذها على أوسع نطاقها ، وأشمل آفاقها ، فاذا هو يذيع فى سنة ١٦٣٧ أطرافا من علمه الطبيعى، وذلك فى رسائل ثلاث قدم بين يديها بقصة يقص فيها

أطوار حياته الفكرية والروحية والعملية ، كما يعطى صورة مجملة ، ولكنها متكاملة ، لمذهبه فى الفلسفة والعلم • واذا هو يجمع بين الرسائل الأربع فى كتاب جامع كان عنوانه بادىء ذى بدء مطولا على هذا الوجه : (مشروع علم كلى يرفع طبيعتنا الى أعلى كمالها ، يليه البصريات والآثار العلوية والهندسة ، حيث يفسر المؤلف أغرب ما استطاع اختياره من موضوعات تفسيرا يسهل فهمه حتى على الذين لم يتعلموا) ، ثم عدل وبدل فى هذا العنوان بحيث جعله هكذا : (مقال فى المنهج لاجادة قيادة العقل والبحث عن الحقيقة فى العلوم ، يليه البصريات والآثار العلوية والهندسة ، وهى تطبيقات لهذا المنهج) •

وبعد آن فرغ ديكارت من كتابه على هذا الوجه ، ومن اخراجه تحت هذا العنوان ، عاد اليه مرة آخرى ، فاذا هو يعيد النظر فيما كان قد آجمله فيه من مسائل فيفصلها ، وما كان قد آورده من غوامض فيوضحها ، واذا هو يخرج من هذا الكتاب الواحد الموجز المركز الذى أجمل فيه عناصر مذهبه ومنهجه ، كتبا عدة تتناول تناولا مفصلا عناصر المذهب ومبادىء المنهج • فكان من ذلك ماكان من كتاب له يعرف باسم (تأملات فى الفلسفة الأولى ، وفيها البرهان على وجود الله وخلود النفس) •

وبدا لديكارت بعـد ذلك أن يعمد الى فلسـفته وعلمه الطبيعى فيذيعهما على نطاق اوسع ، فاذا هو يشيع هذا العلم الطبيعى وتلك الفلسفة على يد كتاب مدرسى كتبه على صورة فقرات مركزة أو بنود موجزة ، ولكنها مع ذلك أوضح ماتكون عبارة ، وأبين ماتكون دلالة . وهذا الكتاب الذى كان كذلك هو مايعرف باسم (مبـادىء الفلسفة) . وقد كتب هذا الكتاب أول ماكتبه باللاتينية ونشر سنة ١٦٤٤ م ، ثم ترجم بعد ذلك الى الفرنسية ، ونشر سنة ١٦٤٧ م . مع اهداء الى الأميرة اليزابث . ورسالة الى المترجم ، عرض فيها ديكارت فلسفته عرضا عاما شاملا ، لايكاد أن يترك صغيرة ولا كبيرة تتصـل بمذهبه ومنهجه . الا ألم بها ، وأوضح مشكلها ، وتدرج منها الى غيرها ، بحيث أعطانا صورة متكاملة لكل من مذهبه ومنهجه ، كما آبان لنا عن أوجه الفرق والخلاف بين فلسفته وبين الفلسفة القديمة ٠

على أن كتاب ديكارت الذى يعرف باسم (المقال عن المنهج) ، ليس هو كل ماكتبه هذا الفيلسوف عن منهجه ، وانما نحن واجدون له رسالة آخرى فى المنهج لم يتمها قط ، ويرجع تاريخ البدء فى كتابتها الى سنة ١٦٢٦٠ ولعل هذه الرسالة بمثابة عرض أو بسط يكاد أن يكون تاما ومفصلا الى حـد بعيد لمنهجه ، ومبينا لكثير من

المعانى التى انطوت عليها قواعد هذا المنهج ، والمبادىء التى ركنت اليهــا ، وأقيمت عليها ، هــذه القواعد . وأعنى بتلك الرسالة مايعرف باســم (قواعد لتوجيه العقل) • ومهما يكن من شىء • فلعل ديكارت آن يكون قد رأى آن هذه القواعد ليست مما يلائم كل العقول بقدر ماهى ملائمة لعقول طائفة خاصة من العلماء ، وهو يريد أن يستحدث فى الفلسفة والعلم منهجا عاما يلائم عقول الناس جميعا ، ولهــذا أعــرض عن نشر قواعده هذه لتوجيه العقل ، وفكر آكثر مافكر فى تأليف كتاب آخر غير تلك الرسالة ، وهو مقاله عن المنهج مبينا فيه القواعد التى آثبت تطبيقها دقته فى المنهج ، كما أثبت عرضه لها ، وابانته عنها ، براعته فى التأليف •

وديكارت فيمــا خلف من آثار ، قد اصــطنع فى كتابة كتبه ورسائله وخطاباته لغتين : احداهما قديمة وهى اللاتينية ، والأخرى حديثة وهى الفرنسية • وكان من حظ (المقال عن المنهج) أن كتب بالفرنسية ، مثله فى هذا كمثل غيره من الرسائل التى تقترن به ، وتشترك معه ، فى أنها كتبت بهذه اللغة الحديثة ، على نحو مافعل ديكارت بعدة من رسائله مثل : (رسالة فى الانفعالات) و (رسالة فى الانسان) و (رســالة فى العــالم أو فى الضوء) • أما مؤلفاته الأخرى ، وهى كثيرة فى عدتها ،

ومنها : (التأملات) و (مبادىء الفلسفة) و (رسالة فى الموسيقى) و (الميكانيكا) و (قواعـد توجيه العقل) ، وأكثر الشذرات التى خلفها ، وثلاثة أرباع خطاباته . فكل هـذه قد كتبه ديكارت باللاتينية . ولقـد كان ديكارت من المهارة والبراعة فى الكتـابة بالفرنسـية واللاتينية ، حتى انه ليمكن القول بأن السـمو الذى عرف ديكارت كيف يصوغ فيه لأول مرة النثر الفرنسى فى اللغة الفلسفية ، ينبغى مع ذلك ألا يجعلنا ننكر عليه الخصائص الراسخة القوية لأسلوبه فى اللاتينية من دقة وضبط ، واحكام وشدة أسر ، وبأن النثر الفرنسى الذى كتب فيـه كل من دوق دى لوين Duc de Luynes وكلير سلييه Clerselier ليبدو باهتا شاحبا ، لايكاد يكون له لون ، اذا قيس بهذا الاسلوب اللاتينى الذى صاغ فيه ديكارت أفكاره وأنظاره الفلسفية والعلمية .

على أن ديكارت لم يكن يصدر عن هوى عندما كان يؤثر كتابة هذا الكتاب أو ذاك فى هذه اللغة أو تلك، وذلك على حد ماكان يلاحظه باييه Baillet ، بل كان يصدر عن فكر وروية ، وعن التزام مبدأ معين حين كان ينشىء احدى رسائله بالفرنسـية ، وينشىء الأخـرى باللاتينية : ذلك بأنه كان يؤثـر الكتـابة باللاتينيـة حينما كان يخاطب خاصة العلماء بصفة خاصة ، على

نحو مافعل فى (التأملات) وفى (المبادىء) ، وكان يؤثر الكتابة باللاتينية حينما كان يخاطب خاصة العلماء بصفة خاصة ، على نحو مافعل فى (التأملات) وفى (المبادىء)، وكان يؤثر الكتــابة بالفرنســية حينما كان يريد أن يخاطب السواد الأعظم من القراء ، على نحو ماهو الشأن فى (المقال عن المنهج) و (الرسالة فى الانفعالات) • ولقد أسعفته التجربة فوفق فى ما أخرج فى اللغتين . وفى ما وجه الى القــراء من الطبقتين ، فضــلا عن أن التجربة قد أظهرته بصفة عامة على أن مصنفاته جميعا ينبغى أن تكتب فى هذه اللغة وفى تلك على السواء • حتى يتهيأ لكل انسان أن يقف عليها (بابيه : الكتاب الثامن ، الفصل الثالث) ، ومن هنا نرى أن ديكارت قد حرص أشد الحرص على أن تترجم مصنفاته اللاتينية الى الفرنســية ، وأن تترجم مصنفاته الفرنســية الى اللاتينية •

وليس من شك فى أن ديكارت حين كتب بالفرنسية وحين كتب بهذه اللغة (المقال عن المنهج) بنوع خاص . لم يؤد واجبه نحو لغة وطنه وقومه على وجه أقل ممــا كان للفلسفة عليه من حق ، بل الحق كل الحق أنه ليس ثمة أصالة وجزالة فى الألفاظ والعبارات التى اصطنعها فى التعبير عن الأفكار يمكن أن يقال انهما أقل تمثلا

فى الأفكار نفسها التى عبر عنها بتلك الالفاظ والعبارات ، مما فاضت به صفحات (المقال عن المنهج) .
وحسبنا أن نشير هنا الى أن ألوان الجمال الآخاذة التى تترقرق من حين الى حين فى نثر ديكارت ، والتى بدت زمانا وكأنها مرت وبلغت أجلها دون أن يقدرها حق قدرها السواد الأعظم من مؤرخى الادب الفرنسى ، قد أثارت فأثارت أبرز النقاد المختلفين فى القرنين السابع عشر والثامن عشر : فهاهو ذا بابيه Baillet قد قدر الخصائص الكبرى لأسلوب ديكارت تقديرا عظيما ، وهاهو ذا أيضا سوربير Sorbière الذى لعله أقل تعصبا لديكارت من بابيه ، قد أباح لنفسه أن يقول عن (المقال عن المنهج) ان أسلوبه جميل فى غير ماتناقض، وانه لم يقرأ ماهو أكثر منه سحرا وقوة وتركيزا فى لغته الفرنسية ، وذلك فى كل ماكتبه ديكارت (خطابات ومقالات : ص ٦٩١) . وهاهو ذا فوق هذا وذاك داجيسو Daguesseau قد أعجب بديكارت كاتبا اعجابا يعدل اعجابه بديكارت فيلسوفا ، حتى انه ليقول عنه: «ليس ثمة انسان البتة يستطيع أن يكون نسيجا أمعن فى الهندسة ، وفى الوقت نفسه أشد عبقرية ، وأقوى يقينا ، فيما يتعلق بالافكار وبالصور وبالبراهين ، على نحو مانجده عنده من غور فن البلغاء مرتبطا بفن

علماء الهندسة والفلاسفة» • (الأمر التكليفى الرابع لابنه) •

ومهما يكن فى أسلوب ديكارت من غلبــة الجفــو والغلظة والهندسة عليه ، فما أكثر ما يرقرق فيــه من حياة وألوان تتجلى فى صور حية قوية • ومهما يكن من شيء ايضا فانه ينبغى لنا ــ على حد مايقوله سانت بوف Sainte Beuve ــ أن نأخذ انفسنا بالثناء على ديكارت ، من حيث أنه كان يكتب على سجيته (تاريخ بور رويال : الكتاب ٦ ، الفصل ٥ ، ص ٧٠) • واذا كان هذا هو رأى ناقد ثقة متند عدل كســانت بوف ، فكذلك رأى فولتير Voltire الفيلسوف النــاقد اللاذع ، والكاتب الساخر ، لم يجد الى عبقرية ديكارت وطريقته فى الفهم وأسلوبه فى الكتابة مساغا الى السخرية به أو التهكم عليه ، مما يجعل لهذا الراى اوجها من الطرافة والقيمة: فقد قال فولتير عن ديكارت : «لقــد ولد ديكارت وله مخيلة مشرقة قوية جعلت منه انسانا فريدا فى حياته الخاصة ، على نحــو ماهو كذلك فى طريقــة تعقله ، ولايمكن لهــذه المخيلة أن تســتخفى حتى فى مصنفاته الفلسفية التى يرى فيها المرء فى كل لحظــة موازنات بارعة رائعة» (خطاب ١٤ ، فى الانجليز) •

واذا كانت تلك هى آراء النقاد فى أسلوب ديكارت

الفرنسى ، وفيما لهذا الاسلوب من خصائص تتجلى حية مشرقة فى (المقال عن المنهج) بنوع خاص ، فهل نحن واجدون عند ديكارت نفسه وفى هذا المقال عن المنهج بعينه ، مايصح أن يكون تفسيرا أو تأييدا لأقوال النقاد الذين أعجبوا بنثر ديكارت من ناحية ، وقدروا هـذا النثر بحيث أحلوه فى محله من النثر الأدبى فى تاريخ الأدب الفرنسى من ناحية أخرى ؟ . الحق أننا واجدون عند ديكارت من هذا التفسير والتـأييد لتلك الآراء ، ماله خطر وفيه غناء ، وذلك حيث يتحدث عن نفسه ، وعن موقفه من العلوم والفنون والآداب فيقول : «كنت عظيم التقدير للبلاغة ، وكنت مولعا بالشعر ، ولكنى رأيت أن كليهما أقرب أن يكون من المواهب النفسية ، لا من ثمرات الدرس . والذين لهم الحجة البالغة ، الذين يرتبون أفكارهم على أحسن وجـه ، كى يجعلوها جلية ومفهومة ، يقدرون دائما على الاقناع بما يرون ، ولو كانوا لايتكلمون الا بكلام العامة ، ولم يتعلموا قط علم الخطابة . والذين لهم الاخيلة الرائعة ، ويعرفون كيف يعبرون عنها بأحسن المجازات وأحلى الآساليب ، هم خيرة الشعراء ، وان كان فن الشعر مجهولا لديهم» (مقال عن المنهج : القسم الأول .

هذه المامة عامة بما (للمقال عن المنهج) من صورة.

وما لهذه الصورة من خصائص ، وقد بقى بعد ذلك أن نقف وقفتين مع هـذا الكتـاب القيم على ضآلته وقلة صفحاته : احداهما عند ما فيه من مادة لها أهمية فى عرض فلسفة ديكارت ، وبيان النظام المتبع فى هـذا العرض من ناحية ، والآخرى عند ما له من آثر فى تطور الفلسفة الحديثة من ناحية أخرى :

فأما مافيه من مادة لها أهمية فى عـرض فلسـفة ديكارت ، وبيان النظام المتبع فى هـذا العرض ، فلعل أول مايلاحظ هو آن هذا الكتاب على ضآلته وايجازه قد اشتمل على كل العناصر التى تتآلف منها فلسفة ديكارت كلها مركزة سائغة ، وجلية واضحة : ففى هذا الكتاب من مصنفات ديكارت الأولى ، نرى الفيلسوف قد تأمل فأطال التأمل ، وتدبر فآحسن التدبر . فاذا هو يخلص من هـذا التدبر ، وذلك التـأمل ، الى آن يركز آفكار فلسفته وآنظـارها ، وقـواعد منهجه ومبادئها ، على تفصيلاتها العدة ، فى هذه الصفحات القليلة ، واذا هو يعطى صورة رائعة لمنهجـه فى البحث عن الحقيقة فى العلوم كلها ، ولمذهبه فى الطبيعة وفيما بعد الطبيعة ، ومن هنا كان لابد للدارس الباحث فى فلسفة ديكارت ، الملتمس لما تشتمل عليه من عناصر ، وماتنطوى عليه هذه العناصر من أفكار ، وما تعـرض له من دقائق ،

وماتنتهى اليه من حقائق ، أن يتخذ سبيله الى هذا كله من (المقال عن المنهج) ، وذلك اذا أراد هـذا الدارس الباحث أن يبسط فى أمانة واخلاص الاجزاء المختلفة التى تتألف منها فلسـفة أبى الفلسـفة الحـديثة ، اذ تتسلسل هذه الاجزاء تسلسلا دقيقـا ، وتترابط فيما بينها ترابطا وثيقا : ذلك بأن (المقال عن المنهج) انما هو من صرح الفلسفة الديكارتية بمثابة الاساس الذى يقوم عليه هذا الصرح ، فضلا عن أن النظام والترتيب والتبويب مما اتبعه المؤلف فى تأليف هذا الكتاب ، انما هو خير مرشد ، واوضـح نهـج ، يمكن أن ينتهجه ، ويسترشد به ، مؤرخ الفلسفة عندما يتصدى لتأريخ حياة ديكارت الفكرية والمذهبية والعملية . وليس من شك فى أن الدارس الباحث فى فلسفة ديكارت ، معولا على (المقال عن المنهج) ، ومستعينا بمـا كتبه ديكارت فى كتبه الاخرى وفى خطاباته ، سيجد فى هذا التراث الذى خلفـه ذلك الفيلسـوف ، كنزا ليست جـواهره اللألاءة بأقل تألقا فى منهجه وفلسفته منها فى حيـاته وسيرته .

وأما مـاذا للمقـال عن المنهج من أثر فى تطـور الفلسفة الحديثة بالقياس الى كل من فلسـفة النهضة وفلسفة العصور الوسطى والفلسفة القديمة ، فليس

من شك فى أن معرفة الحال التى كانت عليها الفلسفة قبل ديكارت ، والآثار التى خلفها الفلاسفة السابقون عليه ، والمعاصرون له ، واللاحقون به ، من شأنها أن تعين على معرفة القيمة التى لمؤسس الفلسفة الحديثة ، والاثر الذى تركه ، والتطور الذى أحدثه مقاله عن المنهج ، والتقدم الذى أحدثه هذا المنهج فى الفلسفة وفى العلم ، بل فى كل نواحى الفكر الانسانى ، كما تعين على تقوية عبقرية هذا الفيلسوف ، ووضعه فى موضعه من تاريخ ذلك الفكر الانسانى بصفة عامة ، ومن تاريخ الفلسفة والعلم بصفة خاصة . ولعل أدهش مايدهش له المتأمل المستقرىء لتاريخ الفكر الانسانى هو عندما يرى كيف خرج هذا النور المتألق الذى شع لأول مرة (المقال عن المنهج) ، وكيف كان خروج هذا النور المتألق انسلاخا عن أحضان ظلمات القرن السادس عشر والعصور الوسطى التى كانت قبل ذلك : فها هنا يتساءل الانسان فيقول : كيف كانت فى الحقيقة حال الفلسفة فى مطلع القرن السابع عشر ؟

الحق أن الفلسفة كانت وقتئذ ماتزال مسترقة لنير السلطة ، ولم تكن لتستطيع أن تجرؤ على أن تصارع القدماء ، أو تخرج عليهم ، الا بالقدماء أنفسهم ، وانما كانت الفلسفة وقتئذ فى غمرة من نشوة الحرية التى

استولت عليها دون أن يكون لها منهج ، ودون أن يكون ثمة لهذا المنهج من قواعد ، بقدر ماكانت مسترقة لأهواء المخيلة من ناحية ، ومجموع الشهوات من ناحية أخرى، وللأحلام والأوهام التى كانت تغرق فيها ، وتتراءى لها على أنها حقائق والواقع أنها ليست كـذلك فى شىء : ذلك بأن الأفكار الممعنة فى الاغـراب والالغـاز التى انطوت عليها الافلاطونية المحدثة والكبالية والصوفية ، والمذهب التجريبى بكل ما اصطبغ به من ألوان التطرف والاسراف ، ومذهب الشك الذى كان بمثابة النتيجة اللازمة عن المقدمات التى أسلمت اليه ، والذى امتـد سلطانه حتى لقد سيطر على خير العقـول ، كل أولئك صور أخذتها الفلسفة فتمثلت فيها ، مساوقة لها ، أو متعاقبة عليها . ابان السنوات الاولى من القرن السابع عشر ، وذلك قبل أن يظهر ديكارت ، وقبل أن يشـع أول شعاع من ضياء مقاله عن المنهج ، وما تضمنه هـذا المقال من أفكار المذهب . ويمكن أن يقال بعبارة أخرى ان صورة الفلسفة فى القرن السادس عشر كانت تتمثل فى طائفة من الفرسان الضالعين الذين كانوا يذهبون من جامعة الى جامعـة . ويكسرون السـهام التى كانت تصوب الى أرسطوطاليس ، دون أن يكون لهؤلاء الفرسان مسـتقر فى الارض ، لأن تهمة الكفر والالحـاد كانت

تلاحقهم من مدينة الى مدينة · ولكى يشفوا غلتهم مما كانوا يحسون نحو الحقيقة من ظمأ محرق يكاد أن يهلكهم ، نراهم قد أغرقوا فى كل المصادر من غير ما تمييز : أغرقوا فى القديم ، فى الكبالية ، فى السحر، فى صناعة الكيمياء (الصنعة Alchimic) . فى أحلام مخيلتهم · ونراهم أيضا وقد دفعهم تهورهم الأرعن الى حيث زلت أقدامهم ، فاذا هم يقعون فى قبضة محاكم التفتيش والقضاة ، واذا هم يذوقون من العذاب ألوانا فيما أودعوه من سجون مظلمة رهيبة ، واذا هم يطلب اليهم أن يعدلوا أو يبدلوا من موقفهم فيأبون أن يفعلوا الا أن يكون ذلك على وجه يشرفهم ، ويحفظ عليهم كرامتهم ، واذا هم يساقون أخيرا الى الاعدام على مشهد من الناس ، وهذا كله على نحو ما وقع لكل من راموس Ramus ، وجيوردانو برونو Giordano Bruno ، وكامبانلا Campanella ، وفانينى Vanini

ومهما يكن من رأى التجريبيين والشكاك فى مذهبهم ، ومن أن هؤلاء كانوا يرون فى شكهم تحريرا للفكر ، كما أن أولئك كانوا يرون فى مذهبهم تجديدا للعلم ، الا أن الشيء الذى لاشك فيه هو أن الملاحدة قد زاد عددهم زيادة مخيفة حتى لقد بلغ هذا العدد نحوا من خمسين ألف فى باريس وحدها ، وفى الفترة التى

سبقت مباشرة ظهور ديكارت وفلسفته • وهــذا يعنى بعبارة آخرى آن المذهب الالحادى من حيث هــو نتيجة للمذهب التجريبى من ناحية ، ومن حيث هو ثمرة لمذهب الشك من ناحية آخرى ، قد كان له آنصار كثيرون فى فرنسا ، بحيث ان قد تزعزع الايمان على آيدى كثير من رجال النهضة الاوربيــة من الصــفوة المثقفة والعلماء والفلاسفه • واذا صح ان يقال عن المنهج التجــريبى الذى استحدثه فرنسيس بيكون ومهد له ، آو غذاه ونماه غير بيكون من فلاسفة النهضة وعلمائها ، انه آفاد العلم، وأثمر فى دراسة ظواهر الكون ، الا آنه لايصح أن يقال عن مذهب الشك الذى ذهب اليه مونتانى Montaigne وشارون Charron ، وجاســاندى Gassandi ، انه قد أفاد الفكر ، آو ثبت العقيدة ، آو انه كان ســبيلا الى تحرير الفكر والايمان مما علق بآحدهما آو بكليهما من أوهام وآحلام ، ومن جهالاتوضلالات : ذلك بآن انتشار مذهب الشك على طريقة هؤلاء قد آدى الى آن انهارت الفلسفة المدرسية ، ولم تصبح هناك فلسفة ميتافيزيقية الهية تقــوم على العقــل ، وتؤدى الى اليقين ، وتثبت العقيدة فى عقــول المؤمنين ، ولاتتعارض مــع تعاليم الدين • لقد ســاد مذهب الشك حتى آصبحت مقــالات مونتانى بمثابة كتاب الفروض فى الصلوات الكنســية

لدى النابهين من فضـــلاء القوم . وأصـــبح من أجمل السمات أن يزدهى الانسان بالكفر ، وأن يضفى على عقله ثوبا من القوة التى يزعم لنفسه أنه يستمدها من شكه . وذلك على نحو ما صوره مالبرانش فى قوله : «ان المرء لايعد رجلا بارعا ذا نخوة مالم يشك فى كل شىء» (البحث عن الحقيقة : فصل من مونتانى) .

وهـكذا أسـدل الشك سحب ظلمته على كثير من العقول فزلت ، وتغيرت القيم الروحية والخلقية فى نظر كثير من القلوب فضلت . وأصبح أصحاب هذه القلوب، وأرباب تلك العقول ، ممعنين فى شكهم ، مسرفين على الحق والايمـان واليقين وعلى أنفســهم ، حتى ظهـر ديكارت ، وصور مقاله عن المنهج . وأقبل الناس على هذا الكتاب ، فاذا هم يقرءون فيه مايبدد ظلمة الشك بنور اليقين ، ومايرد الايمان الى قلوب المنحرفين وعقول المسرفين ، ويقر الخلق والدين على أساس من الحق المبين، فضلا عما يقرءون من قواعد المنهج الذى جدد به ديكارت البحث فى العلم وفى الفلسفة على وجه لم يوفق اليه أحد غيره من العلماء والفلاسفة السابقين والمعاصرين.

وديكارت فيما كتب عن هذا كله ، وفى ما انتهى اليه من هذا كله ، لم يكن يصـدر الا عن ذات نفسه وقلبه وعقله وضميره . والا عما حيى فيه بملكاته هـذه من

حياة لايقلد فيها غيره . ولا يتـأثر فيها برأى غـيره . ولا ينهج فيها نهجا سبقه اليه غيره ، وانما هى الحيـاة الفلسـفية والعلمية والعملية التى ألقى بنفسـه فى بحارها ، وعرف بعقله كل أغوارها ، واسكتنه بقلبه كل أسرارها . واستجلى بضميره كل أنوارها ، فما يعرض هنا من قواعد ومبادىء . ومن أفكار وأنظار ، انما هو فى الحقيقة معرض لصور تلك الحياة الخصبة التى حييها ديكارت ذائقا لها ، ومفكرا فيهـا ، ومسـتيقنا منها ، ومطمئنا اليها ، وراضيا عن كل مابلغه منها . وآية هذا كله . هذه العبارات الرائعة التى تحدث فيها ديكارت عن نفسه ، والتى لروعتها أحب أن أسبق القارىء فأنبهه اليها ، وأضع يده عليها ، قبل أن يقرأها فى متنها من هذه الترجمة العربية التى أقدمها .

فمن هذه العبارات الرائعة التى عبر فيها ديكارت عن هذه المعانى قوله : « ... واذا كان عملى قد بلغ بى من الرضاء ماجعلنى أشهدكم هنا أنموذجا ، فما كنت لهذا أريد أن أنصح أحدا بتقليده . وربما كان للذين ميزهم الله فى تقسيم فضله مقـاصد أسمى ، ولكننى أخاف كثيرا ألا يكون هذا العمل بالنسبة لكثيرين الا شططا فى الاقدام ، ليس مجرد العزم وحده على التخلص من كل الآراء التى اعتقد المرء بها من قبل ، مثالا يجب

على كل فرد أن يحتذيه ، ويكاد الناس بالنسبة لعقولهم ألا يكونوا الا صنفين وذلك لايصلح فى شىء لكليهما ٠

هذان الصـنفان هم أولاء الذين لاعتقـادهم فى أنفسهم من الحذق فوق مالهم لايسـتطيعون أن يمنعوا أنفسهم من التهور فى أحكامهم ، ولايملكون من الصبر مايستطيعون به سياسة أفكارهم كلها بنظام ، ومن ثم فانهم اذا اتخذوا حرية الشك فى المبادىء التى تلقوها، والابتعاد عن الطـريق العام ، فانهم لن يقـدروا على مـلازمة الصراط الذى يجب سـلوكه للسـير الأقوم ، وسيظلون فى ضلال كل حياتهم ٠

ثم آخرون أوتوا حظا من العقل ، أو من التواضع، كى يحكموا بأنهم أقل قدرة على تمييز الحق من الباطل من أناس يصلحون أن يكونوا لهم معلمين ، فهم أولى بأن يقنعوا باتباع آراء هؤلاء من أن يبحثوا بأنفسهم عما هو أحسن ٠

أما أنا فلقد كنت أكون بلا شك فى عـداد هؤلاء الأخيرين لو لم يكن لى الا أستاذ واحد ، أو لم أكن عرفت الخـــلاف الذى كان فى كل زمـــان بين آراء أكبر العلماء ٠٠» (المقال عن المنهج : القسم الثانى) ٠

ومن هذه العبارات الرائعة أيضا ، هـذه الصيغة

التى صاغ فيها المبدأ الاول من مبادىء منهجه . وهــو المبدأ الذى يكاد أن يكون أساسا لكل فلسفة ديكارت فى كل نواحيها ، والذى يعبر عنه فيقول :

«الأول ألا أقبل شيئا ما على أنه حق ، مالم أعرف يقينا أنه كذلك بمعنى أن أتجنب بعنــاية التهــور ، والسبق الى الحكم قبل النظر ، وألا أدخل فى أحكامى الا مايتمثل أمام عقلى فى جلاء وتميز ، بحيث لايكون لدى أى مجــال لوضـــعه موضــع الشك .» (المقال عن المنهج : القسم الثانى) .

وانظر بعد ذلك فيما يتحدث به ديكارت عن نفسه، وقد وضع أفكاره موضــع الشك باحثــا عن اليقين ، لا مستمرا فى هذا الشك ولا مغرقا فيه كاللاأدريين ، ولكن واقفا به ، ومنتهيا منه ، عند حد اليقين ، وذلك حيث يقول : «وبعد أن استوثقت كذلك من هذه الحكم (ويعنى بها تلك القواعد التى وضعها للأخلاق وتشتمل على ثلاث حــكم أو أربع أطلق عليهــا اســم الاخــلاق المؤقتة) ، ووضعتها ناحية مع حقائق الايمان ، التى لها دائما المنزلة الاولى فى اعتقــادى ، حكمت بأن مابقى من آرائى ، هو أن أعمل على التخلص منها . ولما كنت عظيم الأمل فى أن أستطيع الانتهاء من ذلك بمحاضرة

الناس على وجـه آحسن ، مما لو ظللت محبـوسا فى حجرتى التى وافتنى فيها كل تلك الأفكار ، فقد آخذت فى السفر ولم ينته الشتاء بعد ، وفى السنوات التسع التالية كلها لم أصنع شيئا الا الطواف هنا وهناك فى العالم ، مجتهدا أن أكون فيه متفرجا لا ممثلا ، فى كل المهازل التى تمثل فيه • ولما كنت آخص تفكيرى فى كل شىء بما يمكن آن يجعله موضعا للشك ، ويكون سببا فى خطئنا ، فاننى انتزعت مع ذلك من عقـلى كل الأخطاء التى استطاعت آن تتسرب اليه من قبل ، وماكنت فى ذلك مقلدا اللاأدرية الذين لايشكون الا لكى يشكوا ، ويتكلفون آن يظلوا حيـارى ، فاننى على عكس ذلك ، كان كل مقصـدى لايرمى الا الى اليقين ، والى آن أدع الارض الرخـوة والرمـل ، لكى آجـد الصـخر أو الصلصال ••» (المقال عن المنهج : القسم الثالث) •

وانظر كذلك فيما يتحدث به ديكارت عن أخـلاق الناس ، وعن وضعه هذه الأخلاق موضع الشك ، كما وضع آراءه هو هذا الموضع من قبل ، وذلك حيث يقول: «فى الحق آنى حينما كان جهدى مقصـورا على ملاحظة أخلاق الناس ، فانى لم آجد فيها موضعا ليقين ، ولحظت فيها من التباين نحو ما لحظته من قبل فى آراء الفلاسفة •

وقد كان أكبر ماحصلته من فوائدها ، أننى لما رأيت أمورا كثيرة تبدو لنا من الشطط والسخرية ، ومع ذلك فان أمما عظيمة تجمع على قبولها والرضا عنها ، فاننى تعلمت ألا أعتقد اعتقادا جازما فى شىء ما بحكم التقليد أو العادة · وكذلك تخلصت شـيئا فشيئا من كثير من الأوهام التى تستطيع أن تخمد فينا النــور الفطرى ، وتنقص من قدرتنا على التعقل · ولكن بعد أن أنفقت بعض السنين فى الدرس على تلك الحال فى كتاب العالم، وفى الاجتهاد فى تحصيل بعض التجربة فاننى عزمت فى بعض الأيام أن أبحث أيضا فى نفسى ، وأن أصرف قواى العقلية كلهــا فى اختيار الطــرق التى يجب أن أسلكها ، وقد لقيت فى هذا على مايبدو لى نجاحا لم أكن لألقاه لو أننى لم أفارق قط بلادى ولا كتبى» · (المقال عن المنهج : القسم الأول) ·

وليس من شك بعــد ماقدمت بين يديك من تلك النصوص الرائعة ، التى صاغها ديكارت صياغة بارعة، فى أن ديكارت حين عبر عن الحكم الثلاث التى انطوت عليها قواعد أخلاقه المؤقتة ، انما كان من دقة التفكير ، وبراعة التعبير ، بحيث استطاع هنا أن يقدم لقارىء مقاله عن المنهج مرآة مجلوة صادقة لما أخذ به نفسه من قواعد السلوك فى حياته العملية الفردية والاجتماعية،

وهى هذه القواعد التى كان فى اتباعه لها ، وصوله الى أسعد حياة يقدر عليها ، وهى هذه الحياة التى تحققت له فيها كل المعانى العليا التى سبقت الاشـارة اليها ، وذلك على الوجه الذى يحدثنا فيه ديكارت عن نوع الحياة التى كان يحياها ، ونوع الضوابط التى كان يخضعها لها ، فيقول : «... ولكنى لا أحرم نفسى منذ الآن من أسعد حياة أقـدر عليها ، فاننى وضعت لنفسى قواعد للأخلاق مؤقتة لاتشتمل الا على ثلاث حكم أو أربع أدلى اليكم بها :

الأولى أن أطيع قوانين بلادى وعوائدها ، مع ثبات فى محافظتى على الديانة التى أنعم الله على بأن نشأت فيها منذ طفولتى ، وأن أحكم نفسى فى كل أمر آخر ، تبعا لأكثر الآراء اعتدالا ، وأبعدها عن الافـراط ، والتى أجمع على الرضـاء بها فى العمل أعقـل الذين سأعيش معهم : لأننى ــ لما بدأت منذ ذلك الحين ألا أقيم لآرائى الخاصة أى اعتبار وذلك لأنى أردت أن أختبرها جميعا ــ أيقنت أنه ليس فى استطاعتى أن أعمل خيرا من اتباعى لآراء أعقل الناس ، ومع أنه ربما كان بين الفرس والصينيين من هم ذوو عقول كعقولنا ، فقد بدا لى أن الأنفع هو تدبير أمرى تبعا للذين أعيش معهم ، ولأجل أن أعرف ماهى حقيقة آرائهم ، كان واجبا على

أن أعنى بما يعملون لا بما يقولون ، ليس السبب فى ذلك هو أن فساد أخلاقنا جعل قليلين يرضون أن يقولوا كل مايعتقدون ، بل ولأن كثيرين يجهلون هم أنفسهم مايعتقدون ٠

وكانت حكمتى الثانية أن أكون أكثر ماأستطيع جزما وتصميما فى أعمالى ، وألا يكون استمساكى بأشد الآراء عرضة للشك ، اذا ماصحت عزيمتى عليها ، أقل ثباتا مما لو كانت من أشد الآراء وضوحا ٠٠

وكانت حكمتى الثالثة أن اجتهد دائما فى أن أغالب نفسى لا أن أغالب الحظ وأن أغير رغبـاتى لا أن أغير نظام العالم ، وبالجملة أن أتعود الاعتقاد بأننا لانقدر الا على أفكارنا ، قدرة تامة ، بحيث أننا اذا فعلنا خير مانقدر عليه ، فيما يختص بالأمور الخارجة عنا ، فان كل ماينقصنا بعد ذلك من أسباب النجاح ، هو بالنسبة الينا مستحيل على الاطلاق ، وهذا وحده فيما بدا لى ، كان كافيا لأن يصدنى عن الطمع فى المستقبل فى شىء لا أناله ، ولأن يجعلنى راضيا ٠٠» (المقال عن المنهج : القسم الثالث) ٠

٦ ـ المقال عن المنهج فى ترجمته العربية

فى عام ١٩٢٥ حولت الجامعة المصرية من جامعة أهلية الى جامعة حكومية ، وكنا وقتئذ سبعة من الطلاب قد التحقنا بالسنة الأولى من قسم الفلسفة بكلية الآداب بهذه الجامعة الحكومية التى كانت الهيئة القائمة على التدريس فيها من كبار الأساتذة الأجانب فى الجامعات الأوربية ، ولم يكن بين أعضاء هيئة التدريس هذه الا أستاذ مصرى واحد وهو أستاذنا الجليل الدكتور طه حسين ، فلم نكن نتلقى بطبيعة الحال محاضرات بالعربية الا محاضرته التى كانت فى الأدب العربى ، على حين كنا نتلقى محاضرات المواد الأخرى بلغات أصحابها من أساتذة باريس وبروكسل ولندن وغيرها ، فدرسنا الفلسفة فى أول عهدنا بالدراسة الجامعية فى السنة الأولى على يد أستاذ جليل القدر من أساتذة السوربون هو الأستاذ اميل بربيه ، ثم على تعاقب السنين الدراسية حتى آخر مرحلة الليسانس على أيدى الأساتذة الأجلاء لالاند وربى واسرتييه وروجيه وبواييه ، الا الفلسفة الاسلامية التى أبى أستاذنا الجليل الدكتور طه حسين الا أن يقوم بتريسها أستاذ مصرى مسلم فعين لها المغفور له أستاذنا الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق فى عام

۱۹۲۷ ، كمــا كان قد عين من قبل فى عــام ۱۹۲٦ أستاذنا الجليل المغفور له الدكتور منصور فهمى أستاذا لعلم الأخلاق ، فكانت الفلسفة الاســلامية والأخــلاق النظرية والعملية هما المادتين الوحيدتين اللتين تدرسان باللغة العربية من بين المواد الفلسفية جميعا ٠

ولعل من أطرف ما أذكر أننا ونحن طلاب للفلسفة فى السنة الأولى لم نسمع عن ديكارت ، ولم نعرف شيئا من فلسفة ديكارت ومنهج ديكارت ، من أستاذنا الفرنسى اميــل بربيه الذى كان يحــاضرنا وقتئــذ فى تاريخ الفلسفة اليونانية ، وانما كان ذلك من أستاذنا الدكتور طه حسين ، وفى محاضراته عن الشعر الجاهلى ، وفى كتابه الذى كتبه بعد ذلك عن هذا الشعر الجاهلى ، وذلك حيث كان يحدثنا عن منهجه فى البحث ، وأنه آثر أن يكون هــذا المنهج هــو منهج ديكارت فى العــلم وفى الفلسفة ، كما سبق أن أثبت هذا آنفا بصدد الحــديث عن أثر منهج ديكارت ، لا فى الفلسفة والعلم فحسب ، ولكن فى الآداب والفنون أيضا ، ولا فى أوروبا وحدها فحسب ، ولكن فى مصر أيضا (أنظر من هذا التقديم) ٠

على أننــا لم تكد تمضى علينا ســنة حتى أصبحنا

طلابا متخصصين فى الفلسـفة بالسـنة الثالثة (عام ١٩٢٧ ــ ١٩٢٨) ، واذا نحن بين يدى أستاذنا لالاند الفيلسوف الفـرنسى ، واذا هو يحـاضرنا فى تاريخ الفلسفة الحديثة ، لاسيما فلسفة ديكارت وتلاميذه من فرنسيين وغير فرنسيين ، واذا هو يدرس معنا ويفسر لنا ، نصوصا مما خلف الفلاسفة المحدثون ، وكان فى مقدمة هـذه النصوص وعلى رأسـها نص لديكارت ، وآخر لليبنز ، وثالثلباركلى ، ولم يكن نص ديكارت الا (المقال عن المنهج) · ومن هنـا عرفنا ديكارت على وجـه أوسع ، ووقفنا على منهجه ومذهبه فى صـورة أجمع ، بحيث تبينا لماذا آثر أستاذنا الدكتور طه حسين منهج ديكارت باقبالهعليه ، واعجابه به ، واصطناعه له ، فضلا عما بلغنا من الأعماق ، وما استوعبنا من التفاصيل ، التى لم يكن حديث الدكتور طه عنها الا لمناسبة دعت الحاجة الى الالمام بها ، والاشـارة اليها ، والتطبيق على دراسة الشعر الجاهلى فى صورة جـديدة ليس له سابق عهد بها ·

وفى عام ١٩٢٩ تخرجنا نحن الطلاب السبعة من قسم الفلسفة والاجتماع بكلية الآداب بالجامعة المصرية، وحصلنا على درجة الليسانس فى الآداب من هذا القسم،

وكان الزميل الصديق المرحوم الأســتاذ محمود محمد الخضيرى أحدنا نحن السبعة من طلاب الفلسفة ، وكان رحمه الله من مطلع شبابه يأخذ سمت العلماء المحققين فى كل شيء يتصل بالبحث عن الحقيقة بحثا جديا ، كما كان قد توفر له من أدوات هذا البحث الجدى طائفة من اللغات القديمة والحديثة التى هيأته أحسن تهيئة لأن يكون مترجما مدققــا ، ومعلقا محققا ، ومســتوعبا مستعمقا ، فاذا هو يستغل ما أتاحه الله له من هذا كله استغلالا منتجا موفقا ، كانت ثمرته الناضجة هى هذه الترجمة العربية الأمينة لمقال ديكارت عن المنهج ، وهذه المقدمة الرصينة التى قدمها بين يديها ،وهذه التعليقات المستفيضة التى علق بها عليها وكل أولئك ان دل على شيء فانما يدل على أن الزميل الصديق رحمه الله قد اصطنع فى ترجمته هذه من الدقة أقصاها ، بحيث لم يدع صغيرة ولا كبيرة مما ورد فى النص الفرنسى الا أحصاها ، واستقصاها ، والا عرض لها ، وأنعم النظر فيها ، والا شرحها وعلق عليهــا ، ووازن بينها وبين مايقابلها عند المتقدمين والمتأخرين ، من فلاسفة اليونان والمسيحيين والمسلمين ، فبلغ من هذا كله مبلغا حسبه ان جعله فى حياته العلمية والعملية محــلا لاعجــاب أساتذته وزملائه به ، وتقدير أولئك وهؤلاء له ، كما

جعله بعد وفاته أهلا لرضا ربه عنه ، واسباغ رحمته عليه .

واذا كان ذلك كذلك ، وكنت مراجعا لهذه الترجمة العربية لمقال ديكارت عن المنهج ، وهى هـذه الترجمة التى هل بها علينا زميلنا الصديق الراحل الاستاذ محمود الخضيرى ـ أحسن الله مثـواه ـ منـذ أكثر من خمسة وثلاثين عاما ، حين كان لايزال فىمستهل شبابه الغض، وفى ابان حياته فى طلب العلم ، سواء فى مصر أو فى فرنسا ، فقد آثرت أن تظل هـذه الترجمة على ماهى عليه من مادة ألفها صاحبا منها ، ومن صـورة صاغها عليها ، بحيث تكون نموذجا لعمل علمى رائع ، قام به شاب عربى بارع ، كمـا رأيت أن أضيف اليها هـذا التقديم الذى ضـمنته بعض المعـلومات التى تتصـل بموضوع (المقال عن المنهج) من قريب أو من بعيد .

وأنا اذ أقدم اليوم هذا (المقال عن المنهج) الذى وضعه بالفرنسية فيلسوف عظيم هو رينيه ديكارت ، وترجمه الى العـربية مترجم دقيق هـو محمود محمد الخضيرى ، فانما أقدم الى قراء العربية بصفة عامة ، والى طلاب الفلسفة والعلم والبـاحثين عن الحقيقة بصـفة خاصة ، كتابا من أمهات الكتب الفلسفية ، عمل عمله،

وآتى أكله ، فى نواحى الحياة الانسانية كلها ، وذلك فى طبعته الجديدة هذه التى عنيت بها وأصدرتها الدار المصرية للتأليف والترجمة بوزارة الثقافة ، محمودة مشكورة ، على ماتنهض به من احيـاء لتراث مضى مع الزمن ، ولكنـه سـيظل آبقى على الزمن البـاقى من الزمن ٠

القاهرة ــ الروضة فى ٣ آبريل سنة ١٩٦٦

الدكتور محمد مصطفى حلمى

مدخــل

ـ ١ ـ
حياة ديكارت

من المستطاع أن تبســط نظــريات علم مثل علم الطبيعة ، وأن يعترف فى هذا البسط لكل من اشترك فى تكوينها بما له من أثر ، أو أن يهمل هذا الاعتراف، بل وأن يعرض عن ذكر الشخص الذى جاء للعالم ببعض هذه النظريات ، دون أن يختلف فهم الناس لها ، ونظرهم فيهــا ، ولكن ليس من المســتطاع أن نفهم النظــريات الفلسفية فهما واضحا متميزا بدون أن نعرف موضعها من مذاهب القائلين بها ، ومن غــير أن نلم بالتــاريخ العقلى للذين اشتركوا فى تكوينها • والتاريخ العقلى لأى فيلسوف هو جزء من تاريخ حيــاته ، واذن فمن المفيد أن نستعين على فهم ديكارت بالوقوف على موجز

لتاريخ حياته ، وسنرى فى هذه الفذلكة التالية مبلغ تفــرغه لتحقيق مقــاصده ، وهى البحث عن منتهى مايستطيع أن يصل اليه العقل من آشرف المعارف وأنفعها للانسان ٠

ولد رينيه ديكارت أبو الفلسفة الحديثة فى ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ ميلادية فى مدينة صغيرة اسمها لاهاى تقع على الشاطىء الأيمن لنهر لاكريز Le Creuse وهو يصب فى نهر آخر يدعى فين Veinne يمد نهر اللوار أكبر أنهار فرنسا ٠ ولاهاى من أعمــال اقليم توران Touraine ، ولكن أصــل أسرة الفيلســوف من اقليم بواتو ، واليه ينتسب عندما انتقل الى هولندا (١) ٠

وكانت أسرته من طبقــة النبــلاء المتوســطين ، اذ كان أبوه يواقيم ديكارت مستشارا فى برلمان اقليم بريتانيا ، وكان جده من جهة أبيه طبيبا ، أما جده من جهة أمه فقد كان حاكما لبواتيه ٠

وقضى الفيلسوف سن الطفولة فى لاهاى مسقط

---

(١) ذكر فى سجل جامعة ليدن الهولندية فى ٢٧ يونيه سنة ١٦٣٠ على الوجه التالى Renatus Descartes Picto 33 Math رينيه ديكارت أصله من بواتو عمره ٣٣ عاما ، رياضى ٠ ويلاحظ ان عمره هنا يقل سنة عن عمره الحقيقى اذ أنه ولد فى ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ فيكون عمره اذ ذاك ٣٤ عاما وربع عام تقريبا ٠ انظر شارل أدام حياة ديكارت وأعماله ١٨ ص ١٢٤ هامش حرف C

رأسه ، وعنيت بتربيته جدته اذ أن أمه ماتت بعد ولادته بنحو عام ، وانتقل أبوه مع ولديه شقيقى الفيلسوف الى بريتانيا . وفى سنة ١٦٠٤ ألحق بمدرسة لافلش La Flèche وهى مدرسة أسسها اليسوعيون سنة ١٦٠٣ وكان ملك فرنسا هنرى الرابع (١) قد وهبهم دارا لها فأطلقوا عليها اسم المدرسة الملكية ، وعنى اليسوعيون بأمور التعليم فيها واختاروا لها خير الرؤساء والمدرسين، حتى أصبحت ، كما يقول ديكارت «من أشهر مدارس أوربا» وانها خير مكان تعلم فيه الفلسفة (٢) .

وقد تلقى فيها علومه الاولى كما رتبها فى المقال عن المنهج فى صفحتى ٨ و ٩ بادئا بالقصص ومنتهيا بالبلاغة والشعر ، وفى السنوات الثلاث الأخيرة درس الفلسفة وكانت تنقسم الى أقسام ثلاثة المنطق والطبيعة ومابعد الطبيعة ، وكان علم الاخلاق يعلم مع المنطق والرياضيات مع الطبيعيات وكان أستاذه فى الفلسفة راهبا يدعى الاب فرانسوا فيرون François Véron وهو رجل صالح تقى بارع فى المناقشة والجدل ، أما

(١) عاش من سنة ١٥٥٣ ـ سنة ١٦١٠ وتولى الملك سنة ١٥٨٩ واعترضته فتن لم ينته منها الا بعد عناء وصبر ، ولما استقر له الأمر نهض باصلاح أفاد مملكته وفى سنة ١٦١٠ اغتاله أحد المتعصبين ضده .

(٢) المقال عن المنهج ص ٧ من الترجمة التالية والتعليق فى ص ٧ و ٨ .

أساتذته فى الرياضيات فقد كانوا على فضل وعلم ، وكان أحدهم يلقب باقليدس الجديد (١) وعرف فى المدرسة أنه كان متمسكا بالدين ، مخلصا للملك ، نابغا فى الرياضيات حتى لقد كان يعجز أساتذته بعض الأحايين ٠٠ وكان أحد مديرى الكلية يمت بالقرابة الى أسرة أمه فحاطه بالعناية ٠

وقد ذكر باييه فى كتابه عن حياة ديكارت أنه صنع وهو لايزال فى الكلية منهجا للمناقشة الفلسفية شبيها بطريقة الرياضيين فى استدلالاتهم (٢) ٠

وانتهى من الكلية سنة ١٦١٢ ، ولايعرف على وجه التحقيق كيف أنفق السنوات السبع التالية بالتفصيل ، ولكن الذى لاشك فيه أنه نال شهادة البكالوريا والليسانس فى القانون الدينى والمدنى من جامعة

---

(١) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ٢٣ و ٢٤ ٠

(٢) أنظر ص ٥ حيث يقول « الفيت نفسى منذ الحداثة فى بعض الطرق التى قادتنى الى أنظار حكم ، الفت منها منهجا ، به يبدو لى أن عندى وسيلة لزيادة معرفتى بالتدريج ، الخ » وانظر الهامش رقم ٣ فى نفس الصفحة وباييه BAILLET المذكور هو صاحب كتاب حياة السيد ديكارت La Vie de Monsieur Descartes الصادر فى باريس سنة ١٦٩١ وهو كتاب غنى بالوثائق لا يزال يرجع اليه الباحثون فى ديكارت ، وقد ولد باييه فى سنة ١٦٤٩ ومات سنة ١٧٠٦ كان راهبا واشتغل امينا لمكتبة وله مؤلفات كثيرة أشهرها كتابه عن حياة ديكارت وكتاب حياة القديسين فى سبعة عشر مجلدا ٠

بواتيــه فى ٩ و ١٠ نوفمبر ســنة ١٦١٦ (١) ومن المحتمل أنه درس قليــلا من الطب أثنــاء اقامتــه فى بواتيه ٠

وبعد أن أتم دروسه على هذا الوجه ، وانتهى من الدور الذى يأخذ فيه العلم عن غيره ، وأصبح يثق أنه حر فى تفكيره وعمله ، وبعد أن وقف على العلم الذى كان يعلم فى المدارس ويحفظ فى الكتب ، ورأى أنه ليس العلم الذى تســتطيع الانســانية أن تقنع به اذا بلغت رشدها ، صمم على أن يطلب علما أجل من ذلك العلم من مصادره الأولى وهى العقل والعــالم ٠ وفى ذلك يقول فى **المقال عن المنهج** : «من أجل هذا فانني ماكدت أن تسمح لى السن بالتحلل من ربقة معلمى حتى هجرت كل الهجــر دراســة الآداب واذ صممت على ألا ألتمس علما الا ما اشتملت عليه نفسى ، أو ماكان فى الكتاب الكبير ، كتاب العالم ، فانني أنفقت بقية شبابى فى السفر ، وأن أتصل بقصور وبجيوش وأغشى أناسا من مختلف الأمزجة والدرجات ، وفى جمع التجــارب المختلفــة ، وأن أبتــلى نفسى فيما ســاق الى الحظ من

(١) انظر نص شهادة الجامعة فى كتاب أدام حياة ديكارت ص ٤٠ هامش حرف A

مصادفات وأن أفكر أينما كنت فى الأمور التى كانت تعـرض لى تفـكيرا يمكننى أن أستخلص منهـا فائدة الخ (١) ·

ورأى أبوه أن يهيىء له مستقبلا حربيا ، فنصحه أن يتطوع فى جيش هولنـدا ، اذ أنه كان أتم جيوش أوربا نظاما بعد انتصاره على الاسبان واجلائه اياهم عن بلد ظلوا يحكمونه ويظلمون أهله زمنا طـويلا · وكان شبان أوربا من أبناء النبلاء يعتبرون هذا الجيش خير مدرسة حربية فكانوا يلتحقون به ويعدون عدتهم كلها على نفقاتهم ويستصحبون معهم تابعـا على الأقل ليكون فى خدمتهم · وكان لديكارت من اليسار مايمكنه من ذلك ، اذ أنه ورث أمه وجدته وبعض خالاته ثروة لايستهان بها ، وقد جعلته يقول فيما بعد فى المقال عن المنهج (··· لم أكن أشعر ، بفضل من الله ، أننى فى حالة تضطرنى الى أن أجعل من العلم صنعة» (٢) ·

وفى أوائل سنة ١٦١٨ سافر الى هـولندا وكان يدعى اذ ذاك سيد برون باسم ضيعة آلت اليه عن طريق

(١) ص ١٤ ، ١٥ وانظر التعليقة رقم ١ ص ١٥ ·

(٢) ص ١٤ ·

الميراث (١) ٠ وقد ألهاه هذا الوسط الحربى عن شغفه بالعلوم ، على أن الصدف جمعته بطبيب هولندى اسمه اسحق بيكمن Beekman كان ينوى السفر الى فرنسا فارتاح الى أن يعرف شابا فرنسيا ذا مكانة ٠ وكان بيكمن متبحرا فى كل أنواع العلوم والمعارف فائتلف الاثنان وتمكنت بينهما أسباب الصداقة ، وكان لبيكمن الفضل فى بعث ديكارت الى درس علم الطبيعة والرياضيات والبحث فى تأسيس روابط بينهما ، وكان له على العموم كما يكون المعلم أو الأخ الأكبر ، وقد اعترف ديكارت بما له عليه من فضل فقال «كنت نائما فأيقظنى» (٢) ٠ واليه أهدى فى ٣١ ديسمبر سنة ١٦١٨ أول كتبه **موجز فى الموسيقى (٣)** Compendium Musicae ٠ وكانا يدرسان الرياضيات معا لكى يطبقاها على علم الطبيعة وكذلك كانا يدرسان علم الطبيعة لكى يرداه الى الرياضيات ٠

وغادر ديكارت هولندا فى ابريل سنة ١٦١٩ ثم ذهب الى ألمانيا وحضر تتويج القيصر فرديناند الثانى فى فرانكفورت فى ٩ سبتمبر سنة ١٦١٩ ثم ألجأه بدء

---

(١) M. du Perron على نحو ما يدعى النبلاء بأسماء أملاكهم ٠

(٢) اعمال ديكارت ج ١٠ ص ١٥١ و ١٦٢ من مطبوعة أدام وتانرى ٠

(٣) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ٤٥ ٠

الشتاء الى قرية لم يذكر اسمها ولكن المرجح أنها قرية بجوار أولم Ulm (١) الواقعة على نهر الدانوب ، وقد اعتزل هناك فى حجرة دافئة كان يقضى فيها اليوم كله وحـده ، منصرفا الى التفكير · وكانت أولم مشـهورة بمن أنجبت من الرياضيين حتى لقـد كان يقـال فى بعض جامعـات ألمانيـا «من أولم يـأتى الرياضـيون Ulmenses sunt Mathematici » (٢) والمرجح أنه زار الرياضى المشهور فاولهابر ·

وقد حدث فى هذه الفترة حادث ذو شأن كبير فى حياة الفيلسوف وقد أفرد له رسالة صـغيرة سـماها Olympica (٣) ومعناها عند اليونان الوطن الالهى الذى هو فوق وطن المعقـولات وآلهـة الشـعر وفوق وطن المحسوسات والتجريبيات · ذلك أنه بعد استغراقه فى التأمل والتفكير وجد فى يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ قواعد علم يستحق الاعجاب وهو يسجل ذلك بقوله

« X novembris 1619, cum Plinus forem Enthousiasmo, et mirabilis, scientiae fundamenta reperirem».

---

(١) راجع كلامه فى مطلع القسم الثانى ص ١٨ والتعليقتين الأولى والثانية فى نفس الصفحة ·

(٢) شارل أدام الكتاب المذكور ١٨ ص ٤٧ ·

(٣) اعمال ديكارت ج ١٠ ص ١٧٩ ـ ١٨٨ مطبوعة أدام وتانرى ·

ويقول بابيه بعد وصفه لعناء ديكارت فى البحث عن طريق يؤدى الى الحقيقة حتى اهتدى الى «قواعد علم يستحق الاعجاب» ، «بلغ به التعب والاعياء ان كاد يشتعل مخه ، وقد أصابه نوع من الحماس والحمية سما به الى حيث يرى الرؤيا» (١) ثم يقول بابيه ان الفيلسوف استسلم للنوم بعد تعبه فى هذا الاستكشاف فرأى ثلاثة أحلام اعتقد أنها موحى بها من عند الله ، ولما استيقظ قرأ فى مجموعة شعر كان يحتفظ به (٢) ٠

أى سبيل من سبل الحياة تتبع ؟

Quod vitae sectabor iter ?

والظاهر أن الفيلسوف قد أخذه شىء من التصوف على أثر استكشافه الكبير ، لأن الرجل العظيم اذا قام بعمل جليل لم يسبق اليه ، وأبصر فى لحظة واحدة مدى ماوصل اليه ومايمكن أن يصل اليه عمله ، نسى نفسه وفنى فى ذات أكبر من ذاته ، وآمن أن الفضل فى نجاحه انما هو لله (٣) ٠

---

(١) أى « فى ١٠ نوفمبر ١٦١٩ وجدت وأنا ممتلىء حماسا قواعد علم يستحق الاعجاب » فى المكان المذكور ٠

(٢) بابيه حياة المسيو ديكارت La Vie de Monsieur Des-Cartes ج ١ ص ٥٠ – ٥١ ٠

(٣) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ٤٩ و ٥٠ وميلو أزمة صوفية عند ديكارت سنة ١٦١٩ والتعليق فى ص ١٧ و ١٨ ٠

ولـكن أى استكشاف اهتـدى له ديـكارت فى ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ ؟ لم يتفق الباحثون فى ديكارت على رأى واحـد ، ذلك بأن الكونت فوشـيه دى كارى Foucher de Careil ، وهـو أول من نشر رسـالة أولمبيكا ، لايشك فى أن المقصود بهذا الاستكشاف هو المنهج الديكارتى بأكمله (١) . والاستاذ مييه Millet يقول بأن ديكارت استكشف فى يوم ١٠ نوفمبر سـنة ١٦١٩ قواعد منهجه وهندسته التحليلية (٢) . وكذلك الاسـتاذ كينوفنشر يقـول بأن ديكارت استكشف فى نيوبرج (٣) فى هذا التاريخ منهجه وقواعد فلسفته (٤) . والاستاذ ليار Liard يرى أن ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ هو تاريخ استكشاف ديكارت لمنهجه (٥) . والاسـتاذ هملان يذهب هذا المذهب ويقول : ان الذى اهتدى اليه ديكارت فى هذا التاريخ هو هندسته التحليلية باعتبارها

---

(١) أعمال ديكارت غير المطبوعة المقدمة والمدخل .

(٢) تاريخ ديكارت قبل سنة ١٦٣٧ Histoire de Descartes avant 1637 ص ٧٤ باريس سنة ١٨٦٧ .

(٣) ذلك لأن الاستاذ فيشر يرى أن عزلة ديكارت الحقيقية كانت فى نيوبرج وهى بالقرب من أولم حياة ديكارت وعمله ومذهبه ١٠ ص ١٧٥ .

(٤) الكتاب المذكور ١٠ ص ١٨١ وما بعدها .

(٥) ديكارت ص ١٠٧ .

وجها من وجوه منهجه العام (١) · ولايختلف عن ذلك رأى الأستاذ ينجمن (٢) ·

أما الاستاذ آدام فهو لايجارى هؤلاء العلماء ، ويقول : ان هذا النص «فى يوم ١٠ نوفمبر ١٦١٩ وجدت وأنا ممتلىء حماسا قواعد علم يستحق الاعجاب» لايفيدنا فى تحديد هذا العلم ، واذن فلا سبيل لنا الى معرفته الا مجرد الظنون ، اذ أن ديكارت اهتدى حوالى هذا التاريخ الى علوم كثيرة تستحق الاعجاب . وهى : الرياضة العامة ، واصلاح الجبر ، والتعبير عن المقادير بخطوط ، وعن الخطوط برموز جبرية (٣) واذن فنحن فى حيرة فى اختيار آحدها والجزم بأنه مقصود ديكارت (٤) ·

والاستاذ ميلو يتفق مع الاستاذ آدام فى الخروج على رأى الكثرة وله رأى خاص به . ذلك بأنه يذهب الى أن يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ ليس تاريخ استكشاف المنهج ، أو اصلاح الجبر ، أو الاهتداء الى

---

(١) مذهب ديكارت ٣ ص ٤٤ ·

(٢) ينجمن JUNGMANN رينيه ديكارت ١٦ ص ٢ ، وهو يقول أيضا ان الاستكشاف كان فى نيوبرج ·

(٣) أى الهندسة التحليلية راجع المقال المنهج ص ٣٣ ــ ٣٥ ·

(٤) شارل آدام حياة ديكارت ١٨ ص ٤٩ الى ٥٥ ·

الهندسة التحليلية ، أو تاريخ غيرها من تجديدات ديكارت العلمية ، وانما هو يوم وصل فيه الى حالة **صوفية سامية** ، فرأى رؤيا «ليس للنفس الانسانية فيها أى نصيب» كما يقول ديكارت نفسه ، ويرى الاستاذ ميلو أن الاولى تفسير هذه الرؤيا مع ماعقبها من أحلام بأن الفيلسوف سمع صوتا الهيا يأمره «انهض وأقم هيكل العلوم جميعها بنفسك ، واحذو فى هذا حذو الشعراء ، وخذ بما تلهم كما يأخذون بما يلهمون ، واعرض عن تعليم الكتب ، اذ سوف تنمو بذور العلوم الموجودة فى نفسك من تلقاء ذاتها ، ولسوف تهدى الى الانسانية العلم العام الذى يسع كل شىء» .
وينتقد الاستاذ ميلو التأويل المشهور لنص **الاوليمبيكا**، ورأيه أن ديكارت اهتدى فى يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ الى أن ينحو فى حياته العقلية نحوا جديدا «أى طرق الحياة تتبع ؟ . Quod vitae sectabor iter وذلك بأن يعرض عن تحصيل علوم السابقين ومعرفة مقالات المتقدمين وان يقتصر على البحث عن العلم الذى تشتمل عليه نفسه ، وألا يستفيد الا من الكتاب الكبير ، كتاب العالم (١) .

---

(١) ميلو أزمة صوفية عند ديكارت فى سنة ١٦١٩ (٩) .

ولكننا رأينا أن ديكارت هجر دراسة الآداب كل الهجر وعزم على ألا يلتمس من العلم الا ما اشتملت عليه نفسه وصمم على أن ينفق بقية حياته فى السفر وجمع التجارب فى سنة ١٦١٦ أى بعد انتهائه من جامعة بواتييه مباشرة (١) وقبل أن يبدأ السفر فى سنة ١٦١٨ ، أما نص **الاوليمبيكا** فقد كتبه فى منعزله بألمانيا فى ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ كما ورد فى مطلع النص . واذن فنحن نرى أن قول الاستاذ ميلو ليس من القوة بحيث يجوز لنا قبوله والأخذ به ، ولا يسعنا الا أن نأخذ برأى الكثرة ، أى أن ديكارت استكشف منهجه فى ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ ، وليس هذا لمجرد قول الكثرة به ، اذ أن ديكارت نفسه يقول انه أرجح أن يجد الحقيقة شخص واحد من أن تجدها أمة بأسرها ، لاننا نرى أن كل ما استكشفه ديكارت فى العلوم انما يقوم على أساس منهجه ، وليس لديكارت الا منهج واحد هو قواعد كل العلوم ، وهى قواعد تستحق كل اعجاب .

وفى اليوم التالى نذر أن يحج الى كنيسة العذراء فى لورت ـ Notre Dame de Lorette حمدا لله على أن

(١) المقال عن المنهج ص ١٤ و ١٥ انظر التعليقة رقم ١ ص ١٥ والمقدمة صفحة ز .

وفقه لهذا الاستكشاف ، وأن يسعى اليها من البندقية سيرا على قدميه ، وكان يريد أن يفى بهذا النذر قبل انتهاء شهر نوفمبر ولكنـــه لم يف به الا بعـــد خمس سنين (١) .

وغادر منعزله الذى وافته فيه قواعد فلسفته قبيل أن ينتهى الشـــتاء أى فى ســـنة ١٦٢٠ وقضى التسع السنوات التالية فى السفر هنا وهناك فى العالم مجتهدا أن يكون فيه متفرجا لا ممثلا فى كل المهازل التى تمثل فيه (٢) . وقد باع أملاكه فى بواتيه التى ورثها من جهة أمه فى سنة ١٦٢٣ ويظهر من ذلك أنه كان قد صمم رأيه على ألا يستقر فى وطنه (٣) . وذهب الى ايطاليا وطاف فيها وحج الى لوريت سنة ١٦٢٤ موفيا بنذره القديم وحضر احتفالا دينيا كبيرا فى رومة فى السنة التالية وبعد عدة أسفار فى ايطاليا عاد الى وطنه وفكر أبوه فى أن يوطد له مركزا فى فرنســـا فعرض عليه أن يشترى وظيفـــة حاكم عســـكرى Lieutenant général فأبى الفيلسوف ، ونصحه بالزواج ولكنه

---

(١) انظر كينوفشر حياة ديكارت وعمله ومذهبه ١٠ ص ١٨٢ .

(٢) المقال عن المنهج ص ٤٥ .

(٣) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ٦٣ .

لم يتزوج لأنه رأى استحالة العثور على ضالته بين النساء ثم لأنه كان يفضل جمال الحقيقة على الجمال الانسانى (١) وقد ذكر بايبه أن أقارب ديكارت أرادوا أن يزوجوه بفتاة من أسرة طيبة وعلى كثير من الجمال ، وكانت هذه الفتاة تجتمع مع الفيلسوف فى أحايين كثيرة وقد روت فيما بعد أن ديكارت كان يؤثر الفلسفة على كل جمال وأن كل ماقاله لها من العبارات التى يعتاد الشبان على قولها للفتيات اللاتى سيصبحن لهم زوجات انه لم يجد قط جمالا من المستطاع مقارنته بجمال الحقيقة (٢) .

وكان وهو فى فرنسا يؤثر العزلة فى الأقاليم واذا ذهب الى باريس أخفى نفسه عن أصحابه واعتزل ليفرغ للقراءة والتفكير والكتابة وروى بايبه أن أحد أقاربه استدعاه ليقضى عنده زمنا فى باريس ، وكانت شهرة ديكارت قد بدأت تذيع فى الاندية ، فأصبح بيت مضيفه كأنه ناد علمى زاخر بالرواد ، ولم يطق الفيلسوف صبرا على هذا ، وهو الذى يؤثر الراحة والعزلة على كل شىء ، فاختفى فجأة ولم يعلم أحد شيئا

---

(١) نفس الكتاب ١٨ ص ٦٩ و ٧٠ .

(٢) حياة المسيو ديكارت ج ٢ ص ٥٠١ مقتبس فى أدام الكتاب المذكور ١٨ ص ٧٠ تعليقة حرف ب .

من أمره ، وقلق مضيفه غاية القلق ، واتفق ان عثر بعد زمن غير قصير على خادم الفيلسوف ، فسأله عن مقر سيده فأفاده بعد تردد ·

ثم قضى فى باريس أعواما ثلاثة من سنة ١٦٢٦ ـ ١٦٢٨ ، وكان فيها كسائر شباب النبلاء يلهو ويغشى الأندية والمجتمعات ويكثر من قراءة القصص والأشعار ·

وكان الالحاد ذائعا فى فرنسا ذلك العهد وكان للشعراء الملحدين الاباحيين حظوة عند الشباب وشهرة بين جمهور القراء والمتأدبين ، ولم يكن مايلقاه الملحدون من علماء الدين ومن البرلمان من أنواع المقاومة العنيفة وألوان التعذيب الا ليزيد الناس تعلقا بهم وتوفرا على قراءة آثارهم · ولكن ديكارت الشاب الذى أبى عليه عقله وذكاؤه أن ينحو فى تفكيره نحو سابقيه مع مالهم فى نفوس أهل العلم من قداسة أيدتها القرون الطويلة ، أبى عليه عقله أيضا أن يجارى معاصريه ، بل لقد كان أكثر من ذلك حرية وشجاعة فقد عزم على أن يحارب الالحاد ، وكان هذا العزم من الأسباب التى بعثته الى الكتابة ·

ومما هو جدير بالذكر لوصف الحياة العقلية فى

ذلك العصر ماهو مشهور عن ثلاثة من العلماء عقدوا اجتماعا كبيرا فى ردهة من أجمل ردهات باريس ليدحضوا بعض آراء أرسطو فى الطبيعيات ، وشهد الاجتماع نحو الألف ، وقبل أن يبدأ الكلام أمر أولو الأمر باخلاء المكان وأن ينصرف الحاضرون ثم أصدر البرلمان أمرا باعدام مقالاتهم وأن يغادروا باريس فى ٢٤ ساعة وألا يكونوا فى أى بلدة تدخل فى اختصاص محكمة التفتيش التى حكمت عليهم وحرمت عليهم أن يعلموا الفلسفة فى أى جامعة وهددت كل من يتناقش فى هذه المقالات أو ينشرها أو يتجر فيها بأن يعاقب عقابا بدنيا مهما كان مركزه · ولم يفت البرلمان أن ينص فى قراره على تحريم اذاعة الآراء التى تخالف آراء المؤلفين القدماء الذين تقرهم الكنيسة لاسيما أرسطو ، وأن كل من يرتكب هذا الاثم يحكم عليه بالاعدام · وقد علم ديكارت بكل هذا ، وربما كان ذلك مما حبب له الابتعاد عن فرنسا ·

واتفق أن شهد الفيلسوف اجتماعا عند سفير البابا فى باريس ، وقام أحد العلماء يبسط آراءه فأعجب به الحاضرون كل الاعجاب ماعدا ديكارت ولما دعى للكلام نهض وانطلق يتكلم بفصاحة وأثبت عكس

ماقاله العالم بحجج قوية واضحة ورأى أحد الحاضرين من أولى الشأن أن ديكارت لم يكن مجددا فحسب بل كان مصلحا أيضا فأخذ يطلب اليه أن يفرغ لاصلاح الفلسفة وقال له انه يعقد عليه أمله فى النهضة بفلسفة حديثة · ورأى ديكارت أن الكثيرين أخذوا يضعون هذا الأمل فيه فشجعه ذلك على أن يصمم العزم على كتابة مذهبه فيما بعد الطبيعة ورأى أن تدوين طبيعياته لن يكلفه بعد ذلك الا شهورا عدة (١) ·

وهكذا انقضت التسع سنين من سنة ١٦١٩ الى سنة ١٦٢٨ وهو ينتقل من بلد الى بلد ويغشى النوادى المختلفة ويتصل بالجيوش ويبتلى نفسه فى مصادفات الحياة ، وفى هذه المدة كان يفكر ، فرأى أن ينتزع من عقله كل الآراء التى وجد أنها موضع للشك ، وألا يدخل فى اعتقاده الا مايتمثل أمام عقله فى وضوح ، وكان يروض نفسه على تطبيق منهجه على معضلات العلوم الرياضية وكان يجتهد فى تخليص معضلات العلوم الأخرى من مبادئها وتحويلها الى مايشبه معضلات الرياضيات ، وهو يعترف أنه لم يستقر حتى هذا العهد على رأى نهائى فى المعضلات التى هى فى العادة

---

(١) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ٩٥ الى ٩٨ ·

موضوع الخلاف بين العلماء ، وعلى العموم لم يصل الى فلسفة جديدة بدل الفلسفة التى كانت ذائعة فى العصور الوسطى والتى كان حجتها وامامها الأول أرسطاطاليس (١) ·

وقد رأى أنه لايستطيع أن ينهض بالواجب الذى اضطلع به الا اذا ابتعد عن معارفه ، وانفرد حيث يجد من الراحة مايعينه على النظر والتفكير ولم يجد مقاما أوفق له من هولندا فرحل اليها فكان فيها فى خريف سنة ١٦٢٨ ·

وكانت هولندا اذ ذاك فى أوج مجدها ، اذ أنها كانت قد انتصرت على أسبانيا القوية واستخلصت منها استقلالها · وكان جيشها مدرسة أوربا الحربية يقصد اليه أبناء النبلاء ويلتحقون به ، وكانت لها تجارة رائجة مع الهنود والعرب والأتراك ، وازدهرت فيها العلوم والآداب فأخذت جامعة ليدن فى الترقى حتى أصبحت فى القرن السابع عشر تضارع جامعات ألمانيا العتيدة ، وكذلك تأسست فى المدن الكبيرة جامعات أخرى ، وأخذت معاهد العلم ونواديه تنتشر فى البلاد· وتبع هذا الرغد فى الحياة والنور ازدهار الفنون

(١) المقال عن المنهج ص ٤٥ ــ ٤٧ ·

الجميلة ، ولاتزال لمدينة ليدن شهرتها فى الطباعة حتى الآن وكان فن التصوير على شىء من الكمال كثير ، ومن آثاره صورة ديكارت التى نشرناها فى مطلع هذا الكتاب وهى من رسم فرانس هلزبنكس Franz Halspx وكانت الحرية والتسامح مبسوطين هناك ، حتى لقد كان يطبع فى هولندا من كتب العلماء الأوربيين ما لا يمكن طبعه فى بلادهم مثل كتب غاليليه التى تولىطبعها آل الزفير Les Elzviers أهل الشهرة العريضة فى تاريخ الطباعة ·

وليس السبب الرئيسى فى تفضيله هولندا على غيرها لكى يقيم فيها هو أن فيها من الحرية ماليس فى أى بلد آخر · اذ أنه كان كاثوليكى المذهب والهولنديون بروتستنت وكان العداء بين علماء المذهبين قويا ولم يتوان ديكارت فى مناصرة أساتذته اليسوعيين فاعتبره علماء الدين الهولنديون ملحدا · وكذلك لم يكن جو هولندا ، وأكثر العام فيها شتاء ، ليجذبه اليها ولكن السبب الرئيسى لاختياره الاقامة هناك هو ما أبداه فى قوله : «···· حملتنى تلك الرغبة على أن أبتعد عن كل الأماكن التى آجد فيها بعض من أعرفهم ، وأن آنعزل هنا فى بلد فيه طول استمرار

الحرب نظما (جيدة) ، حتى أن الجيوش التى بهـا فى هذا البلد تبدو كأنها لاتستخدم الا فى أن ينعم الناس بثمرات السلام فى كثير من الطمأنينة ، وحيث استطعت فى غمرة شعب كبير جم النشاط ، يعنى بأعماله عناية أكثر من تطلعه الى أعمال الآخرين ، بدون أن أحرم أى رخاء مما يوجد فى المدن الغاصة بالنـازلين ، أن أعيش منفـردا ومنعـزلا كمـا لو كنت فى أقصى الصحارى (١) » .

ورأى للمـرة الثانية صـديقه بيكمن واسـتمرت بينهما صلة العلم والصداقة واتصل ببعض الاطبـاء والأعيان وعلماء الدين الكاثوليكيين والبروتستانت ، وأساتذة جامعة ليدن والمستشرقين والرياضيين والأدباء وتنقل فى مبدأ اقامته فى هولندا بين فرانكير وليدن وأمستردام .

وفى آخـر سـنة ١٦٢٩ ، بدأ ديكارت فى كتابة رسـالته «العـالم Le Monde (٢)» ولكن حـدث فى ٢٣ يونيه سـنة ١٦٣٣ أن دانت محكمة التفتيش فى

(١) المقال عن المنهج ص ٤٨ .

(٢) انظر كتابه الى صديقه مرسن فى ١٨ ديسمبر سنة ١٦٢٩ فى ج ١ ص ٨٤ و ٨٥ من الأعمال طبعة أدام وتانرى .

رومة غاليليه لاصداره كتابه المشهور عن مذهبى بطليموس وكوبرنيك فى سنة ١٦٣٢ ، وذلك لأن السلطة الدينية أحست بالخطر الذى يتهددها من نقض القول القديم بأن الأرض ثابتة وسط العالم ، وأن الفلك يدور حولها • وقد علم ديكارت بهذا الحكم ، وكان يريد أن يبعث بمخطوطة رسالته العالم الذى اشتغل فيه من سنة ١٦٢٩ الى ١٦٣٣ الى صديقه الأب مرسن فبلغ به الفزع مبلغا كبيرا لانه قال بدورة الأرض فى رسالته وورد فى كتاب له أرسله اليه فى ٢٢ يوليه سنة ١٦٣٣ «أدهشنى هذا الى حد كدت معه أن أصمم على احراق أوراقى ، أو على ألا أظهرها لأحد على الأقل ••• وانى لأعترف أنه اذا كانت (حركة الارض) باطلة ، فان كل أصول فلسفتى باطلة كذلك ، اذ أن هذه الاصول تثبتها اثباتا واضحا ، وأنها من الاتصال بكل أجزاء رسالتى بحيث لاأستطيع فصلها عنها دون أن أصيب كل ما يبقى بنقص • ولكن لما كنت لاأريد أن يصدر عنى قول يمكن أن توجد فيه كلمة واحدة لاتقرها الكنيسة ، فاننى أفضل أن ألغى هذا القول على أن أظهره مشوها» (١) •

---

(١) اعمال ديكارت ج ١ ص ٢٨٥ و ٢٨٦ مطبوعة آدام وتانرى •

والسبب في امتناعه عن نشر رسالته هو رغبته الشديدة فى راحة البال ، وقد كان شعاره الدائم «عاش سعيدا من أحسن فى الاختفاء Bene vixit qui bene latuit (١) • ثم انه كان يطمع فى آن تحل طبيعياته محل طبيعيات أرسطو ، آى آن تعلم فى المدارس ، وأعتقد آن هذا ليس من المستطاع مالم يقرها رجال الدين ، كما أنه اعتقد آن ماتستنكره محاكمهم مقضى عليه بالفناء •

ولكن آراء غاليليه لاقت من النجاح مالم يكن يتصوره ديكارت فترجم كتابه الى اللاتينية ونشر فى هولندا ، وشرح مذهبه فى فرنسا كما نقلت آيضا الى الفرنسية بعض كتاباته ، وكان من المدافعين عن آرائه والعاملين على نشرها فى فرنسا الأب مرسن صديق ديكارت • كما آن البعض كتب ضد قول غاليليه بحركة الأرض حول محورها فى أربع وعشرين ساعة فى الفضاء ، ونقتبس من كتابة هذا البعض الأخير الفقرة التالية من كتاب لأحد أساتذة الكوليج دى فرانس فى هذا العهد ليتبين للقارىء تنازع وجهات النظر فى القرن السابع عشر واختلاف الانحاء العلمية فى أوربا

(١) كتابه الى مرسن ١٠ مارس سنة ١٦٣٢ •

في هذا العصر «بما أن الله قد أرسل ابنه لينقذنا بموته ، فلاينبغى أن يستغرب اذن لو أنه جعل السموات تدور من أجلنا ، ولو أنه خلق العالم الجسمى كله لفائدة الناس ولذتهم» (١) ٠

ولكن ديكارت لم يكن ليرتاح الى عزمه فى سنة ١٦٣٣ على ألا ينشر شيئا ، ذلك لأن الكثيرين كانوا ينتظرون من هذا الفيلسوف الذى هجر بلاده واعتزل الناس فى هولندا ليفكر فى راحة واطمئنان ٠ صمم على أن ينشر للناس بعض ماانتهى اليه ، ورأى أن يقدم لهم نماذج من فلسفته حتى اذا قرأوها اشتاقوا الى أن يطلعوا على مذهب الفيلسوف بأكمله ٠ وماكاد يستقر على هذا الرأى حتى عكف على العمل ، وفى قليل من الزمن كان قد أتم ثلاث رسائل هى انكسار الأشعة والانواء والهندسة ووضع لها مقدمة هى المقال عن المنهج وعزم على نشرها جميعا فى سفر واحد دون أن يذكر فيه اسمه وفى سنة ١٦٣٦ قصد ليدن ليطبع هذا الكتاب ، وبعد اتمام الطبع غادرها وآخذ يتنقل بين مدن هولندا ، ثم عاد الى ليدن فلبث فيها من سنة ١٦٤١ الى سنة ١٦٤٣ ٠

---

(١) نص مقتبس فى شارل آدام حياة ديكارت ١٨ ص ١٧٣ ٠

واتصل بالأميرة اليزابيث البلاتينية (١) ، وكانت مثقفة بالثقافة الفرنسية ، وتعرف لغات كثيرة ،وواسعة الاطلاع فى علوم عصرها ، وقد عرفت الفيلسوف من كتبه فبدأت بمراسلته فرحب ديكارت بهذه الصلة الجديدة ، وتمكنت بينهما الصداقة فكانت تستشيره فى كل شئونها حتى فى مصير أسرتها الملكية وأعجب هو بذكائها وحبها للعلوم فأهداها كتابه مبادىء الفلسفة سنة ١٦٤٤ ، وكان يشرح لها أصول مذهبه ويطلعها على استكشافاته الرياضية . وقرأ معها كتاب الحياة السعيدة de vita beata للفيلسوف :الرومانى الرواقى سنكا SENECA ثم أخذ يكتب اليها بعد ذلك فى الأخلاق . وبعد سنة ١٦٤٦ شرع يكتب اليها عن كتاب مكيافلى الأمير ويستنتج الأستاذ أدام من ذلك أن ديكارت يرى أن دروس واجبات الحياة المدنية يعقب درس واجبات الحياة الخاصة وبتعبير آخر أن علم السياسة يأتى بعد علم الأخلاق . وقد اتفق الفيلسوف مع الأميرة على

(١) هى ابنة الناخب البلاتينى فريدريك الخامس كان ملك بوهيميا وخسر تاجه وعرشه فى سنة ١٦٢٠ ثم انتقل الى هولندا ومات سنة ١٦٣٢ وظلت الاميرة مع أمها فى هولندا وقد عاشت من سنة ١٦١٨ الى سنة ١٦٨٠ .

انظر تفاصيل تاريخها وعلاقتها مع ديكارت فى كتاب كينوفشر حياة ديكارت وعمله ومذهبه ١٠ ص ١٩٩ وما بعدها .

مخالفة مكيافلي في آرائه ، ولم يريا معه أن الغاية تبرر الوسيلة ، بل ذهبا الى أن الشر لايعقب غير الشر ، والعنف لايجلب الا العنف ، وأن الكذب لايولد سوى الكذب ، واذن فمن الخير أن تتجنب هذه السياسة منذ المبدأ (١) · واستمر تبادل الكتب بينهما حتى مات ديكارت في السويد فحفظ السفيرالفرنسي شانو Chanut مسودات رسائل ديكارت مع ردودها عليها ، وطلب اليها أن تأذن لهبنشر رسائلها مع رسائل الفيلسوف فأبتعليه ذلك ، لأنهكان قد عارض في بعض الظروف فيسفرها الىالسويد ،وطلبت اليه أن يرد اليهارسائلها ففعلوظلت محفوظة لديها ثم عثر عليها الكونت فوشيه دى كارى Foucher de Careil في مكاتب بعض النبلاء فنشرها لأول مرة سنة ١٨٧٩ وقد أدمجت فيما بعد في مطبوعة أدام وتانرى بعد مراجعتها بالمخطوطة التى اعتمد عليها دى كارى نفسه · أما الاميرة فقد اعتزلت في آخر حياتها في دير وقضت بقية عمرها في التنسك وماتت سنة ١٦٨٠ بعد أن ذاعت شهرتها بين الجميع بعلو كعبها في العلوم وبسمو أخلاقها وفضائلها ·

وقد سافر ديكارت الى فرنسا سنة ١٦٤٤ بعد غيابه

---

(١) حياة ديكارت ١٨ ص ٤٢٦ ·

الطويل عنها ليسوى فيها بعض مصـالحه ، ثم غادرها راجعا الى هولندا فى سنة ١٦٤٧ · وكانت شهرته اذ ذاك قد ذاعت فعزم ملك فرنسا فى سبتمبر من نفس العام على أن يفرض له راتبـا سنويا مقـداره ٣٠٠٠ جنيه ، وجاء فى الوثيقة الرسمية التى اقتبسها مترجم حياته باييه عن ذلك أن هذا الراتب قد قرر له «نظرا لفضائله الكثيرة وللفائدة التى تحصلها للنوع الانسانى فلسفته وبحوثه فى دراساته الطويلة ، وكذلك معاونة له على مواصلة تجاربه الجليلة التى تستلزم النفقات»(١) ولكنه غادر باريس على غير علم بهذا لأنه لم يسع الى ذلك ولم يطلب شيئا · ويظهر أنه لم يعلم الا فى يناير سنة ١٦٤٨ فعزم على مغـادرة هـولندا وأخـذ يودع أصدقاءه وداعا نهائيا وترك منعزله فى مايو من نفس السنة ·

ولكنه لم ينل شيئا من هذا الراتب ، بل لقد دفع نفقات الصك الملكى من ماله ، وكان مكتوبا على الرق الثمين ، وقد اشتكى غلاء ثمنه فيما بعد الى صـديقه شانو السفير الفرنسى فى السويد ·

ولم يطمئن للبقاء فى باريس ، ذلك لأن الحرب

---

(١) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ٤٥٨ و ٤٥٩ ·

الداخلية كانت قائمة فى فرنسا اذ ذاك ، ولم يستقبله العلماء الفرنسيون على نحو ماكان ينتظر ، وكانت الحرب الخارجية تهدد فرنسا كذلك ، ولما كان السلام والطمأنينة أحب شيء لديكارت فقد عجل بمغادرة وطنه فى أغسطس سنة ١٦٤٨ بعد أن ودع صديقه القديم الأب مرسن الذى كان فى مرض الوفاة وعاد الى منعزله فى اجموند Egmond فى هولندا ٠

وكان مرسن أوفى أصدقائه ، عرف عنه التبحر فى العلوم والاخلاص فى التمسك بالدين ، وكرم الأخلاق، وقد مات فى سبتمبر سنة ١٦٤٨ وطلب الى أطبائه قبيل وفاته أن يشرحوا جثته كى يعرفوا علة دائه ، ولم يكونوا قد اهتدوا اليها فى حياته ، ليتيسر لهم فيما بعد أن يعالجوا من يصاب بما أصيب به ٠

واهتم ديكارت فى منعزله بأخبار وطنه وكان شديد الجزع على فرنسا من الحروب والأخطار التى تتهددها ولما علم بزحف الأرشيدوق ليوبولد على باريس ، دعا الله فى صلاته «أن يجعل حظ فرنسا يعلو على سعى الذين يريدون بها السوء (١)» ٠ وظل ديكارت

---

(١) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤ ٠

فى منعزله هادئا مطمئنا الى آن دعته ملكة السويد لزيارة استوكهلم ٠

كان للسويد فى هذا الزمن شهرة واسعة بفضل ملكها العظيم جستاف أودلف الذى آدهش العالم بشجاعته وانتصاراته فى الحروب ، ورثت عنه الملك ابنته فأرادت آن تحتفظ لمملكتها فى أيام السلم بما آكسبها من مجد فى أيام الحرب فشرعت تستدعى العلماء لبلادها ، وكان آشهر من استدعت هو رينيه ديكارت ، وكان السفير الفرنسى فى بلاطها صديق ديكارت قد عرفها بفضله فرغبت فى دعوته كما آنه اجتهد فى حمل الفيلسوف على قبول هذه الرحلة ٠ وقد استدعته فى ٢٧ فبراير سنة ١٦٤٩ لزيارة استوكهلم قاعدة ملكها ثم بعثت بأميرال سويدى الى هولندا ليستصحب الفيلسوف فى سفينته (١) ٠ وقد تردد فى قبول الدعوة ، ولم يأنس من نفسه فى بادىء الأمر ميلا للنزوح الى السويد وكان يسميها بلد الدببة Pays des ours ووصل اليه القائد البحرى فى ابريل من نفس العام وأبلغه طلب الملكة فاعتذر بأنه لايستطيع فراق منعزله ٠ وعلم السفير الفرنسى بذلك وكان يريد آن يسافر الى فرنسا

---

(١) الكتاب المذكور ١٨ ص ٥٣١ ٠

فعجل بالسفر ومر به وأقنعه بضرورة الذهاب الى الملكة فقبل وسار فى أول سبتمبر سنة ١٦٤٩ ووصل الى عاصمة السويد بعد شهر ٠ وفى أثناء السفر فى البحر دهش قائد السفينة من سعة اطلاعه بفنون الملاحة وأحوال البحر فقال للملكة عندما قدمه اليها : «ليس الذى أقدمه لصاحبة الجلالة رجلا ، بل هو نصف اله (١) » ٠

ولم يرتح للبقاء فى السويد ، اذ أنه شعر بالوحدة ووحشة الغربة ، وكان أكثر مايعنى به البلاط السويدى هو علوم اللغات والشعر ، فعزم على العودة ، ولكنه رأى أن يبقى أثرا فى السويد فرسم للملكة مشروع مجمع علمى ، واشترط ألا يكون للاجنبى حق العضوية فيه ، وقيل أنه اشترط هذا الشرط حتى لايستبقى فى السويد ٠

وفى أوائل سنة ١٦٥٠ كانت الملكة تختلف اليه فى حجرة عملها للتحدث معه فى الفلسفة ثلاث مرات فى الاسبوع فى الساعة الخامسة من الصباح ٠ ولم تكن هذه الساعة المبكرة ملائمة له ، اذ أنه اعتاد منذ حداثته أن يستيقظ فى ساعة متأخرة ، ثم انه كان يتعرض

---

(١) الكتاب المذكور ١٨ ص ٥٣٥ ٠

لبرد الشمال القارس لاسيما فى فصل الشتاء فأصابه التهاب فى صــدره ، ورفض معــاونة الأطبــاء وأبى الاصغاء لنصائحهم ، وأخذ يعالج نفسه بنفسه ، واشتد عليه المرض حتى بلغ رئتيه وأدركته المنية فى الساعة الرابعة من صباح ١١ فبراير سنة ١٦٥٠ .

وأرادت الملكة أن يدفن فى مقابر الاسرة الملكية فرفض صديقه السفير شانو أن يدفن مع من هو على غير دينه . لأن السويد بروتستنتية المذهب ودفنه فى قبر مؤقت ثم أقام له قبرا فى مايو سنة ١٦٥٠ ، وفى ١٦٦٦ ألح أصدقاؤه والمعجبون به من الفرنسيس أن تنقل رفاته الى باريس ففعلت الحـكومة ذلك واحتفل بدفنه فى ٢٤ يونيه سنة ١٦٦٧ ونقلت رفاته فىمدافن عدة وهى الآن فى كنيسة سان جرما دى برى
Saint-Germain des Prés

ـ ٢ ـ
شخصية ديكارت

ان أظهر نزعة فى خلق ديكارت هى حبــه للراحة والسكينة وولعه بالعزلة والهـدوء ، ولقــد رأينا أنه هجر وطنه وهو شاب لانه رأى أن السلطات فى فرنسا

لاتطيق أن ينهض فيها داع لمذهب يخالف الفلسفة الرسمية التى كان معلمها الأول أرسطاطاليس ، ثم لانه أدرك أنه يستحيل عليه أن يعيش فى وطنه منعزلا عن الناس منقطعا للتأمل والتفكير كما ينعزل الرهبان والمتصوفة فى الصوامع والكهوف ورءوس الجبال والصحارى للنسك والعبادة ، فهاجر الى هولندا مع قسوة بردها وطول شتائها وذلك لانه عرف أنه يقدر على أن يعيش فيها آمنا على حياته مطمئنا على متاعه اذ أن هذه البلاد تحتفظ بجيش كبير ، يقوم على حفظ الأمن ورعاية السلام (١) ، ويجب أن ينتبه القارىء الشرقى ، كى يقدر هذا ، الى أن قطع الطرق ، واغتيال المسافرين ، والسطو على الآمنين ، كانت حوادث مألوفة الوقوع فى بلاد مثل ايطاليا وفرنسا فى هذا العهد ٠

وقد دفعه شغفه بالهدوء والاطمئنان الى أن يجزع جزعا شديدا عندما بلغه خبر الحكم على غاليليه ، ولم يجزع اشفاقا على هذا العالم الهرم ، ولكنه جزع لانه رأى رأى غاليليه ، وانتهى بمنهجه الى اثبات أن الأرض كوكب سيار تتحرك حول محورها وتتحرك حول الشمس ، وكان على وشك أن ينشر رسالته العالم Le Monde

(١) انظر ص ٤٨ ٠

التى يشرح فيها هذا الرأى ، ولكنه ماكاد يعرف أن السلطة الدينية فى روما رأت أن قول غاليليه مخالف لقول الانجيل وقول أرسطو بأن الأرض مركز العالم وأنها ثابتة لاتتحرك وأنها من أجل هذا لم تتوان فى مؤاخذته وادانته ، حتى اضطرب واتهم نفسه وشك فى أصول فلسفته ، وكاد يحرق أوراقه . ونحن نعرف أنه كان فى هولندا البروتستنتية أى فى منأى عن أذى محاكم روما وتعذيبها ، ثم انه مع ذلك كان على ثقة من أنه ليس فى القول بحركة الارض شىء يتعارض مع العقيدة الدينية فى شىء (١) ، الا أنه خشى أن يقال عنه انه خارج على رجال الدين (٢) وأقل مافى هذا هو ازعاج راحته ، واقلاقه فى حياة صمم على أن يمضيها متخذا هذا الشعار :

«عاش سعيدا من أحسن الاختفاء Bene vixit, qui bene latuit وبلغ به الفزع والخوف الى أن قال فى مطلع القسم السادس من المقال «لاأريد أن أقول اننى كنت على هذا الرأى» ولكنه عندما اضطر الى التعرض

---

(١) انظر كتابه الى مرسن ١٠ يناير سنة ١٦٣٢ والمقال عن المنهج ص ٩٩

(٢) بلغ من تندره للمحققين فى روما أن قال عنهم « لهم عن السلطة على أعمالى مالا يقل عما لعقلى من السلطة على أفكارى » انظر ص ٩٩ .

لمسألة حركة الارض فى كتابه مبادىء الفلسفة أخـذ يدور ويلف ويعـرف الحـركة تعريفا غـريبا (١) ، وبالاختصار قال بحـركة الارض بتعبيرات بالغـة فى الغموض والالتواء لتحميه من غضب السلطة الدينية عليه • وقد عـد الكثيرون هـذا جبنا من الفيلسوف ، ولكننا نرى أنه جبن اضطر اليه فى سبيل غاية جريئة هى أن تحل طبيعياته محل طبيعيات أرسطو فى التعليم وهذا كان مستحيلا بدون رضاء الكنيسة •

★ ★ ★

ومن صفات ديكارت البارزة أيضا شـدة تمسكه بدينه ومذهبه ، وقد رأينا كيف نذر أن يحج الى كنيسة العـذراء فى لورت بايطاليا Notre-Dame de Lorette شكرا لله على أن هـداه الى أصـول فلسـفته فى ليلة ١٠ نوفمبر ١٦١٩ م ورأينا كيف أوفى بنذره ، وانضم الى جانب أساتذته اليسوعيين فى نزاعهم الدينى مع علماء هولندا البروتستنت مع أنه كان نزيلهم وضيفا فى بلادهم •

ولم يمنعه تمسكه بمذهبه من أن يحمـل السـلاح فى جيوش هولندا البروتستنتية التى حاربت أسبانيا

---

(١) انظر الجزء الثانى الفقرات رقم ٣١ و ١٣ و ٢٥ •

الكاثوليكية فى سبيل حريتها وخلاصها من أشهر ضروب الاستعباد فى التاريخ .

ويضاف الى تمسكه بالدين حبه لوطنه فقد رأينا أنه بعد أن غادر فرنسا لآخر مرة ، وكانت فريسة للحروب الاهلية ومهددة بالخطر الخارجى ، كان كثير الاهتمام بأخبار وطنه ، وكان يدعو الله فى صلاته أن ينجيه من كيد أعدائه . وروى الطبيب الذى عنى به أثناء مرض الوفاة فى السويد ، وكان ألمانى الجنس أنه رأى أن يفصد له ، فرفض ديكارت رفضا شديدا وقال له : «لاتقرب الدم الفرنسى» (١) .

وكان ديكارت جم التواضع ، يشهد له بذلك كثير من تعابيره فى كتبه ، وفى المقال من هذه التعابير الشىء الكثير مثل قوله «أما أنا فلم أدع قط أن نفسى أكمل من نفوس الغير ، بل كثيرا ماتمنيت أن يكون لى من سرعة الفكر ، أو من وضوح الخيال وتميزه ، أو من سعة الذاكرة وحضورها ، مثل ما لبعض الناس» (٢) ، أو كقوله : «ماكنت قط عظيم العناية بالاشياء التى كانت تصدر عن نفسى .. الخ . الى أن يقول : مع أن أنظارى

---

(١) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ٥٥١ والهامش رقم ١

(٢) ص ٤ .

كانت ترضيني كثيرا ، فانني كنت أعتقد أن لغيرى أنظارا قد يكونون بها أشد اعجابا» (١) ٠

ومما يجدر ذكره أنه بعد أن تم طبع المقال والرسائل الثلاثسنة ١٦٣٧ ،أرسل الكتاب الى صديقه مرسن ليحصل له من السلطات الفرنسية على الاذن بتداوله فى فرنسا ، وأراد صديقه أن يقوم له بعمل ليجذب الكتاب اهتمام الجمهور ، فقصد الى مستشار يمت بصلة الرحم الى بعض أصدقاء ديكارت ، وكان المستشار محبا للآداب والعلوم ،فلما شرح له مرسن غايته وأطلعه على رغبته ، أردف الاذن بنشر الكتاب باطراء المؤلف ومدحه والاشارة الى ماينتظر منه فى سبيل تقدم العلوم والفنون ورسم اسمه فى الاذن Des-Cartes (دىكارت) اظهارا له بمظهر النبلاء (٢) ولكن ديكارت لم يستبق من كل هذا الا المعالم التى لايمكن تداول كتاب فى فرنسا اذ ذاك بدونها وأظهر كتابه دون أن يظهر عليه اسمه ٠

وجمع الى تواضعه اباء وشمما ٠ أرسل اليه فى هولندا الكونت دافو d'Avaux مبلغا كبيرا من المال

---

(١) ص ١٠٠ ٠

(٢) شارل أدام حياة ديكارت ١٨ ص ١٨٤ ٠

ليستعين به على صنع التجارب التى أشار اليها فى القسم السادس من المقال فرده واعتبر هذا اهانة له (١) . وفكرت كرستين ملكة السويد فى أن تقطعه ضيعة من أملاكها فى ألمانيا ، التى آلت اليها بفضل معاهدة وستفاليا ، ولكن ديكارت علم أن هذه الضيعة منتزعة من أوقاف بعض الاديرة فأبى هذه المنحة الملكية (٢) .

ولو شئنا احصاء النوادر التى يتبين مبلغ ماكان عليه ديكارت من سمو فى الاخلاق يضارع سموه فى التفكير ، لطال الكلام ولكن قبل أن نغادر هذا المجال يحسن بنا أن نعرض لما قال عنه خصومه ففى هذا تكميل للصورة التى نريد اظهارها لديكارت أمام القراء .

★ ★ ★

لم ينج ديكارت من خصوم حقدوا عليه واتهموه شتى التهم ، فقال البعض عنه انه ملحد مع أن الرجل يضع نظريته فى المعرفة على أساس وجود الله وكونه متصفا بكل الكمالات . والدافع الى هذه التهمة غضب المتعصبين للقديم عليه ، لأنه جاء بفلسفة جديدة مختلفة

---

(١) نفس الكتاب ص ٤٦٩ .

(٢) نفس الكتاب ص ٥٤٧ .

كل الاختلاف عن فلسفة آرسـطو ، التى آصبحت مع توالى الزمن مقدسة ، وأصبح رجـال الدين فى أوربا يفسرون بها الانجيل وقواعد الدين المسيحى ·

ومن طبيعة الانسان آن ينفعل ويغضب اذا صدم فيما آلفه وتعود عليه · ذلك لأنه لكى يغير ماتعود عليه، يحتاج الى قوة لم يكن يحتـاج لها لو آنه ظـل بدون تغيير ، ويشتد انفعال المرء اذا آصيب فى معتقداته آو آرائه التى عاش عليها طول حياته ، وعاشت عليها من قبله أجيـال يتصل بهـا آوثق اتصـال ، اذ آن هـذه المعتقدات والآراء تصبح بعد رسوخها فى العقل وتأثيرها فى العواطف آعز مايمتلكه الانسان فى حياته وآقوى مايكون شخصيته ·

ويجب ، لكى نتصور مقدار هـذا الانفعال ، آن ننتبه الى طـول الزمان الذى مر على الانسـانية وهى تعتبر آرسطو آستاذها الأول ، والى آن آهل العلم فى العصور الوسطى قد اعتادوا فى تفكيرهم طريقة شاذة وهى اعتبارهم قول هـذا المعلم الاول الحجـة وفصل الخطاب ، عنده يقف العقل مصدقا مؤمنا وان تجاوزه انسان أو خالفه اعتبر جاهلا آو اتهم بالزيغ فى العقيدة والفسق عن الدين · بل وبلغ من قوة سلطته على العقول

أنه عندما اخترع المنظار المقرب (التلسكوب) وأمكن بواسـطته رؤية بعض البقع على وجـه الشمس ، أن الكثيرين من العلماء لم يصدقوا هذا وشـكوا فى الذى تبينه لهم الحواس ، وذلك لأن أرسطو لم يشر فى كتبه الى بقع على الشمس ٠

لم يخضع ديكارت لسلطة أرسطو ، بل كان يؤمن بما يقتنع به العقل الذى يدعوه بالنور الفطرى ، وقد اشتد تحقيره للذين لايؤمنون بما يقنعه به العقل الذى يدعوه بالنور الفطرى، وقد اشتد تحقيره للذين لايؤمنون بالأشياء الا اذا قال أرسطو بها وكتب فى هذا المعنى فى المقال عن المنهج «٠٠ وانى لواثق أن أكثر متابعى أرسطو حماسا الآن ، يرون أنفسهم سعداء لو أن لهم من العلم بالطبيعة ماكان له حتى بشرط ألا يتجاوزوا قدر ماعلمه ٠ انهم مثل اللبلاب الذى ليس مستعدا لانه يرتفع الى مافوق الاشـجار التى تسـنده ، بل وكثيرا مايهبط بعد أن يبلغ ذروتها ، لأنه يبـدو لى أيضا أن هؤلاء يهبطون ، أى أنهم يردون أنفسهم ، على وجه ما، أقل علما مما لو كفوا عن التحصيل الخ الخ» (١) ٠

واذن فقد كان من حظ ديكارت أن يناله من السوء

---

(١) ص ١٠٩ ٠

مايناله الذى يغير ما آلفه الناس زمنا طويلا وارتاحوا لتعوده ، ولو كان باطلا ، وكانت له آسوة بالسابقين من المصلحين البائسين الذين يعنيهم جويته بقوله :

«ان القليلين الذين عرفوا منــه شــيئا ، والذين كانوا من الحماقة بحيث لم يحفظوا ما فى صدورهم ، وكشفوا للعامة عن عواطفهم وآرائهم ، صلبوا وصلوا النار» (١) ٠

ويكفى القراء ليتبينوا كذب اتهامه بالالحــاد آن يقرأوا المقال عن المنهج وآن يطلعوا على ماكتبناه فى تاريخ حياته ٠

وننتقل الآن من هذه التهمة ، بعد آن فندناها ، الى تهمة أخرى سنرى أنها ليست أقل من الســابقة تهافتا وضعفا ، وهى دعوى الذين قالوا عنه انه نسب لنفسه كل الفضــل فى بعض الاســتكشافات العلميــة التى استكشفها معــاصروه وأهم هــذه الاستكشافات قانون انكسار الاشعة الذى اهتدى اليه اسنليوس **Snellius** قبيل ديكارت ٠

والدافــع الى هــذا النــوع من الاتهــام هــو آن

---

(١) فاوست **Faust** الجزء الاول القسم الاول ٠

الفيلسوف لم يهتم بحـركة العلوم فى عصره ، وأهمل تقدير معاصريه بعض الاهمال ، ومع آن فيهم من له بعض الشأن فى تاريخ التقدم العلمى ، الا آنه كان اذا ذكر هذا البعض لاسيما ممن عالجوا من المسائل العلمية ماعالجه ، لم يذكره باحترام يرضيه ويرضى اتباعه ، ولم يعترف له بفضل . وهذا كاف لاغضـاب الكثيرين وجعلهم خصوما له . واذن فماذا يكون مبلغ عدائهم له اذا رأوه ينسب الى نفسه كل الفضل فى كل استكشاف علمى يصل اليه ؟ واذا اعترضوا عليه بأن غيره سبقه الى بعض هذه الاستكشافات ، آجابهم بأنهلم يقرأ ماكتبه هذا البعض . ويشرح كيف وصل اليها بفضـل منهجه الذى لم يسبقه اليه آحد ، وكيف تبرهن عليها أصول فلسفته الخاصة به ٠

وعلى كل حال فان كل ماوجه اليه من تهم من هذا النوع انما يعتمد على التشابه بين نتائجه ونتائج غيره فى بعض البحوث العلمية (١) ٠ ومن الهين دفع هـذا الاتهام بقول يثبته التاريخ وهو أن تقدم العلوم فى آى عصر ، اذا وصـل الى درجـة معينـة يهيىء الفـرص لاستكشافات لابد من الانتهاء اليها ٠ ثم انه مما لاريب

(١) ميلو Milaud مسألة صدق ديكارت ص ٣٠٢ و ٣٠٣ ٠

فيه أن الثقافة قد يســودها فى زمن من الأزمان تيار فكرى واحد ، فتتفق نزعات العلوم ، ويصــل العلماء الى حقائق مشتركة ونتائج متشابهة دون أن يتعاونوا فى البحث ، أو يكون بينهم أى اتصـــال · وقــد اتهم ديكارت بعد وفاته بالاختلاس العلمى ليبنتز ونيوتن ، ومن أعجب المصادفات أن البعض اتهم ليبنتز باختلاس استكشاف نيوتن فى الرياضة وأن البعض الآخر ينكر على نيوتن فضل التقدم ويعزو الاستكشاف الى الفيلسوف الألمانى ، مع أننا اذا تأملنا فى حركة العلوم الرياضية فى القرن السابع عشر أيقنا أنها كانت لابد أن تنتهى الى هذه الاستكشافات (١) ثم ان نظــرة واحــدة الى مايقوله ديكارت عن هارفى فى المقال عن المنهج (٢) تكفى لنفى القول بأنه كان كثير التحقير لمعاصريه ·

ورأينــا اذن ، هــو رأى كل العلماء الباحثين فى ديكارت أى أنه لم يختلس الاستكشافات العلمية القليلة العدد التى استكشفها أيضا معاصروه ، اذ أنه انتهى اليها بفضل منهجه ، وبرهن عليها بأصول فلسفته · ثم ان نظرة منتبهة فى تاريخ حياته وأخــلاقه ، بل فى

---

(١) ميلو نفس الموضع ص ٣٠٤ ·

(٢) ص ٨٦ ·

نفس صورته ، تستطيع أن تقنعنا أن الرجل لم يكن من أهل المهازل ، وهيهات أن يقع الرجل الذى حبس حياته على البحث عن علم يرقى بالطبيعة الانسانية الى أسمى مرتبة لها فى الكمال أن يقع فى خطأ خلقى هو من أدنى ماتنحط اليه الطبيعة الانسانية من درجات النقص .

نظرة فى فلسفة ديكارت

يطلق ديكارت كلمة الفلسفة على مجمـوع العلوم ويشبهها بشجرة ، أصلها علم مابعد الطبيعة ، وساقها علم الطبيعة ، والفروع الخارجة من هـذه السـاق هى سائر العلوم التى يمكن حصرها فى ثلاثة هى : الطب والميكانيكا وعلم الأخلاق» (١) .

والواجب علينا اذن لكى نعـرض فلسـفته ، أن نبسط آراءه فى كل هذه العلوم ومايتشعب منها ، وأن نثبت للقراء ماكان ديكارت شديد العناية باثباته ، أى كيف تقوم نظرياته العلمية على أنظاره فى علم مابعد الطبيعة ، وكيف يسير فى الاستكشاف والبرهان وفقا لقواعد منهجه ، ولكننى أكتفى ، تواضعا ، فى شرح فلسفته بالكلام عن مذهبه فى علم مابعد الطبيعة ، لأنه

(١) مبادىء الفلسفة ٦ المقدمة .

فى نظره أول العلوم وأساسها ، ثم أتبع هـذا بتحليل منهجه ، ثم انتهى بشرح آرائه فى علم الاخـلاق لأنه تبعا لتصنيفه للعلوم نهاية الفلسفة ويعتمد على معرفة كاملة بكل العلوم ٠

مابعد الطبيعة أو نظرية المعرفة

ـ ٣ ـ

المبـدأ الأول

بحث ديكارت عن مبدأ عقلى لايكون موضع شك ليقيم عليه فلسفته وعلمه ، وقال «ان أرشـميدس لم يطلب الا نقطـة ثابتة غـير متحـركة ليزحزح الكرة الأرضية من مكانها ولينقلها الى موضع آخـر . وعلى هذا النحو يكون لى الحق فى أن أتصور آمالا سامية اذا كنت من التوفيق بحيث أجد شيئا واحدا يقينيا لايقبل الشك» (١) ٠

واذا كان من المستحيل أن توجد فى الكون هـذه النقطة الثابتة غير المتحركة التى تصلح أن تكون تكأة ، أو محور ارتكاز كما يقال ، لنقل الكرة الأرضية من

---

(١) التأملات الثانية ١٣ ٠

مكانها على نحو ماتخيل آرشميدس . فانه لم يكن مستحيلا على ديكارت أن يجد هذه التكأة العقلية التى استطاعت أن تكون قاعدة قام عليها علم ثابت قوى .

من المعروف آن من الفلاسفة من قال بنفى كل معرفة يقينية ، وهؤلاء هم اللاأدريون الذين ذهبوا الى أنه يستحيل على العقل الانسانى آن يدرك الحقيقة الجازمة . وكان مذهبهم شائعا فى فرنسا فى عصر الفيلسوف وقد اطلع على مقالاتهم وعنى بها جد العناية وقرأ منتانى (١) وتأثر به الى حد بعيد . وقد بين الاستاذ جلسون فى تعليقه على المقال عن المنهج وجوه الشبه بين كثير من عبارات ديكارت وعبارات منتانى ، وقال الاستاذ برنشفيك فى ذلك آنه يقتبس عبارات منتانى دون أن يشعر بحاجة الى ذكر مصدرها كما كان يفعل عند اقتباس عبارات التوراة آو الانجيل (٢) ، وكما نفعل نحن عند اقتباس آيات القرآن .

وشاء ديكارت آن يبدأ بالشك فى البحث عن مبدئه

(١) هو ميشيل ده منتانى Montagne الكاتب الفرنسى صاحب الرسائل المشهورة . كان فيلسوفا وعنى عناية كبيرة بعلم الاخلاق وهو مشهور بلا أدريته ومع ذلك كان مخلصا فى دينه عاش من سنة ١٥٣٣ الى سنة ١٥٩٢ ميلادية .

(٢) الرياضة وما بعد الطبيعة عند ديكارت ١٧ ص ٣٧٩ .

العقلي ، وأن يجاري اللاأدريين في غلوهم ، فاعترف بأنه شاهد أن الحواس قد خدعته في بعض الأحايين «ومن الحزم ألا نثق البتة تمام الثقة في الذين خدعونا مرة واحدة» (١) ، ثم أقر بأننا نتصور في الحلم أشياء نحسبها اذ ذاك حقيقية فاذا استيقظنا تبدد الحلم وتبين لنا أن مارأيناه أثناء النوم لم يكن من الحقيقة في شيء، ومعنى هذا أن كثيرا من الصور والافكار التي تتوارد أمامنا في اليقظة ترد علينا بنفسها أثناء النوم دون أن تكون اذ ذاك حقيقية ، واذن ما الذي يمنع أن تكون تصوراتنا في اليقظة مثل تصوراتنا في النوم كلها خيالات وأوهام ؟ وفرض فرض اللاأدريين أن الذاكرة، وهي خزانة التجارب والمعارف ، لايمكن الاطمئنان اليها ، وقال أيضا : «٠٠ ولأن من الناس من يخطئون في التفكير ، حتى في أبسط أمور الهندسة ، ويأتون فيها بالمغالطات ، فاني لما حكمت بأنني كنت عرضة للزلل مثل غيري ، نبذت في ضمن الباطلات كل الحجج التي كنت أعتبرها من قبل في البرهان» (٢) ٠

يتبين من هذا أنه شاطر اللاأدريين فيما لهم من

(١) التأملات الأولى ١٢ ٠

(٢) المقال عن المنهج ص ٥٠ ٠

أسباب التشكك ، ومع ذلك ذهب الى أبعد مما ذهبوا اليه وفرض أن شيطانا خبيثا مضللا قويا يستعين بكل مافى وسعه من الحيل على تضليله ، وقال : ان السماء والهواء والأرض والألوان والأشكال والأصوات وسائر الأشياء الخارجية لاتكون اذن الا أوهاما وأحلاما استخدمها فى سبيل تضليلى وان ما أعتبر نفسى حاصلا عليه من أيد وعيون ولحم ودم ليس الا مجرد اعتقاد باطل (١) ٠

ومن طبيعة المذهب اللاأدرى انه لايقيم علما ، وقد عرف ديكارت ذلك خير معرفة وقال : انا اذا سلمنا بهذه الفروض السابق ذكرها تصبح العلوم الطبيعية محض خيالات لأن موضوعها يقع فى ميدان المكان والحركة وهما مع هذه الشكوك لايكونان الا من أوهام النفس ٠ ولكن ديكارت لم يكن قط لاأدريا ، لأن مقصده ، هو كما عرفنا ، البحث عن قاعدة أمينة يقيم عليها صرح العلم ، أى ايجاد مبدأ ضرورى لايقبل الشك ، وفى ذلك يقول «ماكنت فى ذلك (الشك) مقلدا اللاأدرية الذين لايشكون الا لكى يشكوا ، ويتكلفون أن يظلوا دائما حيارى ، فاننى على العكس ، كان مقصدى لايرمى

---

(١) التأملات الأولى ١٢ ٠

الا الى اليقين ، والى أن أدع الأرض الرخوة والرمل ، لكى أجد الصخر أو الصلصال» (١) .

يصل ديكارت الى مبدأ يقينى عندما يقول ان هذا الشيطان الخبيث مهما بلغ من القوة لايستطيع منعى من التوقف فى التصديق ولايقـدر على أن يفرض على شيئا (٢) ، واذن فأنا حر غير مجبر على الأخذ بتضليله ولا خاضـع لسلطانه ، ولايقـدر على أن يمنع كونى موجودا مادمت أرى أننى شىء من الأشياء (٣) ، ولكن أى شىء أكون ؟ اننى انتهيت بنفسى الى حقيقة كونى موجودا بمجرد التفكير واذن فأنا شىء مفكر ، وبعبارة أخرى أنا أفكر ، اذن فأنا موجود Je pense, donc je suis

«ولما انتبهت الى أن هذه الحقيقة : أنا أفكر ، اذن فأنا موجود ، كانت من الثبات والوثاقة (واليقين) بحيث لايستطيع اللاأدريون زعزعتها ، بكل مافى فروضهم من شطط بالغ ، حكمت أنى أستطيع مطمئنا أن آخـذها مبدأ أول للفلسفة التى كنت أتحراها» (٤) . وقد بينت

---

(١) المقال عن المنهج ص ٤٥ و ٤٦ .

(٢) التأملات الاولى ١٣ .

(٣) التأملات الثانية ١٢ .

(٤) المقال عن المنهج ص ٥١ و ٥٢ .

فى صفحة ٥١ التعليقة حرف (آ) ماذا يقصد ديكارت بكلمة التفكير . وبينت فى التعليقة حرف (ب) ص٥١ و ٥٢ أن القضية ليست قياسا ، كما أن مجـرد شرح استدلالاته للوصول اليها على نحو ما شرحتها الآن معتمدا على التأملات يكفى لعـدم اعتبارها قياسا ، ويجب أن يضاف الى كل هذا أن الفكر يشتمل على عمليتى البداهة التى تشتمل على الأوليات الضرورية والقياس الذى يطلقه ديكارت على النظريات (١) ، واذن تصح أن تكون القضية مبدءا أول وسنرى كيف وفق ديكارت الى أن يقيم عليه كل فلسفته .

ـ ٤ ـ

التمييز بين النفس والبدن

أول شىء يستنتجه ديكارت من مبدئه أنا أفكر ، اذن فأنا موجود هو تمييزه بين النفس والجسم . والنفس عنده هى الجوهر الذى يحل فيه الفـكر مباشرة (٢) ، والجسم هو الجوهر المتحيز الذى يتخذ شكلا ووضعا (٣) .

---

(١) انظر الفصل الخاص بالمعرفة وص ٣ التعليقة ١ .

(٢) الردود على الاعتراضات الثانية ١٢ الحد السادس وانظر فى ص ٥٦ التعليقة الاولى تعريف الجوهر .

(٣) التاملات الثانية والردود على الاعتراضات الثانية ١٢ الحد السابع .

وله فى التمييز بين النفس والبدن حجج ثلاث نبدأ فى بسطها بالحجة التى وردت فى المقال عن المنهج ، ومجملها أنه بعد أن تأكد أنه موجود مفكر قال انه يستطيع أن يفرض أن لا جسم له ، وأن يغفل وجود السماء والأرض والهواء وكل شيء يقع فى المكان ، ولكنه مع ذلك يظل واثقا من وجـود نفسـه واذن تكون الأنية أو النفس موجودة مع فرض أن البدن غير موجـود ، واذن فهى شيء متميز عنه ، لايستلزم وجودها مكانا ولاتتوقف على أى مادة (١) ٠

وقد اعتبر الكثيرون هذه الحجة خاصة بديكارت ، أى أنه أول من ذكرها ، وقد أثبت من أقوال هؤلاء قول هملان ٠ ولكنى أثبت فى التعليقات نصوصا لابن سينا يتبين من مقارنتها بكلام ديكارت أن الفيلسوف العربى سبق أبا الفلسفة الحديثة الى هـذه الحجة (٢) ومع أن المستشرق فورلانى بين امكان اطلاع ديكارت على كلام ابن سينا ، الا أننا لانشك أقل شك فى أن الفيلسوف انما وصل الى هذه الحجة متنقلا من مبدئه أنا أفكر ، اذن فأنا موجود انتقالا منطقيا وهذا واضح جد الوضوح

---

(١) انظر ص ٥٢ وما بعدها مبادىء الفلسفة ٦ ج ١ الفقرة الثامنة ٠

(٢) أنظر التعليقات ص ٥٣ ـ ٥٥

فى المقال عن المنهج ، وفى مبادىء الفلسفة حيث يشرح فى الفقرة السابعة من الجزء الاول مبدأه الأول ويبسط هذه الحجة فى الفقــرة الثامنة تحت عنـوان «بيان أن التمييز بين النفس والبدن يعرف بعد هذا مباشرة» بل ان نفس المبدأ ينطوى فى الواقع على هذه الحجة بحيث لايبقى أى داع للارتياب فى آن ديكارت لم يأخذها عن سابقيه .

وموجز الحجة الثانية فى التمييز بين النفس والبدن أن البدن مثل كل الأجسام قابل للقسمة ولكن النفس واحدة لاتتجزأ ، ونحن نورد فيما يلى ترجمة للنص الذى يودعه هذا الحجة :

« .. ان الاختلاف عظيم بين النفس والبدن فى أن البدن يطبيعته قابل دائما للقسمة ، وان النفس غـير قابلة للقسمة على الاطلاق اذ أنه فى الواقع عندما أنظر فيها ، أى عندما أنظر فى نفسى ، من جهة أننى شىء يفكر ، فاننى لاأستطيع أن أميز فى نفسى أجزاء ما ، ولكننى أعرف وأتصور تصورا جد واضح أننى شىء واحد تام على الاطلاق . ومع أن النفس كلها تبـدو متحدة مع البـدن كله ، فانه اذا فصلت عنــه ساق أو ذراع أو أى جزء آخر ، فاننى أعرف خير معرفة ، أنه

لم يفصل ، من أجلها هذا ، أى شىء فى نفسى • وان قوى الارادة . والاحساس ، والتصور الخ لايمكن أن يقال عنها قولا صحيحا انها أجزاء النفس ، لأن النفس التى تتصرف بتمامها فى الارادة . وتتصرف بتمامها فى الاحساس والتصور ، هى واحــدة بعينها • ولكن الأمر على نقيض هذا فيما يتعلق بالأشياء الجسمية أو المتحيزة لاننى لا أقدر على أن أتخيل منها شيئا واحدا . مهما كان صغيرا . لايسهل على تجزئته فى الوهم ، أو لا يقسمه عقلى بسهولة كبيرة الى أقسام كثيرة وبالتالى لاأعرف أنه غير قابل للقسمة» (١) •

ويوجد مايشبه هذه الحجة عند افلاطون الذى يقول بأنه من الضرورى . لجمع الصور الحسية المختلفة والمعانى والمقارنة بينها ، أن يوجد مبدأ واحــد بســيط هو النفس (٢) • وكذلك لم تكن الحجــة مجهــولة عنــد العرب فى العصور الوسطى ، اذ أن ابن سينا كتب فصلا عن وحدة النفس ، يظهر فيه تأثير أفلاطون وهو يقول فيــه ان قوى النفس المختلفة يجب أن تجتمع كلها عند ذات واحدة هى المبدأ لها ، وأن قوى الشهوة

(١) التأملات السادسة ١٢ •

(٢) مملاق مذهب ديكارت ٢ ص ٢٥٨ •

أو الحس والغضب (وهذه لغة افلاطون فى تقسيمه قوى النفس) تؤدى الى مبدأ واحد ، وليس المراد من قولنا أننا أحسسنا فغضبنا أن شيئا منا أحس وشيئا منا آخر قد غضب ولكن المراد أن الشىء الذى أدى اليه الحس هذا المعنى عرض له ان غضب (١) .

وكذلك حكى ابن حزم عن بعض الفلاسفة أن «النفس عند هؤلاء جوهر قائم بنفسه حامل لاعراضه لامتحرك ولامنقسم ولامتمكن أى لا فى مكان» (٢) .

وكذلك عرض الغزالى عشرة براهين للفلاسفة فى القول بأن النفس جوهر غير متحيز ولامنقسم (٣) . ومع أنه لاينكر هذا المذهب «انكار من يرى أن الشرع جاء بنقيضه» الا انه ينكر على الفلاسفة «دعواهم دلالة مجرد العقل عليه والاستغناء عن الشرع فيه» وأهم مافى هذه البراهين العشرة هو أنه قد يحل فى النفس من العلم ما لايقبل القسمة مثل الكليات المجردة واذن يكون محله وهو النفس غير منقسم .

---

(١) النجاة ص ٣١٠ ــ ٣١٥ طبعة القاهرة ١٣٣١ .

(٢) الفصل فى الملل والنحل ج ١ ص ٢٧ طبعة القاهرة ١٣٤٧ .

(٣) مقاصد الفلاسفة ص ٢٩٢ وما بعدها طبعة القاهرة سنة ١٣٣١ وتهافت الفلاسفة ص ٣٠٤ وما بعدها من طبعة بويج Bouyges بيروت سنة ١٩٢٧ وص ٧١ وما بعدها طبع القاهرة سنة ١٣٢١ .

والحجة الثالثة هى قوله بوجود معقولات خالصة غير محتاجة لتدركها النفس الى وجـود مادة ، ومعنى هذا استغناء النفس فى هذا الادراك عن الصورة التى تدركها الحواس (وهى آلات جسمية) ويحفظها الخيال (وله عند علماء العصور الوسطى وعنـد ديكارت آلة جسمية أيضا انظـر ص ٩١ و ٩٢) . وانمـا تدرك النفس هذه المعقولات بالنور الفطرى . وهو يعنى بهذه المعقولات الأوليات البسيطة مثل هـذه القضـية : اذا ساوى شيئان كل منهما شيئا ثالثا كانا متساويين (١). واذن يكون هـذا برهانا عـلى اسـتقلال النفس عن البدن .

وأقواله فى هـذه الحجة قليلة وهـو ينقض فيها دعوى الماديين القائلين بأن الفكر من عمل المخ (٢) . وكانت هـذه الحجة هى حجـة الروحيين فى العصـور الوسطى وقد استعان بها كما استعان بسابقتها ليثبت تميز النفس عن البدن . ويلاحظ أنه صبغهما بصبغة مذهبه ، ولم يأخذهما على صورتيهما الأولى ويكفى أن يتأمل القارئ مقـدار الفـرق بين الثانية على نحـو

---

(١) راجع القواعد لقيادة العقل القاعدة الثانية عشر .

(٢) هملان مذهب ديكارت ص ٣٦٠ لا سيما التعليقة الثانية .

مايبسطها ويبينها على نحو ماهى عليه عند أفلاطون وفلاسفة العرب ليتبين مقدار عمل ديكارت ٠

ويستنتج من هذا التمييز بين النفس والبدن أنها ليست عرضة للفناء مثله وانها خالدة لاتقبل الموت معه (١) ٠ وهو لايبرهن على خلود الروح ببراهين خاصة ، مع عنايته الشديدة بهذه المسألة حتى انه ليجعلها من الموضوعات التى تكون علم ما بعد الطبيعة (٢) ، وذلك لأنه يرى أنها من اختصاص الدين والوحى ، ومن رأيه أن الحقائق الدينية التى يأتى بها الوحى هى فوق الفهم ، ومن الحكمة ألا تسلم الى ضعف الاستدلالات العقلية (٣) ٠

ـ ٥ ـ

اثبات وجود الله

بعد أن يثبت ديكارت تميز النفس عن البدن بالحجة الأولى ، ينتقل الى البحث عما ينبغى لقضية من القضايا لتكون يقينية ، أى الى البحث عن معرفة

(١) المقال عن المنهج ص ٩٨ ٠

(٢) مبادىء الفلسفة ٦ المقدمة ٠

(٣) المقال ص ١٢ ٠

مايتكون منه اليقين . يقول انه وجد قضية عرف أنها يقينية ويعني بهـا مبـدأه الأول أنا أفـكر ، اذن فأنا موجود ، ثم يلاحظ أنه لاشيء فيها يجعله يثق من أنه يقول الحـق الا كونه يدرك مايقـول ادراكا واضـحا متميزا (١) ، واذن فهو يستطيع الاطمئنان الى أن يتخذ قاعدة عامة أن الأشياء التى تتصـورها تصـورا قوى الوضوح والتميز هى جميعا حقيقة (٢) ، أى واقعية سواء من جهة الوجود أو الماهية (التعقل) ، اذ أنه يرى أن الماهيات والصور الذهنية على العموم هى موجودات لأنها تقوم فى الذهن وتفكر فى النفس (٣) .

بعد ذلك ينتقل الى اثبات وجـود الله ويختص . فى البرهان على هذا حجج ثلاث نوجز شرحها على حسب ترتيبها فى المقال (٤) .

الأولى : فكر فى شكوكه واستنتج منها أنه ليس تام الكمال ، لأن المعرفة شيء أكمل من الشـك مادام الشك قصورا عن ادراك الحقيقة ، ولكن معـرفته أنه

---

(١) انظر حده للمعرفة الواضحة والمعرفة المتميزة فى ص ٣١ التعليقة الاولى .

(٢) المقال ص ٥٨ ومطلع التأملات الثالثة ١٢ .

(٣) أنظر ص ٧٠ والتعليقة الثانية فى نفس الصفحة وفى الصفحة التالية .

(٤) أنظر القسم الرابع من ص ٥٨ الى ص ٦٥ مع التعليقات عليها .

ليس تام الكمال تفيد تفكيره فى شىء تام الكمال (١) ، واذن فهو يريد أن يعرف أنى جاءه هذا التفكير · هنا يستعين ديكارت بمبدأ العلية ويقول ان علة تفكيره فى شىء أكمل منه يجب أولا ـ أن تكون موجودة ، ثانيا ـ أن يكون فيها من الكمال أكثر مما فى المعلول (٢) · واذن يستحيل أن تكون الصورة الذهنية للكمال التام مستمدة من العدم ، كما يستحيل أن تكون مستمدة من نفسه ، واذن لابد أن تكون قد ألقيت اليه بواسطة كائن طبيعته أكثر كمالا ، بل ولها من ذاتها كل الكمالات · هذا الكائن هو الله ·

الثانية ـ بما أنه عرف أنه موجود غير تام الكمال، اذن فهو ليس الكائن الوحيد فى الوجود ، اذ لابد لوجوده من علة ، لأنه لو كان هو علة وجود نفسه ،لكان يستطيع أن يحصل من نفسه على كل مايعرف أنه ينقصه من الكمالات ، لأن الكمال ليس الا محمولا من محمولات الوجود ، والذى يستطيع أن يهب الوجود يستطيع أن

(١) أو غير منتهاه · أنظر ص ٦١ التعليقة الثانية لبيان سبق معنى غير المتناهى على معنى المتناهى ·

(٢) يقرب من هذا قول السهروردى « المعلول لا يكون أشرف من العلة » انتبه الاستاذ هرتن HORTEN وفى كتابه Die spekulative u. positive Theologie des Islam ص ١٨٣ ليبزج سنة ١٩١٢ ·

يهب الكمال · واذن تكون عله وجـوده ذاتا لهـا كل مايتصور من الكمالات وهذه هى ذات الله ·

الثالثة ـ نظر الى الهندسة ولاحظ أن كل مايعزوه الناس الى براهينها من يقين انما يقوم على أنها تتصور بوضوح وتميز تبعا لقاعدته العامة · ولكن لاشىء فى هذه البراهين يؤكد لنا وجود موضوع الهندسة الذى هو الكم المتصل المتحرك . فمثلا اذا فرضنا مثلثا نستطيع أن نثق بفضـل البرهان الهندسى أن زواياه الثـلاث مساوية لزاويتين قائمتين . ولكن هذا لايستطيع أن يجعلنا على ثقة من أن فى العـالم مثلثا ، على حين أنه عند امتحان ماعندنا من صورة ذهنية لموجود تام الكمال، نرى أن الوجود داخل فيها على نحو مايدخل فى الصورة الذهنية لمثلث ان زواياه الثـلاث مساوية لقـائمتين · ومحصل هذا كله أن معنى الكمال المطلق ، أو معنى غير المتناهى يشتمل على معنى الوجود · واذن يبيح لنـا القول بأن الله حاصل على كل الكمالات أن نستنتج أنه موجود وأن نثق من ذلك أكثر من ثقتنا فى أى برهان هندسى ·

★ ★ ★

بعد ذلك يقول ديكارت ان قاعدته العامة : الأشياء

التى نتصورها تصورا جد واضح وجد متميز هى جميعا حقيقية ، ليست ثابتة الا لأن الله كائن أو موجود (١)، وأنه على نحو ما أثبت ، مصدر الجود والصدق ، ومن المستحيل أن يخدعنا ، ويقول أيضا «ان معرفة الله والنفس جعلتنا على ثقة من هذه القاعدة» (٢) . ولكننا لاحظنا أنه أثبت وجود الله معتمدا على قاعدة وضوح المعانى وتميزها ، ومعنى ذلك أنه ارتكب مايسمى فى المنطق بالدور .

لم يفت معاصرو ديكارت أن يلاحظوا ذلك ، وكان ممن انتقدوه جاسندى الذى كتب اليه «انك تسلم بأن الصورة الذهنية الواضحة المتميزة حقيقية . لأن الله موجود ، ولأنه خالق هذه الصورة وهو ليس خادعا ، وأنت تسلم من جهة أخرى أن الله موجود وبأنه خالق حق لأنك حاصل على صورة ذهنية له متميزة واضحة . ان الدور واضح» (٣) . وقد رد الفيلسوف على كل المعترضين بما لايتعدى المعنى التالى «ثم اننى بينت بوضوح لابأس به فى ردودى على الاعتراضات الثانية ، أننى لم أقع فى الخطأ المسمى بالدور ، عندما قلت اننا

(١) المقال ص ٧٠ .
(٢) المقال ص ٧١ .
(٣) الاعتراضات الخامسة ١٢ .

لسنا على ثقة من أن الأشياء التى نتصـورها تصـورا شديد الوضوح والتمييز هى جميعا حقيقية الا لأن الله كائن أو موجود ، وأننا لسنا متأكدين من أن الله كائن أو موجود الا لأننا نتصور ذلك بوضوح وتميز شديدين. وذلك بتمييزى بين الأشياء التى نتصورها فى الواقع تصورا واضحا جدا وبين الأشـياء التى نتذكر أننـا تصورناها فيما سبق بوضوح شديد ذلك لأنه ، أولا . نحن على ثقة من أن الله موجود لأننا نوجه انتباهنا الى الحجج التى تثبت لنا وجوده · ولكن يكفى بعد ذلك أن نتذكر أننا تصورنا شيئا تصورا واضحا لنكون على ثقة من أنه حقيقى ، وهذا لايكون كافيا اذا لم نعرف أن الله موجود ، وأنه لايمكن أن يكون خادعا» (١) ·

ومعنى هـذا أنه يميز بين المعـرفة البديهية وبين المعرفة النظرية التى تحتاج الى الذاكرة ، والاخيرة هى التى لايمكن أن تكون صحيحة الا لأن الله موجود وأنه حق · ونحن نكتفى فى نقض اتهامه بالدور بدفاعه عن نفسه ويضطرنا تعمد الايجاز الى اغفـال دفاع غـيره والمسائل التى يثيرها الجدل فى هذا الموضوع ·

---

(١) الردود على الاعتراضات الرابعة ١٢ ·

— ٦ —

منهج ديكارت

(أ) تحليل المعرفة أو البداهة والقياس

بحث ديكارت عن منهج واحد من المستطاع استخدامه فى كل البحوث ، مهما اختلفت موضوعاتها ، لأجل الوصول الى الحقيقة . ومن أجل هذا نظر فى العلوم التى درسها ووازن بين حججها وبراهينها فوجد أن أكثرها تأكدا ويقينا هى براهين الرياضيات ولما كان يعتقد بأن العقل الانسانى واحد ، فانه لم يجد سببا لهذا الاختلاف بين العلوم فى مراتب اليقين ، الا اختلاف المناهج التى يسلكها الباحثون فى العلوم المختلفة ، وأيقن أنه لو طبق على كل علم المنهج الذى يتبعه الرياضيون فى الوصول الى براهينهم ، لبلغت العلوم درجة الرياضة من حيث استقرار النتائج ولم يبق شىء يبرر اختلاف العلماء ومجادلاتهم .

صمم ديكارت عزمه على أن يعرف كيف يتصرف العقل فى طريقة البرهان الرياضى ، أى أنه عزم على أن يحلل المنهج الرياضى الى عناصره العقلية ، فلم يتعسر عليه أن يشاهد أنه ينحصر فى استنباط النتائج

استنباطا عقليا ، أى فى القياس Déduction ولكن القياس لايبدأ من غير أن يسبقه عمل عقلى آخر ، اذ أنه لكى يكون يقينيا وبرهانيا بالمعنى الصحيح ، يجب أن يبدأ سيره من أشياء بسيطة يسلم بها العقل ، والعمل الذى به يفرض العقل على نفسه هذه الأشياء البسيطة يسمى البداهة Intuition (١) وهو يرى أنه ليس

---

(١) يستعمل بعض أساتذة الجامعة المصرية كلمة « الحدس » ترجمة لكلمة Intuition . ونحن لم نأخذ بهذا الاستعمال لسببين : الأول لأن كلمة الحدس تثير كثيرا من الشبهة اذ أنها تفيد عند مناطقة العرب « حركة الى اصابة الحد الاوسط اذا وضع المطلوب أو اصابة الحد الاكبر اذا أصيب الاوسط . وبالجملة سرعة الانتقال من معلوم الى مجهول كمن يرى تشكل استنارة القمر عند أحوال قربه وبعده عن الشمس فيحدس أنه يستنير من الشمس » (ابن سينا النجاة ص ١٣٧) . وهذا مخالف كل المخالفة لما تعنيه ديكارت بال intuition كما سيأتى بيانه عن قريب . وقد ترجم الاستاذ هرتن HORTEN كلمة الحدس فى معناها المذكور بكلمة Scharfsinn أى الامضاء فى الفهم . كما أن الاستاذ أورد معانيها المختلفة وأورد ما يقابل هذه المعانى من كلمات فى اللغة الألمانية ولم يترجمها بكلمة intuition الا عندما يكون المقصود بها « النفس القدسية » أى عندما تصبح الكلمة من لغة الصوفية الذين يخالفون الفلاسفة فيما لهم من معان ومقاصد (أنظر Die spekulative u. positive Theologie ص ١٤٨ و ٢٩١ وراجع أيضا الجرجانى التعريفات عند كلمة النفس القدسية) . والسبب الثانى أن لكلمة intuition فى الفلسفة الاوربية معانى متعددة ويعنى ديكارت بها معنى خاصا رأينا أنه يطابق مفهوم كلمة « بداهة » فى اللغة العربية واستعملناها باعتبارها العمل العقلى الخاص بادراك البديهى . وهو كما يعرفه صاحب كشاف الاصطلاحات « يطلق على معان منها مرادف للضرورى المقابل للنظرى . ومنها المقدمات الاولية وهى ما يكفى تصور الطرفين والنسبة فى جزم العقل به وبعبارة أخرى ما يقتضيه العقل عند تصور الطرفين والنسبة من غير استعانة بشىء » ج ١ ص ١٥٨ .

للمعرفة الصحيحة غير سبيلين هما البداهة والقياس (١) وهو يقول فى حدة للبداهة : «لاأعنى بالبداهة الاعتقاد فى شهادة الحواس المتغيرة ، أو أحكام الخيال الخادعة ·· ولكنى أعنى بها تصور النفس السليمة المنتبهة تصورا هو من السهولة والتميز بحيث لايبقى أى شك فيما نفهمه ، أى التصور الذى يتولد فى نفس سليمة منتبهة عن مجرد الانوار العقلية» وعلى هذا النحو يستطيع كل انسان أن يرى بالبداهة أنه موجود وأنه يفكر ، وأن المثلث محدود بثلاثة خطوط ، وأنه ليس للكرة الا سطحا واحدا ، وغير ذلك من الحقائق المشابهة التى هى أكثر عددا مما يعتقد فى العادة» (٢) ·

وتختص البديهة بادراك الأشياء البسيطة ، والبسيط عند ديكارت ماليس له أجزاء فاما أن يعرف كله أو يجهل كله ، وعلى ذلك تكون البداهة هى العمل الذى به نعرف المبادىء الأولى (٣) ·

ويفيد القياس عنده النظر على العموم أى كل أنواع الاستنباط وهو يعرفه بأنه العملية التى يستنبط

---

(١) القواعد لقيادة لعقل القاعدة الثانية عشرة ·

(٢) نفس الكتاب القاعدة الثالثة ·

(٣) نفس الكتاب القاعدة الثانية عشرة وهنكان منهج ديكارت ٢ ص ٧٦٢ ·

بها شيء من شيء آخر (١) ومعنى ذلك المرور من حد الى حد آخر يتلوه أو ينتج عنه مباشرة وبالضرورة .

ويلاحظ أنه بالبداهة تعرف الطبائع البسيطة ، ولكن المركبة تدرك بالقياس ، ثم ان القياس متتابع . ولكن البداهة وقتية (٢) ، والقياس يستمد ماله من يقين من الذاكرة ، بينما تمتلك البداهة يقينا حاضرا (٣) . ثم ان البداهة لا غنى عنها فى القياس عند الانتقال من حد الى حد ، بل ويرى الاستاذ هملان أن استنباط النتيجة هو بداهة وهو يذهب فى ادماج القياس بالبداهة الى حد قوله ان نظرية ديكارت فى المعرفة تتلخص فى القول بأن المعرفة هى ادراك طبائع بسيطة ببداهة لاتضعف وادراك الروابط بين هذه الطبائع البسيطة ، التى ليست فى ذاتها الا طبائع بسيطة (٤) .

---

(١) القواعد لقيادة العقل القاعدة الثانية .

(٢) هملان مذهب ديكارت ٣ ص ٨٠ .

(٣) هنكان منهج ديكارت ٢ ص ٨٦١ .

(٤) هملان الكتاب المذكور ص ٨٢ و ٨٧ و ٨٨ .

(ب) القواعد الأربع

بعد أن أوجزنا شرح التحليل الديكارتي للعمليتين اللتين يقوم بهما في سبيل المعرفة : العقل بأقوى معناه Le Bon Sens نريد الآن أن نلم بقواعد منهجه التي سردها في القسم الثاني من **المقال عن المنهج** ٠

يعني ديكارت بالمنهج «قواعد وثيقة سهلة تمنع مراعاتها الدقيقة من أن يؤخذ الباطل على أنه حق ، وتبلغ بالنفس الى المعرفة الصحيحة بكل الأشياء التي تستطيع ادراكها ، دون أن تضيع في جهود غير نافعة ، بل وهي تزيد في ما للنفس من علم بالتدريج» (١) ٠

وهو يرى أنه كلما اتجهنا نحو البساطة وكلما اقتصرنا في نشاطنا العلمي على النور الفطري كان وصولنا للحقيقة آمن وأيسر ٠ وذلك لأنه يقول ان النفس تشتمل على شيء الهي أودعت فيه البذور الأولى للأفكار النافعة ، واذا أثقلت هذه البذور بالدروس المعقدة ، لم يجن منها الا ثمرات غثة لايرجي منها نفع دائم أو خير مقيم (٢) ٠ ومن هذه الناحية قال انه

(١) القواعد لقيادة العقل ١ القاعدة الرابعة ٠

(٢) نفس الموضع وراجع للوقوف على مراده ببذور لافكار صفحة ١٠٣ من المقال مع التعليقة الواردة في نفس الصفحة ٠

شاهد أن تعدد القوانين فى الدولة كثيرا مايهيىء المعاذير للنقائص (١) ، وعلى ذلك رأى أن يستبدل بتعليمات المنطق الكثيرة المعقدة أربع قواعد سهلة بسيطة من المستطاع تطبيقها بنجاح فى كل أنواع البحوث النظرية ٠

الأولى وتسمى قاعدة اليقين ونصها هو «ألا أقبل شيئا على أنه حق ، مالم أعرف يقينا أنه كذلك : بمعنى أن أتجنب بعناية التهور ، والسبق الى الحكم قبل النظر، وألا أدخل فى أحكامى الا مايتمثل أمام عقلى فى جلاء وتميز ، بحيث لايكون لدى أى مجال لوضعه موضع الشك» (٢) ٠

وفى اعتقادى أن المعرفة التى تنطبق عليها هذه القاعدة هى البداهة لأن المعرفة البديهية تمتاز بالبساطة

---

(١) أنظر صفحة ٢٩ و ٣٠ والتعليقة الواردة فى تينك الصفحتين ٠

(٢) أنظر ص ٣٠ و ٣١ وراجع التعليقات فى تينك الصفحتين لشرح ما يقصده ديكارت بالتهور والسبق الى الحكم قبل النظر والجلاء والتميز ٠

ومما يجدر بالذكر اننى اخترت كلمة التهور ترجمة لكلمة **Précipitation** لاننى راعيت الأصل التاريخى لهذا المعنى ، اذ أن القديس توماس الاكوينى سبق ديكارت الى هذا المعنى فى علم الاخلاق فقال عنه انه رذيلة تقابل فضيلة التروى والمشورة التى هى تابعة لفضيلة الحزم ٠ وعلى ذلك يكون التهور عند القديس توماس من عيوب الارادة وعند ديكارت من عيوب العقل انظر جلسون التعليق ؛ ص ١٩٨ و ١٩٩ ٠

والوضوح والتمييز ، ثم لانها ، كما سبق القول فى القسم الاول من هذا الفصل ، تشتمل على يقين حاضر، أى الاعتقاد الجازم بأن موضوع المعرفة هو كذا مع الاعتقاد فى نفس الوقت بأنه لايمكن أن يكون الا كذا (١) ، مثل القول بأن للمثلث ثلاثة أضلاع ، وأنه اذا تساوى شيئان كل منهما ساوى شيئا ثالثا كانا متساويين وغير ذلك ·

القاعدة الثانية تسمى بقاعدة التحليل وبها ينبغى أن تقسم المعضلة التى تدرس الى أجزاء بسيطة على قدر ماتدعو الحاجة الى حلها على خير الوجوه (٢) والواقع أن هذه القاعدة متصلة بالتالية ، حتى أن ديكارت جعلها فى القواعد (وهى مكتوبة قبل المقال) قاعدة واحدة حيث قال «ينحصر المنهج بأجمعه فى أن نرتب وننظم الاشياء التى ينبغى توجيه العقل اليها لاستكشاف بعض الحقائق · ونحن نتبع هذا المنهج خطوة خطوة ، اذا حولنا بالتدريج القضايا الغامضة المبهمة الى قضايا أبسط ، واذا بدأنا من الادراك البديهى لأبسط

---

(١) انظر التعريف اليقين كليات ابى البقاء ص ٢٥ طبعة القاهرة سنة ١٢٨١ هـ وكشاف الاصطلاحات صفحة ١٥٤٧ وقارن ذلك بما جاء فى معجم الفلسفة ١١ للاستاذ لالاند تحت كلمة Evidence

(٢) المقال ص ٣١ ·

الاشياء كلها ex omnium simplicissima rum intuitu فاننا نجتهد أن نرقى بنفس الدرجات الى معرفة سائر الأشياء» (١) ·

القاعدة الثالثة تسمى بقاعدة التأليف أو التركيب ويعبر عنها بقوله : «أن أسير أفكارى بنظـام ، بادئا بأبسط الامور وأسهلها معــرفة كى أتدرج قليلا حتى أصل الى معرفة أكثرها تركيبا ، بل وأن أفرض ترتيبا بين الأمور التى لايسبق بعضها الآخر بالطبع» (٢) · وقد ذهب الاستاذ هملان الى أن هذه القاعدة هى أساس المنهج الديكارتى ، وأنها أظهر القواعد آثرا عند تطبيق ديكارت لمنهجه على المعضــلات (٣) ، كما أن الاســتاذ برنشفيك ينبه الى أن كل الذين درسوا ديكارت ومنهم جلسون لم يعنوا بقوله «كى أتدرج قليــلا» العنــاية الواجبة اذ ما الذى يميز المعادلات الرياضية غير التدرج شيئا فشيئا ؟ ويرى أن ديكارت يقصد من هذه العبارة التعبير عن أمنيته الكبيرة وهى تطبيق المنهج الرياضى على كل العلوم · ثم ان ديكارت نفسه ، كما رأينا فى النص الذى اقتبسناه من القواعد يشير بأهمية هــذه

(١) القواعد لقيادة العقل ١ القاعدة الخامسة ·
(٢) المقال ص ٣١ و ٣٢ مع التعليقات عليها ·
(٣) هملان مذهب ديكارت ٣ ص ٧٠ و ٧١ ·

القاعدة حتى ليقول ان المنهج بأجمعه ينحصر فيها ·
وهو يرى أيضا أن العالم الذى لايتبع هذه القاعدة فى الترتيب مثله كمثل الرجل الذى يريد أن يرقى منزلا من أسفله الى أعلاه فيحاول أن يثب وثبة واحدة ، ضاربا الصفح عن السلم المجعول لهذه الغـاية ، أو غير مبصر اياه (١) ·

والقاعدة الأخيرة تسمى بقاعدة الاستقراء التام أو الاحصاء أو التحقيق ، وهو يعرضها فى هذه العبارة الموجزة : «أن أعمل فى كل الاحـوال من الاحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة مايجعلنى على ثقة من أنى لم أغفل شيئا» (٢) ·

والغرض من هذه القاعدة تكميل العلم وذلك بأن نمر بحـركة فكرية متصلة على كل الموضـوعات التى تتصل بغرضـنا ، وأن نحيط بهـا فى احصـاء كاف ومنهجى (٣) وفى الواقع أنه قد تتعدد حدود الاستدلال

---

(١) القواعد ١ الخامسة ·

(٢) المقال ص ٣٢ والتعليقة الثانية فى نفس الصفحة · وأنا أنبه هنا الى انه يعنى بقوله « كل الاحوال » حالتى التحليل والتركيب ، أى فى القـاعدة الثـانية والثالثة ·

(٣) القواعد ١ عنوان القاعدة السابعة ·

فى مسألة من المســائل بحيث يصــبح من المستحيل أن نصل بالبداهة الى اقامة عــلاقة بين الحد الأول والحــد الأخير أى أن الوصــول الى النتيجــة لايكون من عمــل البداهة • واذن فوظيفة هــذه القــاعدة هى مراجعة الصلات أو الروابط الموجودة بين الحلقات التى تكون سلسلة الاستدلالات ، فاذا تأكدنا من وثاقة اتصالها جاز لنا أن نحكم حكما صحيحا ويصبح هذا الحكم بالغا من اليقين ماتبلغــه البــداهة • ويجب أن تكون عمليــة الاستقراء التام متصلة غير منقطعة ، اذ لو أننا أهملنا حلقة من الحلقات التى تتكون منها سلسلة الاستدلالات لانقطعت السلسلة ولما تبقى شىء من اليقين • ثم يجب أن يكون الاستقراء التام وافيا حتى نســتطيع به أن نبلغ اليقين ، اذ أننا فى هذه القــاعدة عرضة لتضليل الذاكرة ، واذن يجب مع احاطتنا بكل سلسلة القضايا أن ننتبه الى تمييز كل واحدة عن الأخرى حتى لايتطرق الغموض والابهام الى معرفتنا (١) •

ويرى مما سبق أن قواعد المنهج الثلاث الاخيرة كلها متصلة بعضــها مع بعض ففى عملية الاســتقراء التام نجد التحليل والتركيب كما أن الاستقراء التام يحقق

(١) القواعد ١ القاعدة السابعة •

التحليل والتركيب ويساعدهما على الاستكشاف ٠ وكذلك رأينا أنه أدمج التحليل والتركيب فى قاعدة واحدة فى كتابه القواعد ٠

ـ ٧ ـ

الأخلاق

بعد أن شرحنا مذهب ديكارت فى علم ما بعد الطبيعة ، الذى هو فى رأيه أول العلوم ، لانه يشتمل على مبادىء المعرفة الصحيحة ، وبعد أن تكلمنا عن منهجه الذى يحتوى على تحليل وسائل المعرفة ، وبيان الطرق التى تؤدى بالعقل الى بلوغ الحقيقة فى كل بحث، على نحو مايفعل الرياضيون فى الوصول الى أوثق براهينهم ، نريد الآن أن نتكلم قليلا عن مذهبه فى علم الأخلاق الذى هو عنده آخر مراتب الحكمة والعلوم، اذ يستلزم البحث فيه احاطة تامة بسائر أنواع المعرفة ٠ ونحن ، فى سبيل الايجاز ، نعتذر للقارىء على تركنا الكلام عن رياضياته وطبيعياته فى هذه المقدمة ، مكتفين بالقليل الذى كتبه عنها فى **المقال عن المنهج** وبتعليقاتنا عليها ٠

نحن نعرف الآن مبلغ حماسة ديكارت فى رغبته أن يجدد الفلسفة والعلوم ، وقد رأى الفيلسوف أن يبنيها على أساس جديد قوى بدل أن يكتفى بترقيع البناء القديم القائم على أساس ضعيف . وفى سبيل هذا تخلص من كل الآراء القديمة التى وجد أنها موضع شك ، حاشا مايختص بالدين لأن حقائقه موحى بها ، وأخذ يبحث بعد هذا عن قواعد قوية للعلم وعن طريقة قويمة لتكوينه . ولكنه تمثل بالحكمة القديمة : **الحياة أولا ثم الفلسفة** Primo vivendi, deinde philosophare وقال اننا اذا شئنا تجديد المسكن الذى نقيم فيه ، وجب علينا قبل هدمه أن نجد منزلا آخر نأوى اليه أثناء العمل فى مسكننا . وكذلك لما كانت السعادة والنجاح فى الحياةالعملية لايجتمعان مع الشك والتردد ، فقد رأى أن يضع لنفسه قواعد للأخلاق مؤقتة (١) .

وقد بينت فى تعليقاتى على مطلع القسم الثالث من المقال ماذا يقصد ديكارت بقوله **قواعد مؤقتة** . ومما يؤسف له أن الكثيرين فهموا من هذا التعبير أنه

---

(١) المقال عن المنهج ص ٣٧ والتعليقات فى ص ٣٧ و ٣٨ .

كان ينوى العدول عنها ، والواقع مخالف لذلك ، اذ أنه يسميها أخلاقا مؤقتة لأنه لم يكن قد انتهى من بنائه لهيكل العلوم بعد ، وهو يرى أن موضع الأخلاق فى قمة هذا الهيكل • واذن لو أنه كتب شيئا عن الأخلاق قبل أن ينتهى من كل العلوم لكان اسم هذا الشيء مؤقتا • وتعتبر هذه القواعد مؤقتة أيضا لأنها كافية للانسانية قبل أن تبلغ علومها غاية الكمال • وقد كان ديكارت على ثقة من أن مابقى له من الحياة لن يتسع لتطبيقه منهجه على كل العلوم ، أى لتجديدها ، ولكنه مع ذلك كان شديد العناية بعلم الأخلاق حتى قال صديقه كليرزليه «ان نصيب الأخلاق من تفكيره كان أكبر الموضوعات نصيبا» (١) •

تتلخص أخلاق ديكارت المؤقتة فى ثلاث قواعد (٢):

الأولى : أن يطيع الانسان قوانين بلاده وأن يحترم عاداتها ، مع الثبات على الديانة التى نشأ عليها ، وأن يدبر شئونه فى سائر الامور تبعا لاكثر الآراء اعتدالا، التى أجمع على الرضاء بها أعقل الذين يعيش معهم •

---

(١) بايية حياة السيد ديكارت BAILLET La Vie de Monsieur Descartes ج ١ ص ١١٥ •

(٢) المقال من ص ٣٧ الى ٤٣ •

الثانية : أن يكون أكثر مايستطيع ثباتا فى أعماله ، وأن يتجنب الشك والتردد فى سياسته ، مثله فى هذا مثل المسافرين الذين يضلون فى غابة ، اذا اتبعوا وجهة واحدة فى سيرهم خرجوا من الغابة ونجوا، أما اذا ضربوا فيها ههنا مرة ، وهاهنا مرة أخرى أو وقفوا فيها ضعف أملهم فى النجاة والسلامة .

الثالثة : أن يجتهد فى مغالبة نفسه ، وحد رغباته وشهواته لا فى مغالبة الحظ أو مقاومة القدر . لأن أفكارنا ملك لنا نستطيع أن نتحكم فيها كما نشاء وبهذا نستطيع ألا نأسف لحرماننا من الاشياء التى لانقدر على نوالها . وعلى هذا النحو نستطيع أن ننعم بالغنى والقوة والحرية وكل أنواع السعادة .

ولا أريد أن أكرر هنا ماكتبته تعليقا على هذه القواعد . ولكننى أنبه الى تمييز ديكارت بين عمل العقل فى النظريات وعمله فى الأخلاق والأشياء العملية: فى النظريات يطرح كل مايحتمل أقل شك ويتخلص من كل ما ليس الا محتملا . أما فى الأخلاق فانه اذا عزم على عمل واتضح له وهو فى أثناء تنفيذه أنه مخطىء فى رأيه فان العقل يأمره أن يستمر فى عمله حتى

ينتهى الى النتيجة (١) • واذا تساوت الآراء أمامه فى الرجحان عليه أن يتمسك ببعضها وألا يعتبرها بعد هذا موضعا للشك باعتبارها متصلة بالعمل بل علينا أن نعتبرها جد حقيقية ووثيقة لأن العقل الذى ألزمنا بها هو نفسه كذلك (٢) •

كنا نريد أن نتكلم عن تأثير ديكارت فى العمران وكيف صدرت عن فلسفته كل المذاهب الفلسفية الحديثة ولكن المجال لايتسع لمثل هذا ونرجو أن نقدر على ذلك فى عمل آخر ان شاء الله • والآن فلنقدم للقراء كتابه **المقال عن المنهج** •

المقال عن المنهج

فى سنة ١٦٣٧ ظهر فى ليدن ، احدى مدن هولندا الكبيرة ، كتاب مقال عن المنهج لاحكام قيادة العقل وللبحث عن الحقيقة فى العلوم • ويليه علم انكسار الأشعة وعلم الأنواء والهندسة وهى تجارب لهذا المنهج •

---

(١) المقال ص ٤٠ •

(٢) ص ٤١ •

وكان نص العنوان كما يلى :

DISCOURS DE LA METHODE
Pour bien conduire sa raison et chercher la vérité dans les sciences
plus
LA DIOPTRIQUE, LES METEORES ET LA GEOMETRIE
Qui sont des essais de cette METHODE

ولم يظهر اسم المؤلف على الكتاب . لانه كان عدوا للشهرة ، ثم لآن خلو الكتاب من اسم مؤلفه كان آمرا مألوفا فى هذا الزمن ، ولكن الظاهر آن الكتاب لم يقرأه قارىء فى هذا العهد دون آن يعرف آن مؤلفه رينه ديكارت الفيلسوف الفرنسى الذى هجر وطنه ، واعتزل أهله ومعارفه ، وطلب الوحدة فى هولندا ليفكر فى هدوء واطمئنان لايكدرهما أحد . وكان ديكارت ينوى أن يجعل عنوان المقال ، **مشروع علم شامل يستطيع أن يرقى بطبيعتنا الى أعلى مرتبة لها من مراتب الكمال،** ولكنه شم رائحة الغرور تنبعث من هذا العنوان فعدل عنه وآثر الذى ظهر به الكتاب .

ولكن **المقال عن المنهج** لم يكن الا مدخلا للرسائل الثلاث التى تتلوه . لهذا ماكاد معاصرو ديكارت ينتهون منه على نحو ماينتهى القراء من مقدمة أى كتاب ، حتى

تخطوه الى مابعده فاستفادوا من الرسائل مايستفيد أهل العلم من أحدث البحوث التى تمد المعــارف بجــديد ، وتزيد فى الثروة العقلية للانسان · على آن الطبيعيات التى أمدها فيلسوفنا ببحثيه عن انكسار الاشعة وعن الانواء ، والرياضيات التى اشترك فى بنائها بهندسته، قد تجاوزت الآن تصوراته ولم يعد لهذه البحوث آكثر من قيمتها التاريخية آما المقال فقد تحول انتباه الناس اليه .«وأخذ يبدو لهم كلما تهذب الفكر الحديث وترقى فى وعيه بنفسه ، آنه يشتمل على آصح حد للفلسفة ، وتعيين غاياتها فى العمران ، وبيــان ماتختص به من أنحاء وطرق ·

ومازال المقال ، كلما آمعن فى درسه طلاب العلم، يجدون فيه أشياء جديدة ، حتى لقد قال عنه عالم ألمانى هو الدكتور ينكمن K. Jungmann عندما يقرآ الانسان فاوست جويته لابد أن يتذكر المقال عن المنهج لديكارت اذ يظهر فى العملين نفس النزعة غــير المتناهية التى تطمح فى النفس الانســانية الى مــزيد من الــرقى والكمال» (١) ·

---

(١) رينه ديكارت مبحث فى عمله ١٦ ص ٨ من الترقيم الرومانى ·

وعزا الكثيرون الى هذا الكتاب الذى لم يكن الا مجرد مقدمة كل النهضات الفلسفية فى القرنين السابع والثامن عشر ، وذهب البعض الى أنه أســاس المدنية الحديثة اذ جعلوا منه أصل الثورة الفرنسية فقال الاستاذ اميــل بوتــر E. Boutroux ان الثورة الفرنسية وليدة **المقال عن المنهج** لأن المجتمع قد تجدد فى سنة ١٧٨٩ باسم مبــدأ اليقين العقــلى الديكارتى (١) وكــذلك استشهد الكاتب الكبير بول بورجيه Bourget على أن الأفكار تحكم العالم بأن الثورة الفرنسية تصدر بأجمعها عن تصور الفلسفة الديكارتيةللانسان (٢) ٠والمقصود بهذا التصور تحديد ديكارت للانسان بأنه شىء يفكر ٠

ومنذ صدر المقال فى ليدن سنة ١٦٣٧ الى الآن وهو يعاد طبعه ويترجم الى اللغات المختلفة حتى لقــد ترجم الى اللغة التركية ٠ بل ان اللغات الاوربية الكبيرة تحتوى فى آدابها على أكثر من ترجمــة واحــدة له ٠ وكثرت عناية العلماء والباحثين بشرحه والتعليق عليه٠

---

(١) دروس فى تاريخ الفلسفة ١٣ ص ٢٩٢ و ٢٩٣ ٠

(٢) قصة التلميذ Le Disciple ص ٤٩ ٠

وأوفى هذه التعاليق هو مانشره الاستاذ جلسون سنة ١٩٢٥ اذ يقع فى نحو الخمسمائة صفحة من القطع الكبير لايشغل منها النص الا ثمانيا وسبعين ، طبعت بحروف كبيرة بخلاف التعليق فحروفه عادية • ومن الأدلة على قيمة المقال أنه يدرس فى كل جامعات أوربا فى حجرات الدرس وهو مقرر أيضا على طلبة السنة الثالثة من قسم الفلسفة فى جامعتنا المصرية •

ولما رأيت عظيم العناية فى مصر وفى الشرق العربى بالاطلاع على الثقافة الغربية ، وشاهدت رغبة العقلاء فى مشاركة الأمم التى فاقتنا فى الحضارة فى المعارف التى يعتمد عليها هذا التفوق ، اقتنعت أن من الواجب على أن أنقل الى العربية هذا الكتاب الصغير فى حجمه ، الكبير فى قيمته ، العظيم فى آثاره • وكان من الاسباب التى بعثتنى على اختيار هذا الكتاب والنهوض بترجمته مع صعوبة عبارته وتعسر نقله الى لغة أخرى هو رغبتى فى أن أعرض لقراء العربية نموذجا واضحا للفلسفة الصحيحة ولن يرى قراء العربية غموضا فى معانى ديكارت ، لأن فلسفته مثل للوضوح ، ثم انه لم يكن يكتب لطبقة معينة ، أو أمة خاصة ، أو جيل واحد ، بل كان يكتب فلسفة للجميع

«حتى» للأتراك (١)» كما يقول .

★ ★ ★

وأحب أن أنبه هنا الى أنى أخذت فى الترجمة والتعليق بمبدئين : **الأول :** محافظتى على وحدة اللغة العربية وأعنى بهذا أننى استعملت فى ترجمة الاصطلاحات الفلسفية الاوربية عين الاصطلاحات التى استعملها من قبل فلاسفة الاسلام للدلالة على نفس المعانى ، وأما الاصطلاحات الديكارتية فاننى بحثت لها عن كلمات عربية خالصة تؤدى معناها ، ثم أردفتها فى التعليقات بتحديد ديكارت نفسه لمفهومها . **والمبدأ الثانى** : المحافظة على تجانس الأدب العربى وأقصد بهذا أننى اجتهدت فى أن لا أدع الكتاب الذى أنقله الى العربية غريبا فى الأدب العربى الفلسفى ، ذلك بأننى اجتهدت فى أن أقرب بين كثير من المعانى الواردة فى **المقال عن المنهج** وبين معان لفلاسفة الاسلام فيها قول . وليس هذا من الغرابة فى شىء ، اذ أن ديكارت لم يخلق الفلسفة جملة واحدة ، بل استمد فى بنائه الفلسفى بعض الانقاض القديمة من فلسفتى

---

(١) أعمال ديكارت مطبوعة أدام وتانرى ج ٥ ص ١٥٩ وتدل كلمة الاتراك فى لغة هذا العصر على المسلمين عموما .

الاغريق والعصور الوسطى ، وقد عرف العرب فلسفة الاغريق وترجموا ماوصلهم منها الى لغتهم ، وشرحوه ونقدوه وزادوا عليـه وكذلك فعل علمـاء العصـور الوسطى بما أخذوه عن العرب .

★★★

وأخـيرا أقـول اننى اعتمدت فى الترجمـة على مطبـوعة الاسـتاذين آدام Adam وتانرى Tannery لأعمال ديكارت التى نشرت في باريس من سنة ١٨٩٧ الى سنة ١٩١١ برعاية وزارة المعارف الفرنسية ويقع **المقال عن المنهج** فى الجزء السادس منها من ص ١ الى ص ٧٨ وقد احتفظت بترقيم هذه الصفحات ووضعها على هامش الترجمـة ، وأذكر أيضـا أننى تصفحت الترجمـة اللاتينية التى قـام بهـا آتين دى كورسـل Etienne de Courcel!es (١) وقـد راجعهـا ديكارت بنفسه وزاد فيها على النص الفـرنسى بعض الزيادات

---

(١) ظهرت هذه الترجمة للمقال وانكسار الاشعة ولانواء فى امستردام سنة ١٦٤٤ وعنوان المقال كما يأتى =

Benati Descartes specimena philosophia. Dissertatio de Methodo rect- regendae rationis, and Veritatis in scientiis investigandae.

وهو منشور فى المجلد السادس من الأعمال الكاملة .

أثبت منها الكثير ووضعته بين قوسين هكذا (   ) ، وكذلك راجعت أثنــاء النقــل ، الترجمة الانكليزية للاستاذ فيتش Vietch (١) والترجمة الالمانية للدكتور بوشناو Buchenau (٢) ، أما التعليقات والكتب التى استفدت منها فهى مذكورة فى بيان المراجع والذى لم يرد وصفه فى هــذا البيان لقــلة وروده فى الكتاب وصفته عند ذكــره فى التعليقات أو فى النهــاية مع المراجع .

وانى أرجو من الله أن يوفقنى فى خدمة اللغــة والوطن بأن أنقل الى العربية ماأقدر على نقله من أهم ماكتبه أبطال الفلسفة الحديثة ؟

القاهرة فى : ١٤ شوال سنة ١٣٤٨
١٥ مارس سنة ١٩٣٠

محمود محمد الخضيرى

---

(١) Discourse on Method ومعها ترجمة لكتب أخرى لديكارت نشرت فى لندن وادنبرة عند William Blackwood وأولاده ، الطبعة السادسة عشرة ١٩٢٥ .

(٢) Abhandlung uber die Methode فى المجلد الأول من ترجمة أعمال ديكارت الفلسفية التى نشرها فى ليبزج . Felix meiner

مقال عن المنهج

لأحكام قيادة العقل وللبحث
عن الحقيقة فى العلوم ..

مقـدمة

اذا بدا هذا المقال طويلا جـدا بحيث لايقرأ كله دفعة واحـدة ، فمن المسـتطاع تقسيمه الى ستة أقسام : فى القسـم الأول أنظار فى العلوم مختلفة • وفى الثانى أصول القواعد للمنهج الذى بحث عنه المؤلف • وفى الثالث بعض قواعد الأخلاق التى استنبطها من ذلك المنهج • وفى الرابع الأدلة التى يثبت بها وجود الله والنفس الانسانية وهى أركان مذهبه فيما بعـد الطبيعة • وفى الخـامس ترتيب مسـائل الطبيعيات التى بحث فيها ، لاسيما تفسير حركة القلب وبعض معضلات أخرى تختص بالطب ثم التفرقة بين نفسـنا ونفس الحيـوان • وفى القسم الأخـير بيان الأمور التى يعتقد المؤلف بالحاجة اليها للسير بدراسة الطبيعة الى أبعد مما انتهت اليه ، وبيان الأسباب التى بعثته الى الكتابة •

القسم الأول

العقل (١) هو أحسن الأشياء توزعا بين الناس (بالتساوى) اذ يعتقد كل فرد أنه أوتى منه الكفاية ، حتى الذين لايسهل عليهم أن يقنعوا بحظهم من شىء غيره ، ليس من عادتهم الرغبة فى (٢) الزيادة لما لديهم منه . وليس براجح أن يخطىء الجميع فى ذلك ، بل الراجح أن يشهد هذا بأن قوة الاصابة فى الحكم ، وتمييز الحق من الباطل ، وهى فى الحقيقة التى تسمى بالعقل أو النطق ، تتساوى بين كل الناس بالفطرة ، وكذلك

---

(١) التعبير الفرنسوى الذى استعمله ديكارت هو Bon sens وقصد به القوة اللازمة لاجادة الحكم أى لتمييز الحق من الباطل فى النظرى والعملى . وللعقل عملان فكريان اساسيان وهما البداهة Intuition والقياس Déduction (راجع القاعدة الثالثة من القواعد لقيادة العقل (١) وهانكان : منهج ديكارت .

(٢) فى مجلة ما بعد الطبيعة وعرم الاخلاق نوفمبر سنة ١٩٠٦ ص ٧٦٠ وانظر فى مقدمتنا شرح معنى البداهة والقياس عند ديكارت) . ومما يجدر بالذكر أنه وجد بين أوراق ديكارت بعد وفاته كتيب عنوانه Studium bonae mentis أى درس العقل وقد نقل هذا العنوان الى الفرنسوية مترجم حياته بابيه BAILLET كما يأتى L'étude du bon sens ou de l'art de bien comprendre أى درس العقل أو فن أجادة الفهم . ويرجع أن تلك الكتابة كانت مشروع المقال عن المنهج (راجع عملان مذهب ديكارت (٣) ص ٣٦) .

يشهد بأن اختلاف آرائنا لاينشأ من أن البعض أعقل من البعض الآخر ، وانما ينشأ من أننا نوجه أفكارنا فى طرق مختلفة ، ولاينظر كل منا فى نفس ماينظر فيه الآخر لأنه لايكفى أن يكون للمرء عقل . بل المهم هو أن يحسن استخدامه • وان أكبر النفوس لمستعدة لأكبر الرذائل مثل استعدادها لأكبر الفضائل . والذين لايسيرون الا جد مبطئين يستطيعون حين يلزمون الطريق المستقيم أن يسبقوا كثيرا من يعدون ، ويبتعدون عنه •

أما أنا فلم أدع قط أن نفسى أكمل من نفوس الغير ، بل كثيرا ماتمنيت أن يكون لى من سرعة الفكر ، أو من وضوح الخيال وتميزه ، أو من سعة الذاكرة وحضورها ، مثل ما لبعض الناس • ولست أعرف فضائل غير هذه تعين على تكميل النفس : لأنى أميل الى الاعتقاد بأن النطق ، أو العقل ، مادام هو الشىء الوحيد الذى يجعلنا أناسا ويميزنا عن سائر الحيوان ، هو بأكمله فى كل انسان ، وانى أميل فى ذلك الى اتباع الرأى الشائع بين الفلاسفة الذين يقولون انه لا زيادة ولا نقصان الا فى الاعراض (١) ، ودون الصور

(١) جمع عرض وهو ما يتعلق بذات ما دون ان يلزمها فى تعريف ماهيتها

الجسمية (١) أو طبائع (٢) الافراد (٣) من نوع واحد (٤) ·

ولكنى لااخشى أن أقول ما أعتقده من أننى كنت كثير التوفيق ، اذ ألفيت نفسى منذ الحداثة (٥) فى بعض الطرق التى قادتنى الى أنظار وحكم ، ألفت منها منهجا ، به يبدو لى أن عندى وسيلة لزيادة معرفتى

---

(١) جمع صورة ويقصد بها ديكارت « مبدأ باتحاده مع المادة يتكون جسم طبيعى ويحل فى نوع معين » (جلسون فى تعليقه على المقال عن المنهج (٤) ص ٨٩)

(٢) جمع طبيعه ، وهى مبدأ أول وعلة لكل حركة وسكون دائمين للذى تكون فيه تلك الطبيعه (انظر تعريف أرسطو للطبيعه المقتبس فى تعليق (٤) جلسون ص ٩٠ وتعريف ابن سينا لها فى رسالة الحدود وهى فى مجموعة تسع رسائل فى الحكمه · وبتعريف أعم « هى القوة التى فى الشىء تتحرى بها كيفيات ذلك الشىء على ما هى عليه . وان أوجزت قلت هى قوة فى الشىء يوجد بها على ما هو عليه » ابن حزم . الفصل فى الملل والنحل ج ١ ص ١٥ طبعة القاهرة سنة ١٣١٧ ·

(٣) جمع فرد وهو ما لا تنطبق كل صفاته مجتمعة على غيره

(٤) يقصد ديكارت بالنوع هنا الكلى المقول على كثيرين مختلفين فى العدد دون الحقيقة فى جواب ما هو ، وذلك هو النوع الحقيقى ·

(٥) يقول باييه فى كتابه عن حياة ديكارت : انه صنع – وهو لا يزال فى كلية لافليش – منهجا غريبا للمناقشة الفلسفية ، وهذا المنهج – على حسب بسط المترجم له – هو منهج رياضى صرف ينحصر فى معالجة المسائل كما يفعل أصحاب الهندسه وذلك بتقديم البديهيات ثم الانتقال الى مبرهنات ثم ايراد البراهين · (راجع نص باييه المقتبس فى كتاب هملان مذهب ديكارت (٣) ص ٣٥) وهذه بعض محاولات ديكارت . قبل شتاء سنه ١٦١٩ . للبحث عن منهج للاختراع (انظر المقدمة) ·

بالتدريج ، وان أسمو بها قليلا الى أعلى درجة (١) يسمح ببلوغها مافى عقلى من ضعف ، وما فى مدى حياتى من قصر ، ذلك لأنى جنيت من ثمـرات ذلك المنهـج (٢) ماجعلنى أحاول دائما فى الأحكام التى أكونها عن نفسى أن أميل الى جهة الحذر ، أكثر من ميلى الى جهة الغرور ، ولما نظرت بعين الفيلسوف الى فعال الناس ومقاصدهم لم يكد يظهر لى أن شيئا منها عبث وعديم النفع ، على أن التقدم الذى أظننى تقدمته فى البحث عن الحقيقة ، قد بلغ بى غاية الرضا ومهد لى فى المستقبل آمالا تجعلنى أرى أنه اذا كان من مشاغل الناس من حيث هم ناس (٣) ماهو خير وذو خطر ، فلى أن أجرؤ على القول بأنه هـو العمل الذى تخيرته ٠

وعلى كل حال فقد أكون مخدوعا ، وقد لايكون الا

---

(١) كان العنوان الذى يريد ديكارت وضعه على المقال هو مشروع علم شامل يستطيع ان يرفع طبيعتنا الى أعلى درجة لها فى الكمال (راجـــع كتابه الى صديقه مرسن Meresenne فى مارس سنة ١٦٣٦ فى المجلد الأول من الاعمال الكاملة طبعة أدام وتانرى ص ٣٣٩) ٠

(٢) يقصد استكشافه للهندسة التحليلية وهى توفيق بين علمى الهندسة والجبر وكذلك اثباته وجود الله بالبراهين التى سيذكرها فى القسم الرابع وكذلك آراءه فى الطبيعيات وسيشير اليها فى القسم الخامس ٠

(٣) يقصد الأفراد العاديين الذين يهبهم الله قدرة فوق ما لغيرهم من بنى الانسان بحيث يتولون بالمعجزات ٠

قليلا من النحاس والزجـاج ذلك الذى أعتبره ذهبا وماسا • فاننى لأعلم مبلغ الخطأ الذى نحن عرضة له فيما يمسنا من الامور ، ومبلغ الحـذر الذى يجب أن تكون أحكام أصحابنا موضعا له ، عنـدما تكون فى مصلحتنا • (٤) ولكنى سأجتهد أن أبين فى هذا المقال، ماهى الطرق التى تبعتها ، وأن أمثل حياتى فيه كأنها فى لوح تصوير ، حتى يسـتطيع كل آن يحـكم فيها حكمه ، وحتى يكون علمى بمختلف الآراء فيهـا بما يصل الى من صدى ، وسيلة جديدة لتعليمى ، أضيفها الى ما اعتدت آن أستعين به من الوسائل •

واذن ليس غرضى آن أعلم المنهج الذى يجب على كل فرد اتباعه لكى يحكم قيادة عقله ، ولكن غرضى هو أن أبين على أى وجه حاولت أن أقود عقلى • وان الذين ينصبون أنفسهم لاسداء النصائح . يلزمهم أن يعتبروا أنفسهم أحذق ممن يسدونها اليهم ، واذا زلوا فى أدنى الأمور ، استحقوا الملام • ولكن ، لما لم يكن غرضى من هـذا الكتـاب الا آن أجعله تاريخا ، وان شئت فقل قصة ، قد يكون فيها أمثلة تحتـذى ، وقد تلقى فيهـا أيضا أمثلة غيرها كثيرة يحـق للمرء ألا يقتدى بها ، فانى آمـل آن يكون هـذا الكتاب نافعا

للبعض ، من غير أن يضر أحدا ، وان يرضى عنى الجميع لصراحتى ٠

غذيت بالآداب منذ طفولتى ، وآقنعت أنه مستطاع بواسطتها تحصيل علم بين يقينى بكل ماهو نافع فى الحياة ، فاشتدت رغبتى فى تعلمها ٠ ولكنى ماكدت أنتهى من تلك المرحلة من الدراســـة ، حيث كانت العادة قبول الانسان عند نهايتها فى مرتبة العلماء ، حتى غيرت رأيى كل التغيير ٠ ذلك بأننى وجدت نفسى يحيرنى من الشكوك والضلالات ، مابدا لى معه أننى لم أكتسب من اجتهــادى فى التعليم ، الا تبين شــيئا فشــيئا جهــالتى ٠ على أنى كنت مدرســة من أشــهر مدارس أوربا كنت أظن أنه يجب أن يكون فيها علماء. اذا كان فى أى موضع من الأرض علماء (١) ٠ ولقد تعلمت فيها كل ماكان يتعلم غيرى ، بل اننى لما لم أقنع بما كانوا يعلموننا من العلوم ، تصفحت كل ماوصل الى من كتب فى العلوم التى يعتبرونها أعجب العلوم

---

(١) يقصد مدرسة لافليش الملكية التى أسسها اليسوعيون فى عهــد هنرى الرابع عام ١٦٠٤ ٠ وديكارت ج ٢ ص ٣٧٨ ٠

وأندرها (١) وكنت أيضا أعرف مايحكم به الآخرون علي . ولم أشهد قط أنهم ينزلونني دون منزلة رفاقي مع أن بعضهم كان يعد لأن يشغل مناصب أساتذتنا . ثم انه كان يخيل الى أن عصرنا في ازدهاره وفي خصبه بالعقول القوية ، لايقل عن أى عصر من العصور السالفة . وهذا أورثني حرية في أن أحكم بنفسي في كل من عداي وان أرى أن ليس في الدنيا من العلم ماينطبق على ماكنت قد صيرت من قبل الى القصد اليه (٢) .

وعلى كل حال فانني ماغمطت حق مايشتغلون به في المدارس من الدروس واني لأعلم أن اللغات التي تعلم فيها لازمة لفهم الكتب القديمة وأن طلاوة القصص توقظ النفس ، وأن حوادث التاريخ المذكورة تسمو بها . واذا قرئت بتمحيص فانها تعين على تكوين الحكم (٣) ، وأن قراءة كل الكتب الجيدة هي كمحاضرة

---

(١) يعني بالعلوم العجيبة السحر وأحكام النجوم والكيمياء (كما كانت قديما) وغيرها من العلوم التي لا يطلع على خفاياها الا القليل ويعني بالعلوم النادرة ماعز على العامة مناله .

(٢) يقصد بذلك « أن عدم كفاية العلم الذي تلقيته هو السبب الوحيد في ضلالي اذ لا يمكن تعليله بنقص في المدرسة التي تعلمت فيها ولا في أساتذتي ولا في نفسي ولا في زماني » (تعليق ٤ جلسون ص ١١٠) .

(٣) يقصد بالحكم القوة اللازمة لتمييز الحق من الباطل (انظر التأملات الرابعة (١٢)) .

مؤلفيها الذين هم خير أهل القـرون الماضية بل هى محاضرة معتنى بها ، لايكشفون لنا فيها الا عن صفوة أفكارهم وأن للبلاغة قوة وجمالا لايضارعان ٠ وأن للشـعر رقـة وحـلاوة رائعتين جـدا وأن فى (٦) الرياضيات اختراعات جد دقيقة ، وتفيـد كثيرا فى ارضـاء النفوس المتطلعة وفى تسـهيل كل الفنون ، وتوفير جهد الناس ، وأن الكتب الباحثة فى الاخلاق تشتمل على كثير من التعاليم وعلى مواعظ كثيرة تدعو الى الفضيلة وهى مفيدة جدا ، وأن علم أصول الدين يهدى الى طريق الجنة ، وأن الفلسفة تعطينا وسـيلة للقـول فى كل شىء بمـا هو أدنى للحـق ، ولكسب الاعجاب ممن أقل منا علما (١) ، وأن التشريع (٢) . والطب والعلوم الأخرى تأتى بالجـاه والثروة للذين يتعلمونها ، وأخيرا فمن الخير أن نخبرها جميعا حتى أكثرها خرافة وبطلانا ، لنعرف قيمتها بالعدل ونحذر الخديعة فيها ٠

---

(١) يقصد بالفلسفة فلسفة العصور الوسطى وهو يسوق قوله تهكما [illegible]

(٢) يعنى علوم القوانين والحقوق ـ وقد كان ديكارت طالبا فى الحقوق [illegible] بواتييه ولبث فيها سنتين من سنة ١٦١٤ الى سنة ١٦١٦ ونال منها أجازة القانون المدنى والدينى فى ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٦ ٠ راجع شارل آدام حياة ديكارت ص ٤٠ مذكرة أ ٠

ولكنى كنت أعتقـد أننى أنفقت الكفـاية من الوقت فى اللغات . بل وفى قراءة الكتب القديمة ، وأيضا مافيها من تواريخ وقصص : فان محاضرة أهل العصور الأخرى تكاد تكون كالسفر ، وانه لمفيد أن نعرف شـيئا عن أخـلاق الأمم المختلفة ، حتى يكون حكمنا على أخلاقنا أصح ، وحتى لانظن أن كل ماخالف عاداتنا هو سخرية ومخالف للعقل ، كما هو دأب الذين لم يـرو شـيئا (١) ولكن اذا أسرف المـرء فى صرف الوقت فى السفر فانه ينتهى الى أن يصير غريبا فى بلده ، ومن أسرف فى التطلع الى ماكان يحـدث فى العصور (٢) الخالية ظل فى العادة شديد الجهـل بما يقع فى زمانه • وفوق ذلك فان القصص تجعلنا نتخيل ممكنا ما ليس ممكنا من الحـوادث ، بل وان أصـدق التواريخ اذا لم يغير من قيمة الأشياء ولم يزدها ، كى يجعلها أجدر بأن تقـرأ ، فانه على الأقـل يكاد يهمل دائما أدنى الظروف شأنا وأقلها شهرة : ومن ثم فان مايبقى لايبـدو كما هـو ، والذين يتخـذون مما يستنبطونه منها أسوة لأخلاقهم يكونون عرضة للوقوع فى الغلو الذى وقع فيه فرسان قصصنا ، وللتطلع الى مافوق طاقتهم •

---

(١) يقصد الذين لا تتجاوز معارفهم حدود بلادهم •

كنت عظيم التقدير للبلاغة ،وكنت مولعا بالشعر ، ولكنى رأيت أن كليهما أقرب الى أن يكون من المواهب النفسية ، لا من ثمرات الدرس (١) والذين لهم الحجة البالغة ، الذين يرتبون أفكارهم على أحسن وجه ، كى يجعلوها جلية ومفهومة ، يقدرون دائما على الاقناع بما يرون ، ولو كانوا لايتكلمون الا بكلام العامة ، ولم يتعلموا قط علم الخطابة • والذين لهم الأخيلة الرائعة ، ويعرفون كيف يعبرون عنها بأحسن المجازات وأحلى الأساليب ، هم خيرة الشعراء ، وان كان فن الشعر مجهولا لديهم •

كانت تعجبنى الرياضيات على الخصوص ، وذلك لما فى براهينها من الوثاقة والوضوح ، ولكنى لم أكن ألحظ فائدتها الحقيقية ، الا فى الصناعات

---

(١) هذه فكرة عزيزة لدى ديكارت وهو يأخذ بها منذ سنة ١٦١٩ (راجع المقدمة التعليق على ختام الجزء الأول وأرجح أنها ترجع الى سقراط الذى يقول « ان انتاج الشعراء يرجع الفضل فيه ، لا الى علمهم ، ولكن الى هبة طبيعية ، أو الى الهام الهى شبيه بالهام الأنبياء والعرافين » أفلاطون دفاع سقراط ص ٢٢ (أعمال أفلاطون فى مجموعة الجامعات الفرنسية المجلد الأول ص ١٤٦ ـ ١٤٧) • ويقول سقراط فى نفس الصفحة انه طلب الى بعض الشعراء تفسير بعض شعرهم فكانوا لا يفهمونه جيدا • ويأخذ أفلاطون بنفس الفكرة فى حواريه فيدر ويون ويقول أن شعر الشعراء وحى من آلهة الشعر انهم ينشدونه دون تمام فهمه •

الميكانيكية (١) كنت أعجب أن تكون أسسها البالغة في متانتها وقوتها لم يشيد فوقها بناء أسمى ، وبالعكس فانني كنت أشبه كتابات القدماء (في الجاهلية) (٢) الباحثة في الأخلاق بقصور جد رائعة وفخمة ، لم تشيد الافوق (٨) الرمل والطين · وانهم ليرفعون الفضائل الى أعلى أوجها ، ويظهرونها أحق بالاجلال من كل شيء في العالم ، ولكنهم لايرشدوننا الى تعرفها ارشادا كافيا ، وكثيرا مايكون الذى يدعونه بأجمل الاسماء ، انما هو فقد العواطف والاحساس (٣) أو الكبرياء (٤) أو اليأس (٥) أو قتل القريب (٦) ·

---

(١) كان يهتم في عصر ديكارت بتعليم الرياضيات لتطبيقها في الأعمال مثل مساحة الأراضي وهندسة ميادين الحرب وفي المقاييس والموازين المختلفة وفي استعمال الآلات الصناعية وغير ذلك ·

(٢) في النص الفرنسي Les anciens paiens ويقصد بهم كتاب ما قبل المسيحية · ويظهر من الجملة التالية انه لا يقصد غير الرواقيين لأن الذى يذكره وينكره من الاخلاق هو من تعاليم بعضهم ·

(٣) كان الرواقيون يدعون الى الا يكون للأهواء العواطف اى تأثير على الحكيم كما انه يجب ان يتحمل كل الآلات الحسية دون الاهتمام بها ·

(٤) كان الرواقيون يرفعون رتبة الحكيم فوق كل رتبة ويساوونه بالاله ·

(٥) وكان بعضهم يبيح الانتحار ، اذا اقتنع المرء باليأس من هناءة الحياة ، فيكون الموت في زعمهم خلاصا من الآلام ·

(٦) في النص الفرنسي parricide ومعناها الآن قتل الاب ولكنها في زمن ديكارت كانت تفيد قتل القريب على العموم ، ويحتمل انه يشير الى قتل بروتس لقيصر ، وقول الثاني للاول عندما تلقى منه الطعنة القاتلة « وانت أيضا ، يابني Tu quoque fili mi » ·

وكنت أجل علومنــا الدينية ، وأطمع كغيرى فى الجنة ، ولكن لما علمت علمــا مؤكدا أن الطــريق اليها ليس ممهدا لأجهل الجهــلاء أقل مما هــو ممهــد لأعلم العلماء (١) ، وان الحقائق الموحى بها ، والتى تهدى الى الجنة هى فوق فهمنا ، لم يكن لى أن أجرؤ على أن أسلمها لضعف استدلالاتى ورأيت أن محاولة امتحانها امتحانا موفقا تحتاج لأن يمد الانسان من السماء بمدد غير عادى وأن يكون فوق مرتبة البشر (٢) ٠

ولن أقول عن الفلسفة ، الا أنه لما رأيت أن الذين كانوا يتدارسونها هم خيرة العقلاء ، ممن عاشوا منذ عصور كثيرة ، ومع ذلك ليس فيها بعد أمر لايجادل فيه، أى ليس مشكوكا فيه ، فاننى لم أكن قط من الغــرور

---

(١) الوصول الى الجنة يكون بالايمان والايمان ليس من عمل العقل (راجع التعليقة التالية) ٠

(٢) يقصد بالمدد غير العادى الوحى الذى يفيضه الله على بعض الناس ممن يختصهم ، وهم بذلك يرتفعون فوق مستوى الانســانية العادى ٠ ولقد أحصــى ديكارت أربعة اصول للعلم كما كان فى زمانة وهى ١ ــ الافكار الجلية بذاتها التى تحصل بدون تفكير ٢ ــ ما يحصل بواسطة الحواس ٣ ــ معاشرة الناس ٤ ــ قراءة الكتب الجيدة ٠ ثم يقول كلها لا تكسب الا بتلك الوسائل الاربع أما الوحى الالهى فانه لا يوصلنا الى العلم بالتدريج . شأن تلك الطرق . بل يسمو بنا مرة واحدة الىعقيدة معصومة من الخطأ (راجع رسالتة الى من ترجم الفرنسية كتابه مبادىء الفلسفة)

بحيث آمل أن أنال فيها من التوفيق خيرا من الآخرين ، ولما تأملت ما قد يكون في المسألة الواحـدة ، من آراء مختلفة ، يؤيدها رجال علماء ، على أن الحق فيها لايكون الا واحدا ، فانني اعتبرت كل ماليس الا راجحا يكاد يكون باطلا (١) ٠

أما العلوم الأخرى التى كانت تأخذ أصولها من الفلسفة ، فقد كان حكمى فيها أنه لايستطاع اقامة بناء قوى على قواعد ليست على (٩) شيء من المتـانة ٠ ولم يكن ماتغرى به من الجاه والكسب (٢) بكاف ليبعثنى على تحصيلها ، فانني لم آكن آشعر ، بفضل من الله ، انني في حالة تضطرني الى أن أجعـل من العلم صنعة لتحسـين رزقي ومـع أنه لم يكن من دأبى أن أكـون كلبيا (٣) يحتقر المجد فانني مع ذلك لم آكن أعبأ الا

---

(١) يقصد ما لايعتمد فى اثباته على البرهان الصحيح الذى يوقع اليقين ، وانما يعتمد على القياس الجدلى الذى يوقع تصديقا شبيها باليقين ٠

(٣) يشير الى الجاه الذى ينتج عن درس الفقه والقوانين ، والى الكسب الذى ينتج عن درس الطب

(٢) أى من اتباع المذهب الكلبى ، نسبة الى ديوجينيس الكلبي ، ويرجح الاستاذ جلسون أن تكون فى تلك العبارة اشارة الى جواب ديوجينيس نفسـه الى الاسكندر المقدونى « الذى أريده منك ، هو أن تنحـرف كيـلا تمنع عنى الشمس » (انظر التعليق (٤) ص ١٤٠) ٠

قليـلا بمجـد لم آكن لآمـل قـدرة عـلى تحصـيله الا بالباطل (١) ٠

أما العلوم الباطلة ، فلقد كنت أعتقد انني بلغت من عرفان قيمتها حدا لاأكون معه عرضة للخديعة بوعود الكيماوى أو بتكهنات المنجم ، ولا بتضليلات الساحر ، ولا بالتصنع أو الزهو ممن ديدنهم أن يظهروا بأكثر مما يعلمون ٠

من أجل هـذا فانني ماكدت أن تسـمح لى السن بالتحلل من ربقة معلمى حتى هجرت كل الهجر دراسة الآداب ٠ واذ صممت على آلا آلتمس علما الا ماشتملت عليه نفسى (٢) أو ماكان فى الكتاب الكبير ، كتـاب

---

(١) يشرح النص اللاتينى ذلك بما زاد فيه على الاصل الفرنسى وهو « اى نظرا لما فى هذه العلوم من معارف غير صحيحة » (أعمال ديكارت ج١ ص ٩؛د (٠

(٢) فى ذلك يظهر ديكارت اعتقاده بعدم كفاية العلم الذى كان موجودا فى زمنه فى الكتب ، وعلى ذلك فهو يبحث عن طريقة أخرى لاستكشاف علم جديد . وهنا يرى أن تلك الطريقة هى فى التفكير بعقله الحر المستقبل ، لأنه كان يعتقد أن بذور العلوم كائنة فينا ، وان الحقيقة تثوى فى نفوسنا كما تثوى النار فى حجر الصوان ٠ ولعله كان يريد بذلك تقليد الشعراء الذين يعتمدون على الاختراع، أى على استخراج الحقائق من عقولهم ، وفى ذلك ينحصر فضـل الشعر أكثر من اعتمادهم على تحصيل مادة أشعارهم من الكتب ، أو من محاضرة غيرهم ٠ (راجع ميلو Milaud أزمة صوفية عند ديكارت عام ١٦١٩ (٩) فى مجلة ما بعـد الطبيعة والأخلاق المجلد الثـالث والعشرين ج ٤ ص ٦٠٧ ــ ٦٢١) وارجح أن ديكارت عزم على ذلك عام ١٦١٦ بعد انتهائه من درس الحقوق فى جامعة بواتيه وقبل ابتدائه فى الرحلات كما يظهر من النص ٠

العالم ، فاننى أنفقت بقيــة شبابى فى الســفر ، وأن أتصل بقصــور وبجيــوش وأغشى أناســا من مختلف الامزجة والدرجات ، وفى جمع التجارب المختلفة ، وأن ابتلى نفسى فيما ساق الى الحظ من مصادفات ، وأن أفكر أينمــا كنت فى الامــور التى كانت تعرض لى تفكيرا يمكننى من أن أستخلص منها فائدة ٠ فقد كان يبدو لى أننى أستطيع أن أجد من الحقائق ، فى التفكير الذى يفكره كل انسان فى الامور التى تهمه ، والتى سرعان ماتؤذيه (١٠) عاقبتها ، ان كان قد أخطأ فى الحكم ، مالايوجد فى تفكيرات أحد النظار من رجال الآداب وهو بين جدران حجرته فيما يمس أمورا نظرية ليس لها فى الخــارج أثر (١) ، ولاتكون له منها نتيجة ، الا ما قد يدركه من غرور بها على مقــدار بعــدها عن العقل ، بسبب مابذل من الفكر والحيلة كى يجعلها شبيهة بالحق، وكانت رغبتى شديدة دائما فى أن أتعلم كيف أميز الحق من الباطل ، كى أكون على بصيرة فى أعمالى ولكى أسير على هدى فى حياتى ٠

فى الحق أنى حينما كان جهــدى مقصــورا على

---

(١) فى ذلك يهاجم ديكارت طرق التفكير فى العصور الوسطى . ويتهكم على عقم الجدل الذى كان يقتصر عليه العلماء ٠

ملاحظة أخلاق الناس فانى لم أجد فيها موضعا ليقين ، ولحظت فيها من التباين نحو مالحظته من قبل فى آراء الفلاسفة . وقد كان أكبر ماحصلته من فوائدها ، اننى لما رأيت أمورا كثيرة ، تبدو لنا من الشطط والسخرية، ومع ذلك فان أممــا عظيمة تجمع على قبولها والرضاء عنها ، فاننى تعلمت ألا أعتقد اعتقادا جازما فى شيء ما يحكم التقليد أو العادة وكذلك تخلصت شيئا فشيئا من كثير من الأوهام ، التى تستطيع أن تخمد فينا النور الفطرى (١) وتنقص من قدرتنــا على التعقل . ولكن بعد أن أنفقت بعض السنين فى الدرس على تلك الحال فى كتاب العالم ، وفى الاجتهــاد فى تحصــيل بعض التجربة ، فاننى عزمت فى بعض الأيام أن أبحث أيضا فى نفسى وأن أصرف قواى العقلية كلهــا فى اختيار

(١) يقوم ديكارت فى مبادىء الفلسفة (٦) فى الفقرة الثلاثين من الجزء الأول « وينتج من ذلك أن ملكة المعرفة التى وهبها الله لنا . والتى نسميها بالنور الفطرى . لا تتصور مطلقا أى شيء مالم يكن حقيقيا من حيث هى تتصوره . ى مادامت تعامله بوضوح وتميز ، الخ » . وكذلك أن لديكارت حوارا وهذا عنوانه الطويل « البحث عن الحقيقة بواسطة النور الفطرى . الذى يعين وهو خالص وحده . وبدون أن يستعين بالدين أو بالفلسفة . الآراء التى يجب أن يراعا رجل شريف فيما يختص بكل الامور التى تشغل فكره . وينفذ الى أسرار أعيب العلوم (٧) » ويشار اليه للايجاز بالبحث عن الحقيقة فقط .

الطرق التى يجب أن أسلكها (١) وقد لقيت فى هذا على مايبدو لى نجاحا لم اكن لألقاه لو أننى لم أفارق (١١) قط بلادى ولا كتبى ٠

---

(١) سيساعد ما يلى ذلك ، أى مطلع القسم الثانى ، على تعيين ذلك الوقت الذى عزم فيه ديكارت ذلك العزم ٠ ويتفق الشراح على أن هذا كان فى يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ . والاعتماد فى ذلك على قول ديكارت فى رسالة أوليمبيكا (١) وهى من كتابات ديكارت بالقرب من ذلك التاريخ وقد طبعت فى المجلد العاشر فى مطبوعة أدام وتانرى) أنه وجد فى ذلك اليوم قواعد علم عجيب Mirabilis scientiae fundamenta على أن هناك خلافا فى تقدير ذلك الاستكشاف والرأى الذى نأخذ به أنه استكشف يومئذ منهجه بأكمله ، اذ ليس عند ديكارت الا منهج واحد وكل ما استكشفه فى علوم الطبيعة وما بعد الطبيعة والرياضة لم يكن الا نتيجة لتطبيق منهجه . والأستاذ آدم يرى أن فى ذلك اليوم اهتدى ديكارت الى بعض استكشافاته الرياضية المهمة على أنه لا يعين ذلك الاستكشاف كما أنه لا يجزم برأيه (راجع أعمال ديكارت ج ١٢ ص ٥٠) ٠ أما الأستاذ ميلو فيرى أن كل تلك الآراء باطلة وأن ديكارت اهتدى فى ذلك اليوم الى وجوب العدول عن كتب الأقدمين والاقتصار فى البحث عن الحقيقة « التى توجد فى نفوسنا بذورها كما يوجد شرر النار فى حجر الصوان » على الاستعانة بالنور الفطرى ، أو بالالهام الذى يشبه الهام الشعراء أو بالبداهة ٠ (راجع مقالة أزمة صوفية عند ديكارت عام ١٦١٩ ٠ ولكنا رأينا فيما سبق أن ديكارت عزم على العزم الذى يتصوره الأستاذ ميلو عام ١٦١٦ بعد انتهائه من المدارس وقبل بدئه فى الرحلات . واذن فلابد أنه بعد رحلاته قد اهتدى الى شىء آخر كما يتبين من كلامه فى آخر القسم الأول ، وعلى ذلك يبطل قول ميلو (راجع تفصيل ذلك فى المقدمة) ٠

القسم الثانى

كنت اذ ذاك فى ألمانيا ، عندما استدعتنى الحروب التى لم تنته فيها بعد ، ولما كنت فى عودتى من تتويج الامبراطور (١) الى الجيش ، ألجأنى بدء الشتاء الى قرية (٢) ، ولم أجد فيها شيئا من السمر ملهيا ، على أنه لم يكن عندى ، لحسن الحظ ، مايقلقنى من هم أو هوى ، وكنت ألبث اليوم كله وحدى فى حجرة دافئة ، حيث كانت لى كل الفرصة لتوجيه همتى للفكر . وكان من أول مافكرت فيه أننى لاحظت أنه كثيرا ماتكون الأعمال المؤلفة من أجزاء كثيرة ، صنعتها أيدى حذاق مختلفين ، ليس فيها من الكمال مثل ما فى الأعمال التى

---

(١) المقصود بالحروب حروب الثلاثين عاما التى انتهت بمعاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨ والامبراطور هو فرديناند الثانى الذى توج قيصرا فى عام ٩ سبتمبر سنة ١٦١٩ (راجع كينو فيشر Kuno Fischer حياة ديكارت وعمله ومذهبه ص ١٧٤ وما يليها من الطبعة الخامسة ، هيدلبرج سنة ١٩١٢ .

(٢) نزل ديكارت أولا فى أولم Ulm حيث زار الرياضى فاولهابر Faulhaber وبقى هناك بضعة شهور . ولكن عزلته الحقيقية كانت فى نيوبرج Neuburg والمدينتان على نهر الدانوب (راجع فيشر الكتاب المذكور ص ١٧٥) .

صنعها واحد ، كذلك نرى المبانى التى بدأها مهندس
واحد وأتمها هى فى العادة أجمل منظرا وأحسن نظاما
من تلك التى اجتهــد فى ترقيعهــا الكثيرون ، وذلك
باستخدام جدر قديمة بنيت من قبل لغايات آخرى كما
فى تلك المدن العتيقة ، التى لم تكن فى البدء الا قرى،
ثم اصبحت بتعاقب الزمان ، مــدنا كبيرة ، فانهــا فى
العادة قبيحة التأليف اذا قورنت بالمدن المنظمة ، التى
يخططها مهندس واحد وهو حــر فى براح خال . ومع
أننا اذا نظرنا الى عماراتها كل على حدة ، فكثيرا مانجد
فيها من الفن مثل ما فى عمارات المدن الأخرى أو أكثر ،
ثم اذا راينا كيف نظمت ، نجدها هنا بنــاء عظيما ،
وهناك بناء صغير ، على وجه يجعل الطرق معوجة وغير
متساوية ، فسوف نقول ان الأقرب أنه الحظ ــ لا ارادة
أناس (١٢) تصرفوا بعقولهم ــ هو الذى وضعها كذلك،
وعلى كل حال اذا لاحظنا أنه كان يوجد دائما من العمال
من يوكل اليهم ملاحظــة أن يكون فى المبــانى الخاصة
مستمتع للجمهور ، عرفنا أنه من العسير أن نقوم بأعمال
كاملة مادام كل عملنا هو تكميل عمل الغير . وكذلك
ظننت أن الأمم التى كانت فى زمن من الازمنة نصف
متوحشة ، ولم تأخــذ بالمدنية الا قليلا قليلا ، لم تسن
قوانينها الا حسبما كانت تضطرها اليه أضرار الجرائم

والمنازعات ، هذه الامم لاتكون حاصلة على نظام يبلغ من الاحكام مبلغ ماعنــد الامم منــذ بدء أجتماعها ، قد اتبعت شرائع مشرع حكيم • كذلك يكون جد يقين أن هيكل الدين الصحيح ، الذى شرع الله وحده أحكامه، يجب أن يكون خيرا فى النظام من كل ماعداه الى الحد الذى لايبارى • واذا تحدثنا عن الشئون الانسانية فانى أعتقد أنه اذا كانت اسبرطة قديما ذات مجــد زاهر ، فليس السبب فى ذلك صلاح كل قانون من قوانينها على حده ، لان كثيرا منها كان شــديد الشــذوذ ، بل كان مخالفا للأخــلاق الطيبة ، ولكن السبب أنه لمــا كان مبدعها شخصا واحــدا ، فقــد كانت جميعا ترمى الى غاية واحدة • وكذلك فقد رأيت أن علوم الكتب وعلى الأقل ماكان منها حججه ليست الا جدلية (١) ، وليس له برهان ، فانها لما كانت قد آلفت وزيد فيها قليلا قليلا من آراء رجال كثيرين مختلفين فانها ليست قريبة من الحقيقة قرب الاستدلالات البسيطة التى يكونها بالفطرة رجل عاقل فيما يعرض من الأمور • وكذلك رأيت أيضا أنه نظرا لأننا كنا جميعا أطفالا قبل أن نصير رجالا ،

(١) أى العلوم التى تعتمــد على الجدل ، وهو ما كان يغلب على استدلالات المشتغلين بالفلسفة فى العصور الوسطى • وهذه العلوم لا تصل بتلك الأقيسة الى مراتب اليقين مثل علوم الرياضة •

وأنه كان يلزمنا فى زمن طويل أن نظل تحكمنا أهواؤنا ومعلمونا ، وكان أحدهما فى الغالب يناقض الآخر . وربما لم يكن كلاهما لينصحنا دائما أحسن النصائح ، فانه يكاد يكون مستحيلا أن تخلص أحكامنا ، أو أن تكون قوية كما كانت تكون ، لو أننا استعملنا عقلنا تمام الاستعمال منذ ميلادنا ، ولم نسير قط الا بواسطته .

وفى الحق انا لا نشاهد أن بيوت مدينة تهدم جميعها لغير غرض الا أن يعاد بناؤها على نظام آخر ، وأن تجعل طرقها موفورة الجمال ولكن المشاهد غالبا أن كثيرين يهدمون بيوتهم ليعيدوا بناءها ، بل يضطرون أحيانا الى ذلك عندما تكون من نفسها على خطر السقوط ، وعندما تكون قواعدها غير ثابتة . وقياسا على ذلك أيقنت أنه غير معقول فى الحقيقة أن يضع بعض الناس خطة لاصلاح دولة بتغيير كل شىء فيها بادئا بالأسس ، وأن يقلبها رأسا على عقب ليقومها ، أو أن يصلح أيضا مجموعة العلوم ، أو النظام المقرر فى المدارس لتعليمها ، ولكن فيما يختص بكل الآراء التى قبلتها واعتقدت بها حتى يومئذ فانى لم أكن لأقدر على خير من انتزاعها جملة واحدة من اعتقادى ، وذلك لكى أحل

محلها فيما بعد ، اما أغيرهـا خيرا منها ، أو أعيدهـا نفسها بعد أن اكون قد سويتها بميزان (١٤) العقل ٠ ولقد رسخ فى اعتقادى اننى أكون بهذه الوسيلة أكثر توفيقا فى سيـاسة حياتى مما لو لم أبن الا على أسـس عتيقة ، ولم أعتمد الا على مبادىء استسلمت للاذعان لها فى شبابى دون أن أختبر قط ان كانت صـادقة ٠ فانى وان عرفت فى ذلك شتى المصاعب ، فهى مع ذلك لم تكن لا تداوى ، ولم تكن أيضا لتقارن بالمصاعب التى تقوم عند اصلاح ما يمس الجمهور من أحقر الامور ، ان هذه الاجسـام الهائلة لعسـير رفعها اذا هوت ، أو المحافظة عليها اذا تزعزعت ، وسـقوطها لا يكـون الا مروعا ٠

أما ما فى نظم الدول من عيوب ، ان كان فى نظمها عيوب ، (وان الخـلاف بينها ليكفى لاثبات وجـود فى الكثير منها) فـان التطبيق قد لطفها كثيرا بلا ريب ، بل هو جنب من عيوبها وتلافى منها رويدا رويدا مالم يكن مستطاعا بالحكمة ٠ وأخيرا ، فان تلك العيوب تكاد تحتمل دائما أكثر مما يحتمل تغييرها : كما أن الطرق الكبيرة ، التى تتلوى بين الجبال ، تصبح قليلا قليلا سهلة وممهدة ، وذلك لكثرة التردد عليها ، وخير أن يتبعها

السائر من أن يذهب فى طريق أكثر استقامة متسلقا
فوق الصخور منحدرا الى بطون الوهاد .

من أجل هذا لم أكن لأقر فى شىء تلك الأمزجة المرتبكة القلقة التى لم يدعها نسب ولا مكانة لادارة الشئون العامة ، وهى (١٥) لاتبرح تعمل الفكر فى وضع خطط جديدة للاصلاح . ولو انه تبادر الى ذهنى أن فى هذه الكتابة أقل مايمكن أن أتهم معه بذلك الجنون ، لندمت كثيرا على السماح بنشرها . فان مطلبى لم يتجاوز قط الاجتهاد فى اصلاح أفكارى الخاصة ، وأن أبنى على أساس كله ملك لى . واذا كان عملى قد بلغ بى من الرضاء ماجعلنى أشهدكم هنا انموذجا منه (١)، فما كنت لهذا أريد أن أنصح أحدا بتقليده . وربما كان للذين ميزهم الله فى تقسيم فضله مقاصد أسمى، ولكننى أخاف كثيرا ألا يكون هذا العمل بالنسبة لكثيرين الا شططا فى الاقدام . ليس مجرد العزم وحده على التخلص من كل الآراء التى اعتقد بها المرء من قبل ، مثالا يجب على كل فرد أن يحتذيه ، ويكاد الناس بالنسبة لعقولهم ألا يكونوا الا صنفين وذلك لايصلح فى شىء لكليهما .

---

(١) لأن المقال هو فى الحقيقة أنموذج لعمل ديكارت بأكمله .

هـذان الصـنفان هم أولا الذين لاعتقادهم فى أنفسهم من الحذق فوق مالهم لايسـتطيعون أن يمنعوا أنفسهم من التهور فى أحكامهم (١) ، ولايملكون من الصبر مايستطيعون به سياسة أفكارهم كلها بنظام ، ومن ثم فانهم اذا اتخذوا حرية الشك فى المبادىء التى تلقوها ، والابتعـاد عن الطـريق العـام ، فانهم لن يقدروا على ملازمة الصراط الذى يجب سلوكه للسـير الأقوم ، وسيظلون فى ضلال كل حياتهم ٠

ثم آخرون اوتوا حظا من العقل ، أو من التواضع، كى يحكموا بأنهم أقل قدرة على تمييز الحق من الباطل من أناس يصلحون أن يكونوا لهم معلمين ، فهم أولى بأن يقنعوا باتباع آراء هؤلاء من أن يبحثوا بأنفسهم عمـا هو أحسن ٠

أما أنا فلقد كنت أكون بلاشك فى عـداد هؤلاء الاخيرين لو (١٦) لم يكن لى الا أستاذ واحد ، أو لم أكن عرفت الخـلاف الذى كان فى كل زمان بين آراء أكبر العلماء ٠ ولكننى لما كنت قد تعلمت ،منذ أيام المدرسة، أنه لايمكن أن نتخيل أمرا مهما بلغ من الشذوذ والبعد

---

(١) التهور هو أحد مصادر الخطأ عند ديكارت ، وهو ينحصر فى الجزم بالحكم قبل تبين اليقين فيه أى فى التهافت الى المطالب قبل تحقيق المقدمات ٠

عن التصديق ، الا وقد قال به أحد الفلاسفة (١) . ثم اننى عرفت فى رحلاتى أن كل الذين لهم عواطف مخالفة لعواطفنا كل المخـالفة ، ليسوا من أجل هـذا برابرة ولا متوحشين ، ولكن الكثيرين منهم يستخدمون العقل مثلنا أو أكثر منا . ولما تأملت فى أن الرجـل نفسه ، بنفس عقله ، اذا نشأ منذ طفولته بين فرنسـويين أو ألمانيين ، فانه يصبح مختلفا عمـا كان يكون ، لو أنه عاش دائما بين صينيين أو كانيباليين (٢) ، وكيف ان الشيء الواحد حتى فى أزياء الملابس ، الذى أعجبنا منذ عشر سنين ، والذى ربما يعجبنا أيضا قبل أن تمضى عشر سنين ، يبدو لنا الآن شاذا ومضحكا : بحيث تكون العادة والتقليد هما اللذان يؤثران فى آرائنا أكثر من أى علم يقينى ، وعلى كل حال فان موافقة الكثرة ليست دليلا ذا شأن على الحقائق التى يتعسر كشفها ، فانه أقرب الى الاحتمال أن يجدها رجل واحد من أن تجـدها أمة بأسرها : واذن فلم أكن لأستطيع أن أختار رجلا (٣)

---

(١) كلمة مشهورة لشيشرون هذه ترجمة نصها اللاتينى « لا يوجد قول مخالف للعقل لم يقل به من قبل بعض الفلاسفة » (راجع جلسون التعليق على المقـال ص ١٧٨) .

(٢) Des Cannibales هم أكلة اللحـوم البشرية ، وفى النص اللاتينى استبدلت بها كلمة أمريكيين Americanos والمقصود بالطبـع سكان أمريكا الأصليون قبل الفتح الأوربى .

(٣) أى من مؤسسى المذاهب الفلسفية من اليونان القدماء .

كانت تبدو لى أفكاره واجبة التفضيل على آراء الآخرين، ووجدتنى كأننى مضطر الى أن أتولى بنفسى توجيه نفسى ·

ولكن ، كان مثلى كمثل رجل يسير وحده فى الظلمات ، (١٧) فصممت على أن أسير الهوينى ، وأن أستعين بكثير من الاحتياط فى كل الأمور ، فلو لم أتقدم الا قليلا جدا ، كنت على الأقل قد سلمت من الزلل · حتى ولم أشأ البتة أن أبدأ بأن أنبذ جملة أى رأى من الآراء التى قد تكون استطاعت فى بعض الأوقات أن تتسرب الى اعتقادى ، دون أن يقودها اليه العقل ، من قبل أن أكون قد صرفت مايكفى من الزمن لوضع مشروع للعمل الذى أتولاه ، ولأن أتحرى المنهج الحق للوصول الى معرفة كل الأمور التى يكون عقلى أهلا لها ·

ولما كنت أحدث سنا (١) ، اشتغلت قليلا بالمنطق من بين أقسام الفلسفة ، وبالتحليل الهندسى (٢) والجبر

---

(١) المرجح أنه يقصد زمان وجوده فى مدرسة لافليش . لأن النص الذى يسبق هذا مباشرة يوضح لنا أن ديكارت كان يتكلم عن أوائل عهده باستكشاف المنهج اى عام ١٦١٩ . واذن فعندما يقول « لما كنت أحدث سنا » فهو يعنى ما قبل ذلك التاريخ · ثم أنه سيأخذ فى نقد الفلسفة والرياضيات التى كانت تعلم المدارس . ومنها مدارس اليسوعيين التى كان هو فى احداها ·

(٢) ينحصر التحليل باعتباره جزءا من علم الهندسة . لا كمنهج للاستدلال والبرهان ، فى حل المسائل بتحويلها جزئيا الى مسائل أخرى أبسط وأعم . فمثلا =

من بين أقسام الرياضيات ، وهى ثلاثة فنون أو علوم كان يبدو لى أنها لابد أن تمد مشروعى بشىء ولكننى ، عند امتحانها تبينت ، فيما يختص بالمنطق أن أقيسته وأكثر تعليماته الأخرى هى أدنى أن تنفع فى أن نشرح

: لايجاد النقطة المتساوية البعد عن ثلاث نقط ، فانه يجب أن تكون تلك النقطة أولا متساوية فى البعد عن نقطتين . أى أن تكون على العمود المقسام من منتصف المستقيم الذى يصل النقطتين ، ولايجاد النقطة المطلوبة يجب أولا ايجـاد المحل الهندسى الذى هى جزء منه (راجع عملان مذهب ديكارت ٣ ص ٥٥ و ٥٦) . أما اذا كان التحليل باعتباره منهجا للاستدلال ، فهو ما يقول عنه اقليدس انه يفرض أن المطلوب ثابت ، ثم ينتقل منه بطريق الاستنتاج حتى يوصل الى قضية أخرى ثابتة قبل . وبذلك يتم البرهان على المطلوب (راجع لالاند مقالة التحليل Analyse فى المعجم الفلسفى ١١) وهذا المعنى هو ما يرجح عملان . ص ٥٦ وأستاذنا المسيو لالاند أنه مقصود ديكارت . أما المسيو جلسون فيرى أن معاصرى ديكارت لا يرون أن التحليل كمنهج للاستدلال . يقابل التحليل يتتبع ذلك وأن ينظر بعناية فى كل ما يحويه . فان فهمه للشىء الذى برهن عليـه باعتباره جزءا من علم الهنـدسة (انظر التعليق ٤ ص ١٨٣) ويشرح ديكارت نفسه التحليل باعتباره منهجا بقوله : « فى التحليل يستنبط المعلوم من المجهول وذلك بفرض المجهول معلوما والمعلوم مجهولا » هذا النص ذكره أولا رافيسون Ravaisson بدون اشارة الى موضعه ، ويتبعه فى ذلك كثير من المؤرخين (انظر عملان ص ٧٩ و ٨٠) ويقول أيضا « يظهر التحليل حقيقة ما وصل به الى الشىء تبعا لمنهج . ويبين كيف تتوقف المعلولات على العلل ، بحيث اذ شاء القارىء أن يتابع ذلك وأن ينظر بعناية فى كل ما يحويه . فان فهمه للشىء الذى برهن عليه كذلك . لن يكون أقل كمالا ، ولن يجعل ذلك الشىء أقل اختصاصا به . مما لو أنه هو الذى توصل اليه استكشفه بنفسه » (الردود على الاعتراضات ١٢) وميزة التحليل البارزة التى توافق روح الفلسفة الديكارتية هى ما أبداه ليبنتز فى علم الجوهر الفرد (مونادو لوجيا) بقوله « عندما تكون حقيقة لازمة . فان الانسان يستطيع ايجاد حجتها بالتحليل . ذلك بتحليلها الى أفكار وحقائق أبسط حتى يصل المرء الى الأفكار والحقائق الأولية » (الفقرة ٣٣ . انظر الكتابات الفلسفية Philosophische schriften طبعة جوهارت ج ص ٦١٢) .

للغير مانعرف من الأمور ، لا فى تعلم تلك الأمور (١) بل هى كفن لل (٢) ، ينفع فى أن نتكلم فيما نجهل من

(١) درس ديكارت فى كلية لافليش منطق المدرسة وقرأ فيها المدخل لفورفوريوس (ايساغوجى) ومقولات أرسطو (قاطيغورياس) وكذلك تحليل القياسى (أنالوطيقا الأولى) والبرهان (أنالوطيقا الثانية) والعبارة (باراميناس) (راجع جان الكتب التى كان مقررا درسها فى عملان مذهب ديكارت ٣ ص ١٣ و ١٤ وجلسون التعليق ٤ ص ١١٨) . وهو يأخذ على منطق المدرسة أى على القياس (سولوجسموس) أنه عقيم لا يساعد على الاختراع . لأنه اذا وضعت المقدمات وكان الحد الأوسط فى مكانه ، فان استخراج النتيجة لا يحتاج الى أكثر من تعبير لغوى وبعبارة أخرى فان النتيجة لا تقوم بأكثر من أن تنقل ، تبعا لأبخس المقدمتين ، وعلى حسب موضع الحد الأوسط ، قولا هو من قبل صادق على الحد الأوسط وبين الثبوت له ، وبذلك لا يضيف القياس شيئا الى معرفتنا . أما قول ديكارت بأن أقيسة المنطق تنفع فى أن نتكلم فيما نجهل دون حكم ، ومعنى الحكم عنده تمييز الحق من الباطل ، فالمرجح أنه يوجه اعتراضه الى منطق الماصدق ، لأن الحكم باعتبار الماصدق لا يستلزم انتباها كثيرا من النفس . أما اعتبار المفهوم أن يتسنى الحكم دون انتباه العقل الى معانى الحدود .

تذنيب* لكل حد ماصدق وهو الافراد التى يطلق عليها ذلك الحد . فمثلا ما صدق انسان هو زيد وعمرو وكل الأشخاص الانسانية ، وللحد أيضا مفهوم وهو المعنى الذى يفيده ذلك الحد . فمثلا مفهوم انسان هو كونه حيا وحيوانا ومن أهل السلسلة الفقرية ومن ذوى الثدى الخ .

(٢) هو رايموند لل Lulle العالم الفيلسوف الكيماوى الرحالة المبشر . وهو من أعجب شخصيات العصور الوسطى ، ولد فى بالما بجزيرة ماجوركا سنة ١٢٣٥ ومات مرجوما فى ٣٠ يونيه سنة ١٣١٥ . وقد تعلم علوم العرب ولغتهم فى الأندلس كى يدعو المسلمين الى المسيحية ، ويظهر أن جرأته وحماسته الفائقتين كانتا تشفعان له فى غض أمراء المسلمين عنه والتسامح معه . وله مؤلفات كثيرة حتى يقول البعض انها أربعة آلاف كتاب وقد ضاع أكثرها (انظر تاريخ حياته وعرضا عن مؤلفاته فى رسالة زويمر Zwemer ريموند لل أول مبشر بين المسلمين ولريموند لل مؤلفات بالعربية ، أمكن أخيرا احصاء ثمانية منها ، على أنها غير موجودة القاهرة ١٩١٥) (انظر مجلة الدروس الاسلامية Rev. des études islamiques السنة الاولى (١٩٢٧ الكراسة الاولى ص ٣٥) . ويعنى ديكارت بفن كل ما هو معروف بالفن الكبير Ars magna وقد صنعه لل للتغلب على صعوبتين فى منطق أرسطو :

غير تمييز ، ومع أن ذلك العلم يشتمل فى الحقيقة على تعليمات كثيرة جدا صحيحة ومفيدة ، فان فيه أيضا غيرها . اما ضارة واما عديمة النفع ، وهى مختلطة بها بحيث يكاد يكون فصلها عنها من المتعسر ، مثل استخراج ديانا أو منيرفا من قطعة من الرخام لم تنحت بعد (١) ثم انه فيما يختص بتحليل الأقدمين وبجبر المحدثين ، ففوق انها لاتتسع الا لأمور مجردة جدا ، وتبدو كأنها لاتطبيق لها ، فان الأول مقصور دائما على النظر فى الاشكال ، بحيث لايقدر على أعمال الفهم دون اجهاده للخيال (٢) ، وفى الأخير يتقيد بقواعد ورموز جعلت منه فنا (١٨) مبهما وغامضا يحير العقل ، بدلا من أن يكون علما يثقفه • وهذا ماكان سببا فى آنى فكرت فى وجوب البحث عن منهج آخر يكون مع احتوائه على

= الاولى استكشاف المقدمات أو المبادىء اللازمة للوصول الى نتيجة مبرهنة علمية ، والثانية ايجاد الحد الأوسط اذا وجد الطوفان ، وهو يلجأ فى هذين المشكلين الى فنه الكبير الذى يجعل من الفكر آلة مسخرة حق لديكارت ان يحكم عليه حكمه (انظر لشرح الفن الكبير مقالة لل فى معجم العلوم الفلسفية Dictionnaire des sciences philosophiques تحت ادارة فرانك Franck وكذلك برهييه Brehier تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٧٠٠ ومايليها من الطبعة الاولى باريس سنة ١٩٢٦ ومابعدها) •

(١) ديانا هى ابنة جوبيتر كبير الآلهة عند الاغريق والرومان ، وكانت ملكة الغابات . وميترفا وتسمى أيضا بلاس أثينا كانت آلهة الحكمة والفنون •

(٢) انظر التعليقات على كلمة الخيال فى الكلام على قوى النفس فى القسم الخامس •

مزايا تلك العلوم الثلاثة ، خاليا من عيوبها ٠ وكما أن كثرة القوانين كثيرا ماتهيىء المعاذير للنقائص (١) ، بحيث تكون الدولة خيرا حكما ونظاما ، عندما لايكون لديها من القوانين الا قليل جدا ، فتصبح هذه القوانين مراعاة بدقة كثيرة ، كذلك اعتقدت أنه بدلا من هذا العدد الكبير من المبادىء التى يتآلف منهـا المنطق ، فالأربعة التالية حسبى بشرط أن يكون عزمى على ألا أخل مرة واحدة بمراعاتها صادقا ودائما ٠

الأول ألا أقبل شيئا ما على أنه حق ، مالم أعرف

---

(١) يرى هملان فى ذلك النص اعترافا من ديكارت بالنقص فى كتابه القواعد ١ الذى لم يكمله ديكارت على حسب مشروعه لأنه كان ينوى جعله فى ست وثلاثين قاعدة ، ولكنه بين أيدينا فى واحدة وعشرين فقط ، واذن فيظن هملان فى قوله « أن كثرة القوانين كثيرا ما تهيىء المعاذير للنقائض » اشارة الى ذلك النقص (انظر مذهب ديكارت ٣ ص ٤٨) ٠ ولقد اهتم ديكارت منذ حداثته بالبحث عن قواعد عامة قليلة العدد لقيادة العقل فى تحرى الحقيقة وفى ذلك أقواله والتى يرجع تاريخها الى عهد شبابه قوله : « ان أحكام العلم هى ارجاعه كل شيء قليل من القواعد العامة » (انظر ص ١٣ من أعمال ديكارت غير المطبوعة نشرها الكونت فوشيه دى كارى Foucher de careil فى باريس ١٨٥٨ ـ ١٨٦٠) ٠

ثم اننا نرى أن ديكارت يقتصر فى المقال على أربع قواعد فقط ، بينما يبسط فى كتابه القواعد ١ واحدة وعشرين قاعدة ومع ذلك ناقصة ، ولاتزيد فى شيء عن قواعد المقال ، وهذا راجع الى أن المقال كتب بعد القواعد ولو أنه نشر قبله (انظر جلسون التعليق ٤ ص ١٩٦) وهنا رأى آخر قديم يقول به الأستاذ ناتورب Natorp فى كتابه المشهور نظرية المعرفة عند ديكارت ١٥ ص ١٦٥ ومحصلة أن القواعد الاثنتى عشرة الاولى فى كتاب القواعد هى شرح لقواعد المقال الأربع (انظر يونجمان Jungmann رينيه ديكارت . مبحث فى عمله ١٦ ص ٤ و ٥) ٠

يقينا أنه كذلك : بمعنى أن أتجنب بعناية التهور (١)، والسبق الى الحكم قبل النظر (٢) ،وألا أدخل في أحكامى الا مايتمثل أمــام عقلى فى جــلاء وتميز (٣) ، بحيث لا يكون لدى أى مجال لوضعه موضع الشك ٠

الثانى : أن أقسم كل واحدة من المعضــلات التى سأختبرها ، الى اجزاء على قدر المستطاع ، على قدر ما تدعو الحاجة الى حلها على خير الوجوه (٤) ٠

الثالث : أن أسير أفكارى بنظام ، بادئا بأبسط (٥)

---

(١) التهور وبالفرنسية Précipitation ويعنى به ديكارت الحكم قبل ان يصل العقل الى يقين وقد شرحناه سابقا ص ١٢٥ تعليقه رقم ١ ٠

(٢) السبق الى الحكم قبل النظر وبالفرنسية Préveniion وهو فى نظر ديكارت أول مصادر الخطأ . ويقصد به أن يكون للمرء فى بعض المسائل أحكام يأخذ بها قبل فحصها بعقله المستقل ، وهذه الأحكام اما أن تكون مأخوذة من زمن الطفولة عندما يكون الاتصال بين النفس والبدن وثيقا جدا بحيث يكاد العقل لا يفكر فى أبعد مما يحس البدن (انظر مبادىء اللسفة ٦ ج ١ الفقرة ٧١) واما أن تكون تلك الأحكام السابقة للتفكير الشخصى مأخوذة عن السلف بالنقل دون نقد ٠

(٣) « أسمى المعرفة جلية اذا كانت حاضرة وظاهرة أمام نفس منتبهة ، مبادىء الفلسفة ٦ ج ١ الفقرة ٤٥ ٠ أما المعرفة المتميزة فهى ما كانت ذات حدود معينة بحيث لا تختلط مع غيرها . ويرى ديكارت أن المعرفة تصح أن تكون جلية وغير متميزة مثل شعور المرء فى طبيعة الألم ولكن العكس لا يصح (راجع المبادىء ٦ ج ١ فقرة ٤٦) ٠

(٤) تسمى هذه القاعدة التحليل ٠

(٥) البسيط هو ما ليس له أجزاء وهو اما يعرف كله أو يجهل كله (انظر القواعد (٦) : الثانية عشر) ٠

الأمور وأسهلها معرفة (١) کی أتدرج قليلا قليلا حتى أصل الى معرفة أكثرها ترتيبا ، بل وأن أفرض ترتيبا بين الامور التى لايسبق بعضها الآخر بالطبع ·

والاخير ، أن أعمل فى كل الاحوال من الاحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة مايجعلنى على ثقة من أننى لم أغفل شيئا (٢) ·

هذه السلاسل الطويلة من الحجج ، وكلها بسيطة وسهلة ، التى اعتاد أصحاب علم الهندسة الاستعانة بها للوصول الى أصعب براهينهم ، يسرت لى أن أتخيل أن كل الأشياء ، التى يمكن أن تقع فى متناول المعرفة الانسانية تتابع على طريقة واحـــدة ، وانه اذا تحامى المرء قبول

---

(١) هذا الاصطلاح «أسهل الأمور معرفة» غامض عند أرسطو وفي العصور الوسطى وهو يفد من جهة ما نعرفه أحسن معرفة ، ومن جهة أخرى اكثر الامور قبولا للفهم (انظر روبان Robin الفكر اليونانى La pensée greeque ص ٢٠٥ وكذلك برنشفيك Brunschvigg الرياضة وما بعد الطبيعة عند ديكارت ١٧ · وهذه القاعدة الثالثة تسمى قاعدة التأليف والتركيب ·

(٢) تسمى تلك القاعدة بقاعدة الاستقراء التام Enumératjon وهو عند ديكارت ينحصر فى « تحرى كل ما يتصل بمسألة ما . وينبغى أن يجتهد فى ذلك التحرى ويعنى به بحيث يمكن أن يستنبط منه بيقين أننا لم تهمل شيئا بخطأ منا » القواعد ١ القاعدة السابقة ومع أن ديكارت يطلق على تلك العملية اسم « الاستقراء » فانها فى الواقع كما يقول هملان (ص ٧٣) « قياس فى طريق التكوين » · وهو يختلف عن الاستقراء القديم فى أنه مع تأسيسه علاقات بين الحدود أ و ب وبين ب و ج و د وبين د و س يساعد على اقامة علاقة واحدة بين أ و س وبذلك يكون الاستقراء الديكارتى وسيلة لزيادة المعرفة والاستكشاف Ars inveniendi (راجع هانكان منهج ديكارت ٢ ص ٧٧٢) ·

شيء منها على أنه حق مع أنه ليس حقـا ، واذا حافظ دائما على الترتيب اللازم لاستنباط بعضها من بعض ، فانه لايمكن أن يوجد بين تلك الأشياء ماهو من البعد بحيث لايمكن ادراكه ، أو من الخفاء بحيث لايستطاع كشفه · ولم يعيني كثيرا البحث عن الشيء الذى تدعو الحاجة الى البدء به لأنني عرفت من قبل أنه يكون بأبسط الأشياء وأسهلها معرفة ، ولما لاحظت أنه بين كل من بحثـوا من قبـل عن الحقيقـة فى العـلوم ، ليس الا الرياضيين هـم الذين اسـتطاعوا أن يجـدوا بعض البراهين ، أعنى بعض الحجج الوثيقة اليقينية ، فانني لم أشك فى أنه بنفس تلك الأشياء كانوا يدرسون ، على انى لم آمل منها أى فائدة أخرى ، غير تعويد عقلى على أن يألف الحقائق ، وألا يقنع البتة بالحجج الباطلة · ولكنني لم أعزم قط ، لأجل هذا ، على تعلم كل هـذه العـلوم الخاصة التى يسـميها الجمهور بالرياضيات ، وللاحظتى انه مع أن موضوعاتها متباينة (٢٠) فانها تتفق جميعا ، فى انها لاتبحث الا عما فيها من النسب المختلفة أو المقادير ، فكرت فى أنه خير ان اقتصر على درس هذه المقادير على العموم ، وألا أفرضها الا قائمة بالموضوعات التى تعين على تسهيل معرفتى لها بل من غير أن أقصرها عليها البتة كى تزيد قدرتى على تطبيقها

فيما بعد على كل ماعداها من الموضوعات التى توافقها (١) ولما لاحظت بعد ذلك أننى ، لمعرفة تلك المقادير ، محتاج فى بعض الأحايين الى أن أعتبرها كل واحد على حدة ، وفى أحايين أخرى الى أن أكتفى بتذكرها ، أو الى ان أجمع عددا كثيرا منها (فى وقت واحد) ، فكرت انه لكى يحسن النظر فى كل واحد منها على حدة وجب على أن أفرضها خطوطا (مستقيمة) ، لأننى لم أجد شيئا أبسط منها ولم أقدر أن أعرض لخيالى وحواسى ماهو أكثر تميزا منها ، ولكن لاجل تذكرها ، أو لجمع الكثير منها (فى وقت واحد) ، وجب على ان افسرها برموز اكثر ماتكون ايجازا (٢) ، وبهذه

---

(١) هذا هو العزم على درس النسب فى ذاتها باستقلالها عن كل مادة تتعلق بها ، وذلك ما سيؤدى بديكارت الى اختيار الخطوط كرموز للتعبير عن كل المقادير . جلسون التعليق ٤ ص ٢١٨ ومعنى كل هذا تفكير ديكارت فى العلم الذى استحدثه وهو الهندسة التحليلية التى سيتحدث عنها فى الصفحة الآتية .

(٢) استعمل ديكارت حروف الهجاء كرموز موجزة للدلالة على الكميات المعلومة كما أنه اول من استعمل الحرفين س Y و ى X للدلالة على الكميات المجهولة . ونحن مع الذين يرون أن الـ س كرمز رياضى يدل على المجهول الذى يطلب العمل به هو من أصل عربى ، لأن العرب كانوا يستعملون للاشارة الى ذلك المجهول كلمة « شىء » وأخذها عنهم الأسبان ، ولما لم يكن فى لغة هؤلاء ما يقابل حرف الشين ، استعاضوا عنها بالصين X انظر كازانوفا Casanova تعليم العربية فى الكوليج ده فرانس ص ٢١ باريس سنة ١٩١٠ ومحمود الخضيرى العرب والرياضة فى مجلة الزهراء ج ٦ م ٤ شعبان ١٣٤٦ .

الوسيلة ، أستعير خير ما فى التحليل الهندسى والجبر ، وأصحح كل عيوب أحدهما بالآخر (١) ·

وفى الحقيقة فانى أستطيع أن أقول ان المراعاة الدقيقة لهذا العدد القليل من المبادىء الذى اخترته قد هونت على كثيرا حل كل المسائل التى يتناولها هـذان العلمـان ، حتى انه فى شـهرين أو ثلاثة مضيتها فى اختبارها ، وكنت قد بدأت بأبسط الامور وأعمها ، وكل حقيقة وجدتها كانت قاعدة أعانتنى فيما بعد على وجود أخرى ، (٢١) فاننى لم أنته فقط الى حل كثير منها كنت أجده فيما قبل معضلا جدا بل بدا لى أيضـا قبيل النهاية ، اننى قادر أن أحدد ، حتى فى المسـائل التى أجهلها ، بأى الطرق ، والى أى حد ، يستطاع حلها، وفى هذا ربما لاأظهر لكم رجلا فارغا ، اذا لاحظتم أنه ليس للشىء الواحد الا حقيقة واحدة ، فمن وجدها فقد عرف من هذا الشىء كل مايستطاع عرفانه ، فمثلا اذا قام طفل تعلم الحساب بعملية جمع حسب قواعده ، فانه يستطيع أن يثق أنه وجـد فيما يختص بحـاصل جمع

---

(١) لأن ديكارت باستحداثه الهندسه التحليلية بفضل تطبيق منهجه قد جمع مزية الهندسة بدرس الخطوط ـ وهذا تيسير للدرس لما فيه من استعانة بالخيال ـ وبين مزية الجبر بالايجاز فى الرموز ·

المسألة التى هو بصددها ، كل مايستطيع العقل الانسانى أن يجده • لأن المنهج الذى يعلم المرء اتبــاع الترتيب الصحيح ، واحصاء كل الظروف بدقة فى الشىء الذى يتحراه ، يشــتمل على كل ماجعــل قواعد علم الحساب موثوقا بها •

ولكن أكثر ماأرضانى من ذلك المنهج ، هو ثقتى أننى بواسطته أستعمل العقل فى كل أمر ، ان لم يكن على الوجه الأكمل ، فعلى خير مافى استطاعتى على الأقل، ذلك فوق أننى كنت أشعر فى تطبيق ذلك المنهج أن عقلى كان يتعود شيئا فشيئا على تصور مايتصوره على وجه أشد وضوحا وأقوى تميزا ، وأننى اذا لم أقصر هــذا المنهج على مادة معينة ، فقــد كان لى الأمــل أن أطبقه تطبيقا مفيدا أيضا على معضلات العلوم الأخرى كمــا فعلت بمعضلات علم الجبر (١) وليس معنى هذا أننى اقتحمت بادىء الرأى امتحان كل مايعرض من معضلات العلوم ، لأن هذا نفسه مخــالف للنظــام الذى يوجبه المنهج (٢) • ولكن لما لاحظت أن مبادىء تلك العلوم يجب أن تكون (٢٢) مقتبسة كلها من الفلسفة ، التى

---

(١) فى النص اللاتينى « كما فعلت بمعضلات الهندسة أو الجبر » أعمال ديكارت الكاملة مطبوعة أدم وتانرى ج ٦ ــ ٥٥٢ •

(٢) أى للمبدأ الثالث المسمى بقاعدة التأليف (انظر جلسون التعليم ص ٢٢٦)

لم أكن وجدت فيها بعد شيئا يقينيا ، فـكرت فى أنه يجب على أن أحاول أولا أن أقرر فى الفلسفة أصـولا يقينية ، ولما كان هذا أهم شىء ، والتهور والسبق الى الحكم قبل النظر أخوف مايخـاف فيه ، وجب على ألا أصمم على المضى فيه ما لم أبلغ من العمر سنا أنضج من سنى يومئذ (١) وكانت ثلاثة وعشرين عاما ، وما لم أكن أنفقت قبلا زمنا كثيرا فى اعداد نفسى له سواء كان ذلك بأن أنزع من عقلى كل الآراء الفاسدة ، التى كنت تلقيتها قبل ذلك ، أو بأن أجمع التجارب الكثيرة، كى تكون فيما بعد مادة استدلالاتى وأن أروض نفسى دائما على المنهج الذى ألزمت نفسى به ليتزايد رسوخى فيه .

---

(١) يقصد شتاء ١٦١٩ حيث كان فى منعزله وحيث اهتدى الى منهجه لأول مرة ومن المعروف أن ديكارت مولود سنة ١٥٩٦ .

القسم الثالث

ثم انه لما كان لايكفى قبل البدء فى تجديد المسكن الذى نقيم فيه أن نهدمه ، وأن نحصل مواد العمارة والمعماريين ، أو أن نعمل بأنفسنا فى العمارة ، وأن نكون عدا ذلك قد وضعنا له الرسم بعناية بل يجب أيضا أن يكون لنا مسكن آخر نستطيع أن نأوى اليه فى راحة أثناء العمل فى ذلك المسكن ، وكذلك ، لكى لا أظل مترددا فى أعمالى ، حينما يجبرنى العقل على ذلك فى أحكامى ، ولكى لاأحرم نفسى منذ الآن من أسعد حياة أقدر عليها ، فاننى وضعت لنفسى قواعد للأخلاق مؤقتة (١) لاتشتمل الا على ثلاث حكم أو أربع أدلى اليكم بها :

---

(١) أى غير نهائية . والحقيقة أن هذا التعبير أدى الى خلاف كبير بين مؤرخى الفلسفة الديكارتية ، لأن ديكارت يقول فى تنبيهه الذى صدر به المقال انه استنبط قواعد الأخلاق الواردة فى القسم الثالث من منهجه على أنه يقرر عنا وفى امكنة اخرى أن هذه الأخلاق مؤقتة . ويعرفنا مخطوط جوتنن (وقد نشره لأول مرة الاستاذ آدم سنة ١٨٩٦ ثم ظهر فى الأعمال الكاملة فى المجلد الخامس) بان ديكارت كتب قواعده الأخلاقية وهو نادم وذلك خشية أن يتهمه المشتغلون بالعلم وغيرهم بأنه لا دين له ولا ايمان ، وكذلك خشية أن يسيئوا فهم منهجه ، وقد كتب الى صديق له فى أول نوفمبر سنة ١٦٤٦ يقول لو انه وضع أخلاقا نهائية لما أبقى له الناقدون راحة ما =

الأولى أن أطيع قوانين بلادى وعوائدها ، مع ثبات فى (٢٣) محافظتى على الديانة التى أنعم الله على بأن نشأت فيها منذ طفولتى ، وأن أحكم نفسى فى كل أمر آخر ، تبعـا لأكثر الآراء اعتـدالا ، وأبعـدها عن الافراط ، والتى أجمع على الرضـاء بهـا فى العمل ، أعقل الذين سأعيش معهم ، لأننى ، لما بدأت منذ ذلك الحين ألا أقيم لآرائى الخـاصة أى اعتبار ـ وذلك لأنى أردت أن أختبرها جميعـا ـ أيقنت أنـه ليس فى استطاعتى أن أعمـل خيرا من اتبـاعى لآراء أعقـل الناس ، ومع أنه ربما كان بين الفرس والصينيين من هم ذوو عقول كعقولنا ، فقد بدا لى أن الأنفع هو تدبير أمرى تبعا للذين اعيش معهم ، ولأجل أن أعرف ماهى

لأن طبيعياته لم تنل القبول عند أولى الأمر ٠ كما أن البعض اتهمه باللاادرية لانه نقض أقوال اللاادريين . وقال عنه البعض الأخر انه ملحد مع أنه اثبت وجود الله وغير ذلك (إنظر الأعمال الكاملة ج ٤ ص ٥٣٦) ومن المعروف ان ديكارت فى تصنيفه العلوم فى مقدمته لمبادىء الفلسفة ٦ جعل الأخلاق فى قمة العلوم وقال انها تستلزم معرفة كاملة للعلوم الأخرى ، ولما كان ديكارت لم يستطع اتمام طبيعياته ولا أن يطبقها على الميكانيكا والطب فانه لم يستطع وضع أخلاقه النهائية مع عنايته الكثيرة بعلم الأخلاق (راجع هملان الكتاب المذكور قبلا ٣ الفصل الرابع والعشرون وبوترو Boutroux العلاقة بين الأخلاق والعلم فى فلسفة ديكارت فى كتابه دروس فى تاريخ الفلسفة ١٣ ص ٢٩٩ وما يليها) على أننا نعتقد أنه لم أتم ديكارت مذهبه فى الأخلاق لما نقض ما كتبه فى المقال . والذين قالوا ان ديكارت مال الى المذهب العقلى فى الأخلاق فيما قاله عن الأخلاق بعد المقال لم يفطنوا الى أن ديكارت يفرق بين عمل العقل فى العملى أى فى الأخلاق وعمله فى النظرى مع تقريره دائما أن طبيعة العقل تقتضى ذلك وهذا ما سيوضحه فيما يتلو من القسم الثالث ٠

حقيقة آرائهم ، كان واجبا على آن آعنى بما يعملون لا بمــا يقولون ، ليس السبب في ذلك هو آن فســاد أخلاقنا جعل قليلين يرضون أن يقولوا كل مايعتقدون . بل ولأن كثيرين يجهلون هم آنفسهم مايعتقدون ، وذلك لأنه لما كان عمل العقل الذى به يعتقد المرء بشيء ما ، مخالفا لما به يعرف آنه يعتقد ، فكثيرا مايوجد أحدهما بدون الآخــر (١) ، ولم آتخــير من بين الآراء الكثيرة المقبولة على سواء ، الا الأكثر اعتدالا . وذلك لأنها دائما أيسر في العمل ، ويرجح آن تكون هى الأحسن ، اذ آن كل افراط من دأبه آن يكون سيئا ، وأيضا لكى أكون أقل ميلا عن الطريق القويم عنــد الوقوع في الخطأ ، لا كما لو اخترت آحد المذاهب المتقابلة وكان الذى يجب أن آسلكه هو المذهب الآخر . واعتبرت على الأخص من بين مذاهب الافراط كل الأمانى التى ينقص (٢٤) بها المرء شيئا من حريته . ولم يكن ذلك لاستنكارى للقوانين التى — لكى تعالج زعــزعة النفوس الضعيفة — تبيح عند حسن الغرض أو مــراعاة لأمن التجــار ، اذ كان

(١) لأن عمل النفس الذى نحكم به أن الشيء خير أو شر يتعلق بالارادة ، وأن العمل الذى نعرف به أننا حكمنا كذلك خاص بالعقل . وليس غريبا جدا أن تكون وظيفتان احداهما تتعلق بالعقل والاخرى بالارادة مختلفتين ، وأن احداهما تستطيع أن تكون بغير الأخرى » تفســير بيير سلفان رجيس اقتبســه جلســون فى تعليقه ص ٢٣٧ و ٢٣٨ .

الغرض لا سيئا ولا حسـنا أن يتقيد المرء بنـذور أو عقود تضطره الى الثبات على ذلك ، ولكن ذلك لأنني لم أشاهد في العالم شيئا يبقى على حالة واحدة ، وأنه لما كنت ـ فيما يختص بنفسي ـ امـل أن أزيد احـكامى كمالا ، لا أن أنقصها ، فقد رأيت أنني آتى خطأ فادحا مخالفا للعقل ، اذ كان تحبيذى لامر في زمن ما يجعلنى مضطرا لان اعتبره ايضا طيبا فيما بعد ، عند ما قد تزول عنه هـذه الصفة ، أو عنـدما أكف عن اعتباره متصفا بها ٠

وكانت حكمتي الثـانية أن أكون أكثر ماأستطيع جزما وتصـميما في أعمـالى ، وألا يكون استمساكى بأشد الآراء عـرضة للشـك ، اذا ماصحت عـزيمتى عليها ، أقل ثباتا مما لو كانت من أشد الآراء وضوحا ٠ احتذى في هذا مثل المسافرين الذين يجدون أنفسهم قد ضلوا في بعض الغابات عليهم ألا يضربوا فيها التواء ههنا مرة ، وهنا مرة أخرى ، وشر من ذلك أن يقفوا في مكان واحـد ، ولكن عليهم أن يسـيروا دائمـا أكثر مايستطيعون استقامة نحو جهة واحـدة ، وألا يغيروا اتجاههم لأسباب ضعيفة ، ولو لم يكن الا مجرد اتفاق ، هو ألذى جعلهم في بادىء الأمر يصممون على اختيارهٔ

(٢٥) لأنه بتلك الطريقة ، فهم ان لم ينتهوا الى حيث يرغبون ، فهم يبلغون على الأقـل بعض الأماكن التى يرجح أن يكونوا فيها خيرا مما لو ظلوا فى وسط غابة ٠ وكذلك فان أعمال الحياة ، لما كانت لاتحتمل غالبا تأجيلا ما ، فانهـا لحقيقة أكيـدة جـدا ، أنه اذا لم يكن فى استطاعتنا تمييز أصح الآراء ، فان الواجب علينا اتباع أكثرها رجحانا ، بل اذا لم نلاحظ تمايزا فى الرجحان بينها ، فانه يجب علينا مع ذلك أن نتمسك ببعضـها وألا نعتبرها بعد ذلك موضعا للشك باعتبارها متصلة بالعمل ، بل علينا أن نعتبرها جد حقيقة ووثيقة ، لأن العقل الذى ألزمنا بها هو نفسه كذلك ٠ وهـذا كان كافيا لتخليصى منذ ذلك الحين من كل ندم وتأنيب ، وهما يثيران فى العادة وجدان النفوس الضعيفة المتقلبة التى تستسلم فى غير ثبات الى العمـل ماتعتبره صالحا ، ثم تحكم فيما بعد بأنه سيئ ٠

وكانت حكمتى الثالثة أن أجتهد دائما فى أن أغالب نفسى لا أن أغالب الحظ ، وأن أغير رغباتى لا أن أغير نظام العالم ، وبالجملة أن أتعود الاعتقاد بأننا لانقدر الا على أفكارنا ، قدرة تامة (١) ، بحيث اننا اذا فعلنا

---

(١) افكارنا ملك لنا لأنها تتبع تماما ارادتنا الحرة ٠

خير مانقدر عليه ، فيما يختص بالأمور الخارجية عنا ، فان كل ماينقصنا بعد ذلك من أسباب النجاح ، هو بالنسبة الينا مستحيل على الاطلاق . وهذا وحده فيما بدا لى ، كان كافيا لأن يصدنى عن الطمع فى المستقبل فى شىء لا أناله ، ولأن يجعلنى راضيا (١) ، لأنه لما كانت ارادتنا بطبيعتها لاتميل (٢٦) الا الى الأشياء التى يصور لها فهمنا أنها ممكنة بحال ما ، فمن المحقق اذن أنه اذا اعتبرنا كل الخيرات الخارجة عنا تتساوى فى تباعد من مثال قدرتنا ، فاننا لانكون أشد أسفا على

(١) نرى فى هذه الحكمة الثالثة مظهر التأثير الرواقى ، ولقد كان شائعا فى القرن السادس عشر ، فديكارت رواقى مثل أبطال روايات كورنى Corneille (انظروا بوترو الكتاب المذكور قبلا ١٣ ص ٣٠٠) . والرأى المشهور هو أن ديكارت رواقى فى أخلاقى ولكننا نرى رأى حملان الذى يقول انه ليس رواقيا كما تذهب الى ذلك كثرة أهل الرأى وأنه يختلف عن الرواقيين فيما يأتى (١) يقول الرواقيون بالجبر المطلق ونفى الارادة (*) . بينما يثبت هو الحرية للارادة بل ان الارادة عنده تكاد ترادف الحرية (٢) ان الرواقيين يرون أن المرء يرزح تحت قوى الوجود وهم يعتبرون كل لذة حسية تراخيا وضعفا ، بينما يتفاعل ديكارت بالشهوات ويكثر التصريح بما فيها من خير (٣) ان فلسفة الرواقيين هى فلسفة استسلام بينما يدعو ديكارت فى القسم السادس من المقال الى فلسفة تجعلنا سادة الطبيعة وأربابها . (انظر مذهب ديكارت ٣ ص ٣٨٢ ، ٣٨٣) .

(*) يقول الاستاذ احمد امين فى كتابه الأخلاق « .. ففلاسفة اليونان كان بعضهم يرى أن الارادة حرة فى الأخبار كالرواقيين الخ) ص ٦٠ و ٦١ من الطبعة الثالثة : القاهرة ١٣٤٤ – ١٩٢٥ والذى ينسبه الاستاذ للرواقيين . فليس من مذهبهم لأنهم كانوا يقولون بالجبر المطلق ونفى حرية الارادة (راجع جانيه وسياى Janet et Seailles تاريخ الفلسفة مسألة الحرية ص ٣٣٠) .

الحرمان من مزايا يبدو لنا أن ميلادنا استوجبها عندما يكون حرماننا منها بغير خطأ منا ، أكثر من أسفنا على ألا تكون لنا ممالك الصين والمكسيك ، وكذلك اذا عملنا بما يدعونه فضيلة الضرورة ، فلن نرغب في أن نكون أصحاء ، اذا كنا مرضى ، أو في أن نكون أحرارا ، اذا كنا في سجن ، أكثر من رغبتنا الآن في أن تكون لنا أجسام من مادة فيها من قلة الاستعداد للفساد مثلما في الماس ، أو أن تكون لنا أجنحة نطير بها مثل الطيور ٠٠ ولكنى أعترف بأن المرء محتاج الى رياضة طويلة ، والى تأملات كثير تكرارها ، حتى يتعود على أن ينظر من هذه الوجهة الى كل الأمور ، وانى لأعتقد أن في ذلك ينحصر سر هؤلاء الفلاسفة (١) ، الذين استطاعوا في زمن سالف أن يتخلصوا من سلطان الحظ وأن ينازعوا آلهتهم السعادة (٢) ، رغم الآلام والفقر ٠ لأنهم باشتغالهم الدائم في تأمل الحدود التي فرضتها عليهم الطبيعة (١) ، اقتنعوا تمام الاقتناع أنهم لايقدرون الا على أفكارهم ، وان اقتناعهم هذا كان وحده كافيا لمنعهم من أن تكون

---

(١) أى الفلاسفة الرواقيون ٠

(٢) يعرف السيد الشريف الجرجاني الفلسفة بانها « التشبه بالاله بحسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الأبدية » التعريفات ص ١١٣ طبعة استانبول ١٣٢٧ وهذا مطابق لقول الرواقيين الذين كانوا يرون أن الحكيم سعيد مثل الاله نفسه ٠

عندهم شهوة لأشياء أخرى • ولقد كانوا يتصرفون فى أفكارهم تصرفا مطلقا ، بحيث كان لهم بذلك حق فى أن يعتبروا أنفسهم أغنى ، وأقوى ، وأكثر حرية ، وأسعد من أى انسان آخـر لم تكن له تلك الفلسـفة ، ومهما حبته الطبيعة والحظ بما فى الامكان فهو لايتصرف قط ذلك التصرف فى كل مايريد • (٢٧)

ثم رأيت نتيجة لهذا النظام الأخـلاقى ، أن أختبر مشاغل الناس المختلفة فى هذه الحياة ، كى أجتهد فى اختيار أفضلها ، وبدون أى رغبة منى فى أن أقول شيئا عن مشاغل الآخرين ، فكرت فى أننى لاأقدر على خير من أن أستمر فى نفس ذلك الشغل الذى كنت فيه ، أى على أن أنفق كل حياتى فى تثقيف عقلى ، وفى التقدم على قدر ماأستطيع ، فى معـرفة الحقيقة ، تبعا للمنهج الذى فرضته على نفسى • ولقد شعرت بلذات بالغة جدا، منذ بدأت فى أن آخذ نفسى بهذا المنهج ، لذلك لاأعتقد أن من المستطاع أن يجد المرء ماهو أعذب منها ولا أطهر فى هذه الحياة ، وبكشفى كل يوم بواسطته عن حقائق يبدو لى أنها ذات شأن وأن غيرى من الناس مشتركون

---

(١) أى النظام الذى أقامه الله فى كل شىء فى الوجود (راجع كتاب الى الأميرة اليزابث ١٨ أغسطس ١٦٤٥ فى م ٤ ص ٢٧٣ من الأعمال الكاملة طبعة آدم وتانرى)•

في الجهل بها ، كان مانلته من الرضا ملأ نفسي الى حد جعل مابقي من الأشياء لاينال مني منالا • وعدا ذلك فان الحكم الثلاث السابقة لم تكن مؤسسة الا على مقصدي في ان أواصل تعليم نفسي . لان الله بمنحه كلا منا بعض النور لتمييز الحق من الباطل ، لم أكن لأعتقد البتة في أنه يجب على أن أقتنع بآراء الغير لحظة واحدة . لو لم أكن قد عزمت على استعمال حكمي الخاص في اختيارها، في الوقت المناسب ، ولم أكن لأعــرف أن أتخلص من الهواجس لدى اتباعها ، لو لم آمل ألا أضيع من أجــل هذا ، أي (٢٨) فرصة للوصول الى ماهو أفضل • ان كان هناك ماهو أفضل • ثم انني ماكنت لأعرف أن أحد رغباتي ، أو أن أكون راضيا ، لو لم أتبع طريقا به ، وأنا أرى نفسي كذلك بنفس الوسيلة واثقا من تحصيلي ماهو في الحقيقة خير مما يدخــل في طاقتي ، بحيث لاتميل ارادتنا الى طلب شيء ، أو الفرار منه ، الا تبعا لأن فهمنا يمثله لها طيبا أو خبيثا ، ويكفي أن يجيد المرء الحــكم لكي يجيــد العمــل ، وأن يحــكم أحسن مايستطيع عملا ، أي لكي يحصــل على كل الفضــائل ومعها كل الخيرات الأخرى التي يمكن تحصيلها ، وعندما يتــأكد المرء أن ذلك كائن ، فانه لايعجــزه أن يكون راضيا •

وبعد أن استوثقت كذلك من هذه الحكم ، ووضعتها ناحية مع حقائق الايمان ، التى لها دائما المنزلة الاولى فى اعتقــادى (١) ، حكمت بأن مابقى من آرائى ، هو أن أعمل على التخلص منها ، ولما كنت عظيم الأمل فى أن أستطيع الانتهاء من ذلك بمحاضرة الناس على وجه أحسن ، مما لو ظللت محبوسا فى حجرتى التى وافتنى فيها كل تلك الأفكار ، فقد أخذت فى السفر ولم ينته الشتاء بعد ، وفى السنوات التسع التالية كلها (٢) لم أصنع شيئا الا الطواف هنا وهناك فى العالم ، مجتهدا أن أكون فيه متفرجا لا ممثلا ، فى كل المهــازل التى تمثل فيه ، ولما كنت أخص تفكيرى ، فى كل شىء بمــا يمكن أن يجعله موضعا للشك ، ويكون سببا فى خطئنا، فاننى انتزعت مــع ذلك من عقــلى كل الأخطــاء التى استطاعت أن تتسرب اليه من قبــل وماكنت فى ذلك مقلدا اللاأدرية (٣) الذين لايشــكون (٢٩) الا لكى

---

(١) اى جنبها عن الشك المنهجي الذى يقول به فى التفــكير النظرى ولكنه يستعيده عندما يكون الأمر فى صدد الدين او الأخلاق .

(٢) من سنة ١٦١٩ الى سنة ١٦٢٨ ولقد أفلح ، مع انهماكه فى الأسفار كما يقول ، فى تطبيق منهجه على بعض مسائل الطبيعيات والرياضيات (انظر هملان منهج ديكارت ٣ ص ٤٧) .

(٣) يختلف شك ديكارت المنهجى عن شك اللاأدريين فى أنه لا يدوم بل ينتهى عند الوصول الى اليقين بينما شك اللاأدريين دائم لا ينتهى قط . (هملان الكتاب =

يشكوا ، ويتكلفون أن يظلوا دائما حيارى ، فانى على عكس ذلك ، كان كل مقصـــدى لايرمى الا الى اليقين ، والى أن أدع الأرض الرخوة والرمل ، لكى أجد الصخر أو الصلصال ، والذى نجحت فيه ، على مايبدو لى ، بعض النجاح ، هو أننى لما اجتهدت فى كشف البطلان أو الشك فى القضايا التى كنت أمتحنها ، لا بفروض ضعيفة ، ولكن بحجج ويقينية ، لم أجد فى شىء منها ما كثر فيه الشك الى الا استخلص منه نتيجة على حد من اليقين ، ولو لم تكن هذه النتيجة سوى أن القضية لاتحتوى على شىء يقينى ، وكما أن المرء وهـــو يهـــدم بيتا قديما ، يحافظ فى العادة على أنقاضه كى تنفع فى بناء بيت جديد ، كذلك فاننى بنقضى كل ماحكمت عليه من آرائى بأنها آراء ضعيفة الأســـاس ، فاننى كنت أقوم ببعض الملاحظات وأحصل تجارب كثيرة (١) ، أفادتنى بعد ذلك فى تأسيس آراء أكثر يقينا • وزيادة على ذلك ، واصلت رياضة نفسى على المنهج الذى فرضـــته على نفسى ، لأنه عدا أنى عنيت بأن أوجه كل أفكارى على العموم تبعا

= المذكور قبلا ٣ يشكون • بينما ديكارت قبل مبادىء قوية لامكان العلم ، وهى ترجع جميعها الى التسليم ص ١٠٨) ثم اللاادريين يرون استحالة العام لأنهم يشكون فى كل شىء حتى فى أنهم بوجود الله وأنه مصدر الصدق والخير وسيوضح ذلك فى القسم الرابع •

(١) فى الطبيعيات والرياضيات ومن اهمها التحقيق التجريبى لقانون الانكسار •

لقواعده ، كنت أخصص بين حين وآخر ، بعض الساعات أنفقها على الخصــوص فى تطبيقه على بعض معضــلات الرياضيات ، بل وأيضا على بعض المعضلات الأخــرى التى كنت أستطيع تحويلها الى مايكاد يشــبه معضــلات الرياضيات ، وذلك بتخليصها من كل مبــادىء العلوم الأخرى ، التى لم أجد فيها متانة كافية ، كما سترونني أفعل فى كثير من العلوم المبسوطة فى هذا السفر (١) وكذلك فانى من غير أن تكون حياتى فى الظاهر مخالفة (٣٠) لحياة من ليس لهم شغل ، الا أن يقضوا حياة حلوة بريئــة فانهــم يجتهـــدون فى أن يميزوا بين الملذات والرذائل ، والذين يلجئون الى كل الملاهى النزيهة لكى ينعموا بفراغهم دون ملل ، لم أغفل أن أستمر فى مطلبى وأن أستفيد فى معرفة الحقيقة ، فائدة ربما كانت أكثر مما لو لم أفعل شــيئا غــير قراءة الكتب أو التردد على أهل الأدب ٠

وعلى كل حال فقد انقضت تلك السنوات التسع قبل أن أستقر على رأى فى المعضلات التى هى فى العادة موضوع نزاع بين العلماء (٢) ، وقبــل أن أبحث عن

---

(١) أى فى مبحث انكسار الأشعة وعلم الأنواء وهما موضوعان عالجهما ديكارت مع الهندسة واصدر الثلاثة فى كتاب واحد سنة ١٩٣٧ مع المقال ٠

(٢) أى علماء العصور الوسطى ٠

قواعد أى فلسفة أكثر يقينا من الفلسفة الذائعة (١)٠
وان تجربة الكثيرين من أهل العقول الفائقة ، الذين
التمسوا من قبل مطلبى ، ولم يفلحوا فيه على ما بدا لى،
جعلتنى أتخيل فيه الصعوبة ، بحيث ربما لم أكن لأجرؤ
على الشروع فيه بتلك السرعة ، لو لم أر أن البعض قد
أذاعوا أننى وصلت بالمطلب الى غايتى ، ولست أدرى
على أى شىء أسسوا هذا القول ، واذا كان لى أثر فى هذا
القول بأقوالى فلابد أن ذلك كان فى اعترافى ـ بما كنت
أجهل ـ فى سذاجة أصرح مما اعتاده الذين درسوا
قليلا ، وربما كان ذلك أيضا وأنا أبين أسباب شكى فى
كثير من الأشياء التى يعتبرها الآخرون يقينية ولم يكن
فى تمدحى بأى علم (فلسفى) ولكنى اذ كنت من الشمم
بحيث آبى أن يحسبنى الناس على ما (٣١) لست عليه
رأيت وجوب الاجتهاد بكل طريقة فى أن أكون أهلا لما
وهبنى الناس من صيت ، وقد مرت ثمانى سنوات كاملة
منذ أن حملتنى تلك الرغبة على أن أبتعد عن كل الأماكن
التى أجد فيها بعض من أعرفهم ، وأن أنعزل هنا فى
بلد (٢) وطد فيه طول استمرار الحرب (٣) نظما

(١) أى فلسفة العصور الوسطى المعتمدة على آراء أرسطو

(٢) المقصود هولندا ٠

(٣) بدأت تلك الحروب بالثورة على أسبانيا طلبا للانفصال عنها سنة ١٥٧٢ وانتهت بمؤتمر منستر Munster سنة ١٦٤٨ ٠

(جيدة) ، حتى ان الجيوش التى يحتفظ بهـا فى ذلك البلد تبدو كانهـا لاتسـتخدم الا فى أن ينعم الناس بثمرات السلام فى كثير من الطمأنينة ، وحيث استطعت فى غمرة شعب كبير جم النشاط ، يعنى بأعماله أكثر من تطلعه الى أعمال الآخرين ، بدون أن أحرم أى رخاء مما يوجد فى المدن الغاصة بالنازلين ، ان أعيش منفردا ومنعزلا كما لو كنت فى أقصى الصحارى ٠

القسم الرابع

لست أدرى ان كان يجب على أن أحدثكم عن تأملاتى الأولى هناك (١) ، لأنها أدخل فى عالم من المجردات (٢) وأبعد عن متناول الجمهور بحيث قد لا يسيغها ذوق الناس جميعا . ومع ذلك ، لكى يستطاع الحكم فيما اذا كانت الأصول (٣) التى اعتبرتها هى على قدر من الوثاقة كاف ، وجدتنى شبه مضطر الى آن أتحدث عنها : لاحظت منذ زمان طويل أنه فيما يختص بالاخلاق (٤) ، فان المرء محتاج بعض الأحايين الى أن يتبع آراء يعرف أنها موضوع للشك ، كما لو كانت لا تحتمل شكا ، وقد سبق القول فى ذلك (٥) ولكن نظرا لرغبتى اذ ذاك فى آن أفرغ للبحث عن الحقيقة ، رأيت أنه يجب

---

(١) فى هولندا

(٢) فى النص الفرنساوى si métaphysiques وقد نقل جلسون عن معجم الاكاديمى الفرنسية (١٦٩٤) أن هذه الكلمة كصفة تفيد أحيانا معنى التجريد انظر التعليق ٤ ص ٢٨٣ .

(٣) فى النص اللاتينى « أصول فلسفتى » .

(٤) فى الفقرة الثالثة من الجزء الأول من المبادىء ٦ التى عنوانها « فى أنه لا يجب علينا أن نستعمل هذا الشك فى تصريف أعمالنا » يبسط ديكارت قولا شبيها بالذى يورده هنا .

(٥) فى الحكمة الثانية من الأخلاق المؤقتة فى القسم الثالث من المقال .

على أن أفعل نقيض ذلك ، وأن أنبذ كل ما أستطيع أن أتوهم فيه أقل شك ، على أنه باطل على الاطلاق ، وذلك لأرى أن كان لا (٣٢) يبقى فى اعتقادى بعد ذلك شىء لا يتحمل الشك • وكذلك لما كانت حواسنا تخدعنا أحيانا ، (١) أردت أن أفرض أنه ليس من شىء هو فى الواقع كما تجعلنا الحواس نتخيله • ولأن من الناس من يخطئون فى التفكير ، حتى فى أبسط أمور الهندسة ، ويأتون فيها بالمغالطات (٢) ، فأننى لما حكمت بأننى كنت عرضة للزلل مثل غيرى ، نبذت فى ضمن الباطلات كل الحجج التى كنت أعتبرها من قبل فى البرهان ، ثم لما رأيت أن نفس الأفكار ، التى تكون لنا فى اليقظة ، قد ترد علينا أيضا ونحن نيام ، دون أن تكون واحدة منها اذ ذاك حقيقة (٣) اعتزمت أن أرى أن كل الأمور التى دخلت الى عقلى ، لم تكن أقرب الى الحقيقة من خيالات • ولكن سرعان ما لاحظت أنه ، بينما كنت أريد أن أعتقد أن كل شىء باطل فقد كان حتما

---

(١) يقول فى التأملات الأولى ١٢ « شاهدت بعض الأحايين أن هذه الحواس تخدعنا ، ومن الحزم ألا نثق البتة تمام الثقة فى الذى يخدعنا مرة واحدة » •

(٢) المغالطة قياس فاسد : اما من حيث مادته ، واما من حيث صورته •

(٣) الفرق لدى ديكارت بين الحلم واليقظة فى حظهما من الحقيقة « أن الذاكرة لا تستطيع أن تصل الأحلام بعضها مع بعض ومع مجرى حياتنا كما هو شأنها فى أصل الأشياء التى تحصل لنا ونحن فى اليقظة » التأملات السادسة ١٢ •

بالضرورة أن أكون أنا صاحب هذا التفكير ، شيئا من الأشياء ، ولما انتبهت الى أن هذه الحقيقة : **أنا أفكر أذن فأنا موجود** (١) ، كانت من الثبات والوثاقة (واليقين) بحيث لا يستطيع اللاأدريون زعزعتها ، بكل مافي فروضهم من شطط بالغ ، حكمت أنى أستطيع مطمئنا أن آخذها مبدأ أول للفلسفة التي أتحراها ٠

ثم لما اختبرت بانتباه ماكنت عليه ، ورأيت أننى قادر على أن أفرض أنه لم يكن لى أى جسم ، وأنه لم يكن هناك أى عالم ، ولا أى حيز أشغله ، ولكننى لست بقادر ، من أجل هذا ، على أن أفرض ، أننى لم أكن موجودا ، بل على نقيض ذلك ، فان نفس كونى أفكر فى الشك فى حقيقة الأشياء الأخرى ، يستتبع استتباعا جد واضح وجد يقينى أننى كنت موجودا ، فى حين أنه لو كففت

---

(١) أ٠ معنى التفكير ٠ يقول ديكارت فى التأملات الثانية ١٢ « اننى شيء مفكر Res cogitans ٠ وما هو هذا الشيء المفكر ؟ انه شيء يشك ويفهم ويثبت وينفى ويريد ولا يريد ويتخيل أيضا ويحس » وكذلك يقول فى التأملات الثالثة ١٢ « اننى شيء يفكر ، أى يشك ، وينفى ويعرف من الأشياء قليلا ويجهل منها الكثير ، ويحب ، ويكره ، ويريد ولا يريد ، يتخيل أيضا ويحس » ويقول أيضا فى ردوده على الاعتراضات الثانية ١٢ التعريف الأول « أعنى بكلمة الفكر Cogitatio أو Pensée كل ما هو فينا بحيث نكون على وعى به مباشرة وهكذا فعمليات الارادة والفهم والخيال والحس هى أفكار ولكننى أوردت كلمة مباشرة عن قصد كى أبعد كل ما يتبع أفكارنا أو يعتمد عليها فمثلا ، الحركة الارادية هى فى الحقيقة فكر باعتبار مبدئها ، ولكنها ليست فكرا بذاتها » ويقول كذلك فى الفقرة التاسعة من الجزء الأول من المبادىء ٦ أعنى بكلمة التفكير Penser كل ما يحصل فينا =

عن التفكير وحده ، وكان كل مابقي مما فرضته حقا ، لم يكن (٣٣) لى مسوغ للاعتقاد بأننى كنت موجودا (١) :

= بحيث ندركه مباشرة بأنفسنا ، ولهذا فليس الفهم والارادة والخيال وحدها ولكن الحس أيضا كلها تفسير » وبالجملة فالتفكير عند ديكارت معناه أن يكون المرء واعيا على العموم .

(ب) القضية من الوجهة المنطقية . زعم جاسندى Cassendi ان انا افكر . اذن فانا موجود قياس . وأن ديكارت أضمر مقدمته الكبرى وهى « وكل مفكر موجود* . واذا كان الأمر كذلك فلا يصح أن تكون الحقيقة أنا أفكر اذن فانا موجود مبدأ أول مادامت تعتمد على صحة المقدمة الكبرى المضمرة . على أن ديكارت أجاب عن ذلك الاعتراض بأن مبدأه ليس قياسا وانما هو بداهة أو « تبصر بسيط للنفس » ويرجع السبب فى اعتبار ذلك المبدأ قياسا الى وجود كلمة اذن Ergo أو Donc فيه التى تستعمل عادة فى القياس وقد حل اسبينوزا ذلك الاشكال باقتراحه التعبير عن هذا المبدأ بهذه العبارة Ego sum cogitans اى أنا مفكر (راجع هملان الكتاب المذكور قبلا الفصل التاسع وكينو فيشر حياة ديكارت ومذهبه ١٠ ص ٤٠١ ومايليها وجلسون فى تعليقه ٤ ص ٢٩٢ ومابعدها وبرنشفيك المقال المذكور سابقا ١٧ ص ٣١٥) .

(*) يسمى ذلك النوع من القياس بقياس الضمير وهو بالفرنسية Enthymène « وهو قياس طويت مقدمته الكبرى اما لظهورها والاستغناء عنها كما جرت العادة فى التعاليم كقولك أ ب ، أ ج خرجا من المركز الى المحيط فينتج أنهما متساويان وقد حذفت الكبرى واما لاخفاء كذب الكبرى ، اذا صرح بها كلية كقول الخطابى هذا الانسان يخاطب العدو فهو اذا خائن مسلم للثغر ولو قال وكل مخاطب للعدو فهو خائن لشعر بما يناقض به قوله ولم يسلم » ابن سينا النجاة ص ٩١ طبع القاهرة ١٣٣١ .

(١) التفرقة بين النفس عن البدن . هذه الحجة التى أوردها هنا ديكارت لبيان استقلال النفس عن البدن ، أى لاثبات أن وجودها غير متوقف على وجوه يراها البعض مستمدة من القديس أوغسطينوس Augustinus وأول من قال بذلك هو الدكتور أرنولد Arnauld فى الاعتراضات الرابعة ١٢ ولكن ديكارت لم يجب عليه فى هذا الشأن بأكثر من شكره على « المعونة التى أمده بها وذلك بتأييده بحجة القديس اوغسطينوس » الردود على الاعتراضات الرابعة ١٢ وكذلك انظر كينو فيشر حياة =

= ديكارت وعلمه ومذهبه ١٠ ص ٢٩٦ ومابعدها وجلسون فى تعليقه ٤ ص ٢٦٥ ومابعدها على أن القائلين بذلك لم يقولوا بأن ديكارت نقل عن القديس أوغسطينوس نقلا بل لم يزيدوا على ملاحظة بعض وجوه التشابه بين أفكار الفيلسوفين · وقد ظهر هذا التشابه ضئيلا جدا أمام البعض حتى أهمله ومن هؤلاء هملان الذى يقول « وجه ديكارت جهده الى معضلة التفرقة بين النفس والبدن وذلك بتناوله المسألة فى ذاتها واستعان لحلها بحجة لا تختص الا به **Qui n'appartient qu'à lui** مذهب ديكارت ٣ ص ٢٥٤ وهو يقصد تلك الحجة التى نعلق عليها الآن لأن لديكارت حجتين غيرها لا يجادل لا يجادل أحد فى أنه استمدهما من سابقيه (انظر المقدمة) ·

على أننا نعتقد أن نفس حجة ديكارت التى يقول عنها هملان أنها لا تختص الا به ، قد أوردها من قبله ابن سينا فى الشفاء فقال « فنقول يجب أن يتوهم الواحد منا كأنه خلق دفعة وخلق كاملا ولكنه حجب بصره عن مشاهدة الخارجات وخلق يهوى فى هواء أو خلاء هويا لا يصدمه فيه قوام صدما ما يحوج الى أن يحس وفرق بين أعضائه فلم تتلاق ولم تتماس ثم يتأمل أنه هل يثبت وجود ذاته فلا يشك فى اثباته لذاته موجودا ولا يثبت مع ذلك طرفا من أعضائه ولا باطنا من أحشائه ولا قلبا ولا دماغا ولا شيئا من الأشياء من خارج بل كان يثبت ذاته ولا يثبت لها طولا ولا عرضا ولا عمقا ولو أنه أمكنه فى تلك الحال أن يتخيل يدا او عضوا آخر يتخيله جزاء من ذاته ولا شرطا فى ذاته · وأنت تعلم أن المثبت غير الذى لم يثبت والمقرب غير الذى لم يقرب فان للذات التى أثبت وجودها خاصية لها على أنها هو بعينه غير جسمة وأعضائه التى لم يثبت فاذن المثبتـــة له سبيل الى ثبته على وجـود النفس شـــيئا غير الجسم بل غير جسم وأنه عارف به مستشعر له وان كان ذاهلا عنه يحتاج أن يقرع عصاه » ص ٢٨١ ، ٢٨٢ من طبعة طهران · ويعود أيضا فيقول فى نفس الكتاب « ولنعد ما سلف ذكره منا فنقول : لو خلق انسان دفعة واحدة وخلق متباين الأطراف ولم يبصر أطرافه واتفق ان لم يمسها ولا تماست ولم يسمع صوتا جهل وجود جميع أعضائه ويعلم وجود انيته شيئا مع جهل جميع ذلك وليس المجهول بعينه هو المعلوم وليســـت هذه الأعضاء لنا فى الحقيقـــة الا كالثياب ··· » ص ٣٦٣ · ويقول كذلك فى كتابه الاشارات والتنبيهات عند الكلام على النفس الأرضية والسماوية « ولو توهمت ذاتك قد خلقت أول خلقهـا صحيحة العقل والهيئة وفرض أنها على جملة من الوضع والهيئة بحيث لا تبصر أجزاءها ولا تتلابس أعضاؤها بل هى متفرجة ومعلقة لحظة ما فى هواء طلق وجدتها قد غفلت عن كل شىء الا عن ثبوت انيتها » ص ١١٩ من مطبـــوعة فورجيـــه =
= **Forget**

ولقد عرفت من ذلك أنني كنت جوهرا (١) كل ماهيته (٢) أو طبيعته ليست الا أن يفكر ، ولاجل أن يكون موجودا ،

=فى ليدن سنة ١٨٩٢ وكذلك جاء فى لباب الاشارات النمط الثالث فى النفس الأرضية والسماوية القسم الأول فى البحث عن ماهية جوهر النفس :

« * (تنبيه) * المشار اليه بقولى أنا ليس بجسم ، لوجهين : الأول أن جميع الأجزاء البدنية فى النمو والذبول المشار اليه بقولى أنا باق فى الأحوال كلها والباقى مغاير لغير الباقى . الثانى : أنى قد أكون مدركا للمشار اليه بقولى أنا حال ما أكون غافلا عن جميع أعضائى الظاهرة والباطنة فانى حال ما أكون مهتم القلب بمهم أقول أنا افعل كذا وأنا أبصر وأنا أسمع وأنا جزء من هذه القضية فالمفهوم من أنا حاضر لى فى ذلك الوقت مع انى فى ذلك الوقت أكون غافلا عن جميع أعضائى والمشعور به غير ما هو غير مشعور به فأنا مغاير لهذه الأعضاء . وان شئت أمكنك أن تجعل هذا برهانا على أن النفس غير متحيزة لأنى قد أكون شاعرا بجسمى أنا حال ما أكون غافلا عن الجسم فأنا وجب ألا يكون جسما » .

وقد بين الاستاذ فورلانى Furlani أن النصين اللذين اقتبسناهما من الشفاء كانا مترجمين الى اللاتينية وان الفيلسوف غليوم أوفرنى Auvergne قد نقلهما عنه مع ذكر اسم ابن سينا . وقال الاستاذ فالوا Valois فى كتابه عن أوفرنى الصادر فى باريس ١٨٨٠ عند الكلام عن الفكرة التى ينقلها هذا الأخير عن ابن سينا « توجد هذه التعبيرات تقريبا فى المقال عن المنهج » (انظر ابن سينا ومبدأ ديكارت انا أفكر ، اذن فانا موجود Avicennae il Cogiro Ergo Sum di Cartesio فى مجلة الاسلاميات Islamica المجلد الثالث الكراسة الاولى ص ٥٣ — ٧٢ فى ليبزج أبريل سنة ١٩٢٧) .

(١) يقول ديكارت « عندما نتصور الجوهر ، فانما نتصور شيئا موجودا بحيث لا يحتاج لأجل وجوده الا الى نفسه » المبادىء ج ١ الفقرة ٥١ وكذلك يقول : « يسمى جوهرا كل شىء يقوم فيه مباشرة كأنه فى موضوع ، ويوجد بواسطته شىء ما ندركه ، ومعنى ذلك أى خاصية ، سواء صفة أو نعت نحصل لها عندنا فكرة حقيقية » الردود على الاعتراضات الثانية ١٢ التعريف الخامس . ويميز ديكارت دائما بين الجوهر المفكر وهو النفس والجوهر المتحيز وهو الجسم على العموم .

(٢) يستعمل ديكارت الماهية أو الطبيعة كمترادفين (انظر جلسون التعليق ٤ ص ٣٠٥) . ويعنى ديكارت بالماهية Essence « الشىء كما هو فى العقل » نص اقتبسه من الرسائل ليارد فى تعليقه على المبادىء ٦ الجزء الأول ص ٤٠ وهذا ما يطابق استعمال لفظة الماهية عند فلاسفة العرب .

فانه ليس في حاجة الى أى مكان ولايعتمد على أى شيء مادي ٠ بحيث أن الأنية ، أى (النفس (١) التى أنابها، هى متمايزة تمام التمايز عن الجسم ، بل وهى أيسر أن تعرف (٢) وأيضا لو لم يكن الجسم موجودا البتة لكانت النفس موجودة كما هى بتمامها (٣) ٠

---

(١) فى النص الرنسى وردت كلمة âme اى الروح ولكننا نقلنا هنا عن النص اللاتينى حيث جاءت كلمة Mens اى النفس ولم تات كلمة Anima وهى ما تقابل فى اللاتينية كلمة Ame فى الفرنسية ٠ ولقد حدد ما يقصده بكلمة النفس فى التعريف السادس من الردود على الاعتراضات الثانية ١٢ فقال :

« الجوهر الذى يحل فيه الفكر مباشرة يسمى هنا بالنفس ٠ وانا أقول هنا النفس Mens ولا أقول الروح Anima ، لأن الكلمة الأخيرة تدعو للبس ، اذ تطلق غالبا للدلالة على شيء جسمى » ٠ (انظر جلسون التعليق ٤ ص ٢٠٧ و ٣٠٨) ويظهر أن هملان اخذ الكلمة Ame كما وردت فى المقال وقال أن ديكارت وقع باستعمالها فى خلط كبير وكان عليه أن يستعمل كلمة أفكر أو معرفة بدلا من كلمة روح (راجع ملهب ديكارت ٣ ص ١٠٦) ، على اننا نعتقد خطأ ديكارت لغوى محض وعذره فى ذلك حداثة عهد اللغة الفرنسية فى أيامه بالعلم ، والدليل على ذلك أنه لم يقع فى نفس الخطأ فى الترجمة اللاتينية التى راجعها وأقرها كما أن المترجم الفرنسى لكتابه المبادىء ٦ كثيرا ما يستعمل كلمة Ame للدلالة على نفس المعنى المقصود فى المقال ٠ كما فعل فى الفترة الحادية عشرة من الجزء الأول ٠

(٢) هذا القول نتيجة منطقية لمبدئه أنا أفكر ، اذن فأنا موجود ولتعريفه النفس بأنها جوهر مفكر فالنفس اذن أسهل معرفة من البدن لأن البدن لا يمكن معرفته الا بالنفس واذن فمعرفتها سابقة لمعرفته ٠ وهو يقول للتدليل على ذلك فى الفقرة الحادية عشرة من ج ١ من المبادىء ٦ « اذا كنت أقتنع أن هناك أرضا لأنى ألمسها أو لأنى أبصرها ، فمن ذلك عينه ، وبدليل أقوى بكثير ، يجب على أن أقتنع بأن فكرى كائن أو موجود ، حتى ولو جاز عدم وجود أرض ما فى العالم وأنه لا يمكن انيتى أى نفسى لا تكون شيئا ما حينما يحصل عندها ذلك الفكر » ٠ أرجع أيضا الى التأملات الثانية ١٢ ٠

(٣) يعتمد ديكارت فى ذلك على المبدأ الذى أثبته فى مذهبه وهو أن الأشياء

وبعـد ذلك ، بحثت فيما يلزم للقضـية كي تكون حقيقية ويقينية ، لأنني لما كنت وجدت قضية علمت أنها كذلك ، فكرت في أنه واجب على أن أعـرف مم يتكون هـذا اليقين • لاحظت أنه لاشيء في هـذه القضـية : **أنا أفكر ، اذن فأنا موجود** ، يجعلني أثق من أني أقول الحـق ، الا كوني أرى بكثير من الجـلاء لأجـل التفكير ، فالوجود واجب : فحكمت بأنني أستطيع أن أتخذ قاعدة عامة ، أن الأشياء التي نتصورها تصـورا قوى الوضوح والتميز ، هي جميعـا حقيقية ، غـير أن هنـاك بعض الصـعوبة في أن نبين ماهي الأشـياء التي نتصـورها متمايزة •

وبعد ذلك ، فانني لما فكرت في شكوكي ، وأن مؤدى هذا أن ذاتي لم تكن تامة الكمال ، لأنني تبينت أن المعرفة كمال أكبر من الشك ، رأيت أن أبحث أني تعلمت أن أفكر في شيء أكمل مني ، وعرفت يقينا أن ذلك يجب أن

التي نتصورها متمايزة جلية هي حقيقية وعلى ذلك فيفسر قوله بوجود النفس اذا فرض عدم وجود الجسم بما يأتي (١) اثباته السابق على أننا عنـد اغفال الجسم نظل مدركين لوجودنا (انظر ص ٥٢ و ٥٣) (٢) مادمنا ندرك الشيء جليا متميزا فهو حقيقي لأنه يستحيل على الله أن يخدعنا • (٣) التوحيد بين الحقيقة في الذهن وفي الأعيان كما كان يقول بذلك علماء العصور الوسطى (راجع مبادىء الفلسفة ٦ ج ١ الفقرة ٦٠ ومابعدها) •

يكون ذا طبيعة هي في الواقع أكمل (١) • ما ماكان عندى من تفكيرات في أشياء كثيرة (٣٤) أخرى خارجة عنى مثل السماء ، والأرض ، والضوء ، والحرارة ، وألف شيء آخر ، فلم أتعب كثيرا في معرفة من أين جاءت ، ذلك لأني اذ لم الاحظ فيها شيئا يجعلها في نظرى أسمى مرتبة منى ، استطعت أن أعتقد أنها ، اذا كانت حقيقية (٢) فانها من توابع طبيعتى ، من جهة أن طبيعتى لها شيء من الكمال ، وأن هذه الأشياء ان لم تكن كذلك ، فانني أكون استمددتها من العدم ، أى أنها كانت حاصلة عندى من جهة ما في من نقص • ولكن الأمر لايمكن أن يكون على هذا النحو فيما يختص بفكرة وجود أكمل من وجودى : لأن استمداد تلك الفكرة من العدم ، أمر جلى الاستحالة ، لأن التناقض الواقع في أن الأكمل يكون لاحقا وتابعا لما هو أقل كمالا ، ليس أقل من التناقض الواقع في أنه يحدث شيء ما من العدم ، اذن فأنا لاأقدر أيضا على أن أستمد هذه الفكرة من نفسى (٣) • وعلى ذلك بقى أن تكون هذه الفكرة قد

---

(١) هذا نتيجة لمبدأ العلية الذى يقبله ديكارت وهو « لا يكون في المعلول ما ليس في العلة » الردود على الاعتراضات الثانية ١٢ •

(٢) يعنى بقوله حقيقية أن لها وجودا في الاعيان اى موجودة في الخارج •

(٣) تصبح الفكرة التى يبسطها ديكارت في هذه الصفحة مفهومة وواضحة =

ألقيت الى من طبيعة (١) هى فى الحقيقة أكثر منى كمالا، بل ولهـا من نفسـها كل الكمالات ، التى أستطيع أن أتصورها ، واذا أردت التعبير بكلمة واحدة ، عن تلك الطبيعة فان المراد بها الله ، وأضفت الى ذلك أنه بما أننى قد عرفت بعض الكلمات التى ليس لى شىء منها ، فاننى لست الكائن الوحيد الذى فى الوجود (وهنا سأستعمل بحرية ، ان كان يرضيكم هذا ، كلمات المدرسة) (٢) بل يجب بالضرورة أن يكون هناك كائن آخر أكثر كمالا ، أنا تابع له ، ومن لدنه حصلت على كل ما هو لى (٣) ، لأننى لو كنت وحيدا ومستقلا عن كل ماهو (٣٥) غيرى بحيث كان لى من نفسى كل هـذا

= اذا فطنا الى مبدئين ديكارتيين أساسيين . الأول أن ديكارت يبدأ دائما لا من الشىء فى الخارج وانما يبدأ من نفسه أى بمعرفته للشىء وتفكيره فيه :أنى أفكر Cogito . والثانى : أن للشىء وجودا عينيا (أى فى الخارج بصرف النظر عن الوجود فى الذهن) بقدر ما له من الكمال . ويجب وصل هذين المبدأين بقانون العلية الذى يعبر عنه بقوله « ان علة الوجود لأى شىء موجود بالفعل أو لأى كمال لشىء موجود بالفعل لا يمكن أن تكون لا شىء أو تكون شيئا غير موجود » البديهية الثالثة من ردوده على الاعتراضات الثانية ١٢ .

(١) فى النص اللاتينى « بواسطة كائن طبيعته كانت الخ » .

(٢) يقصد بقوله كلمات المدرسة اصطلاحات علماء العصور الوسطى التى لم تكن قد هضمتها اللغة الفرنسوية بعد (انظر جلسون التعليق ٤ ص ٣٣٢) .

القليل الذى أشارك (١) الذات الكاملة فيه ، لكنت اذن أستطيع أن أحصل من نفسى للسبب عينه على كل ماهو فوق ذلك مما أعرفه ينقصنى (٢) ، وبذلك أكون أنا نفسى غير متناه (٣) ، وأزليا أبديا (٤) ، وغير متغير (٥) ، وعالما بكل شىء ، وقادرا على كل شىء

---

(١) أى القليل من الكمال الذى ليس ذاتيا للانسان (أى ليس جزءا من ماهيته) ولكنه حاصل على جزء منه فهو يشارك الله فى ذلك لأن الله حاصل على كل الكمال .

(٢) يريد أن يقول انه ليس ليس علة لما له من القليل من الكمال .

(٣) يعتبر ديكارت هذا الاصطلاح موجبا أى أنه ليس سلبا متناه بل يقول ان « متناه » هى سلب « غير متناه » وذلك يقول (لا أستعمل البتة كلمة غير متناه للدلالة فقط على ما ليس له نهاية ، وهذا ما يكون سالبا وقد أطلقت عليه كلمة غير محدد Indéfini ، ولكن للدلالة على شىء حقيقى ، أعظم ، بدون موازنة . من كل الأشياء التى لها نهاية ما ، من كتاب له الى بعض أصدقائه مقتبس فى معجم الفلسفة ١١ للأستاذ لالاند فى مقالة غير متناه Infini وفى التأملات الثالثة ١٢ يقول انه لا يستعمل كلمة غير متناه سلبا لكلمة متناه كما يستعمل كلمة السكون لنفى كلمة الحركة والظلام لنفى النور لأنه يوجد فى الجوهر الغير المتناهى من الحقيقة أكثر مما يوجد فى الجوهر المتناهى ولأن فكرة الغير المتناهى سابقة عنده لفكرة المتناهى اذ كيف يمكن أن يعرف انه غير كامل ما لم يكن قد فكر من قبل فى ذات أكمل من ذاته عرف بمقارنتها عيوب طبيعته .

(٤) أزلى أى لا يقدر على تصور بداية له وأبدى أى لا يقدر على تصور انهاية له والكلمة الفرنسية éternel تفيد معنى الكلمتين أى ليس له مبدأ فى أوله كالقدم ولا انتهاء له فى آخره كالبقاء وهذه صفة ينفرد بها الله لأنه لا يفتقر فى وجوده الى موجود آخر فوجوده ليس له ابتداء ولن يكون له انتهاء .

(٥) لأن الحركة والتغير لا يكونان للذات الحاصلة على كل الكمالات .

وقصارى القول أن تكون لى كل الكمالات التى أستطيع أن ألحظ انهـا لله (١) لأنـه تبعـا للاسـتدلالات التى أوردتهـا (٢) ، فلكى أعـرف طبيعة الله ، على قـدر ماتستطيع طبيعتى ، فانه لم يكن على الا أن أتأمل فى كل الأشياء التى وجدت لها فى نفسى صورة ذهنية هل فى امتلاكها كمال أم غير كمال وقد أيقنت أن شيئا مما يفيد النقص منها ليس لله ، ولكن كل ماعدا ذلك ثابت له ٠ وكذلك رأيت أن الشك ، والتقلب ، والحـزن ، وماشابهها من الأمور ، لم تكن لتكون فيه ، اذ أننى أنا نفسى كنت أرتاح لأن أكون خالصا منها ٠ ثم انه عدا ذلك ، فلقـد كانت لى أفكار عن أشـياء كثيرة حسـية وجسمية ، لأنه مهما فرضت أننى كنت فى حلم ، وأن كل ماشاهدت أو تخيلت كان باطـلا فاننى لاأقدر على كل حال أن أنكر أن هذه الأفكار كانت على الحقيقة فى ذهنى ، ولكن لما كنت عرفت بوضوح كثير فيما مضى فى نفسى أن الطبيعة العاقلة متمايزة عن الجسمية ، وذلك

---

(١) عرف ديكارت الله بقوله « أعنى بالله جوهرا غير متناه ، أزليا أبديا ، غير متغير ، مستقلا ، عالما بكل شىء ، قادرا على كل شىء ، وهـو الذى خلقنى وخلق سائر الاشياء الأخرى (اذا كان يوجد منها حقيقة شىء ما) ٠

(٢) أى الخاصة باثبات وجود الله ٠

باعتبـارى آن كل مركب يـدل على تبعية (١) ، وان التبعية نقص بلا شك ، فاننى حكمت من هذا آنه لم يكن كمالا فى الله آن يكون مركبا من هاتين الطبيعتين (٢)، وعلى ذلك فهو لم يكن مركبا ، ولكن اذا كان فى العالم بعض الأجســام ، أو بعض العقــول (٣) ، أو طبــائع أخرى ، لم تكن تامة الكمال ، فان وجودها كان واجبا أن يعتمد على قدرته ، بحيث (٣٦) أنها جميعا لم تكن لتقدر على آن تقوم بدونه لحظة واحدة (٤) ·

---

(١) « لأن أجزاء المركب يعتمد بعضها على البعض الآخر فان الكل نفسه يعتمد على الآجزاء التى تكونه » جلسون التعليق ٤ ص ٣٣٩ ·

(٢) أى العاقلة والجسمية ·

(٣) « أى ملاكمة أو انسان » جلسون فى المكان المذكور ·

(٤) يقول ديكارات بنظرية الخلق المستمر فهو يرى أن حفظ الله للكائنات هو خلق وهذا راجع الى أنه يرى أن لحظات الزمن مستقل بعضها عن البعض الآخر فليس ينتج بالضرورة عن وجودى الآن وجودى فى اللحظة التالية مالم يشأ الله ذلك واذن فالحفظ والخلق عنده شىء واحد · انظر هملان ديكارت ٣ ص ١٩٣ و ٣٠٧ · وسنعود لكلام عن هـذه النظرية فى التعليق على القسم الخاص ·

ولقد بسط ديكارت حتى الآن دليلين لاثبات وجود الله فالاول يمكن ايجازه فى القول بانه استنبط من شكه أنه غير كامل اذ أن المعرفة أولى بالكمال من الشك ولكنه ماكان ليعرف أنه غير كامل لو لم لديه فكرة الكمال واذا فلابد من سبب لحضور تلك الفكرة فى ذهنه اذ أنه لا ينتج شىء من لاشىء ويجب أن يحتوى هذا السبب على كمال وحقيقة أكثر مما فى السبب عنه · وهذا السبب ليس هو نفسه لانة ليس كاملا كما أنه ليس العالم الخارجى لأنه لم يثبت بعد حقيقة وجوده ولأنه حادثة ولا يستطيع أن يقوم بنفسه · واذن فهو ليس بكامل واذن فليس السبب الا ذاتا لها كل الكمالات وهذه هى ذات الله · وأما الدليل الثانى وهو متصل بالأول فيتلخص فى القول=

أردت بعد ذلك أن أبحث عن حقـائق أخرى ، ولما كنت قد اخترت موضوع أصحاب الهندسة ، الذى كنت أتصوره جسما متصلا ، أو حيزا لا يتناهى امتداده فى الطول والعرض والارتفاع أو العمق ، قابلا للانقسام الى أجـزاء مختلفة ، يمكن أن تتخذ أشـكالا وأحجاما مختلفة ، وأن تحرك أو تنقل على جميع الوجوه ، لأن أصحاب الهندسة يفرضون ذلك كله فى موضوع علمهم، فانى تصفحت بعض مايستعينون به من أبسط براهينهم اذ لاحظت أن مايعزوه اليها الناس من أنها جد يقينية ، انما يقوم على أنها تتصور بجلاء ، تبعا للقاعدة التى ذكرتها غير بعيد (١) ، فاننى لاحظت أيضا أنه لاشىء فيها البتة يجعلنى على ثقة من وجود موضوعها (٢) ،

بأنه عرف أنه غير كامل ولكنه يمتلك فى ذهنه فكرة الكمال وقد عرف أيضا أنه ليس علة وجود نفسه لانه اذا كان هو العلة لوجود نفسه كان ممكنا أن يكون أكثر كمالا مما هو لان الارادة تنزع للخير الاعظم فيجب اذن أن تكون العله لوجوده ذاتا لها كل الكمالات وهذه هى الله ، والاستاذ فيشر يسمى هذا Anthropologische Beweis الدليل الانسانى ويراه أساسا للدليلين الآخرين أى الدليل الاول ويسمية بالدليل التجريبى Empirische والدليل الوجودى الذى سيتكلم عنه ديكارت عن قريب ويرى كذلك أنه « هو الدليل الديكارتى الحق لاثبات وجود الله » ٠ أنظر حياه ديكارت وعمله ومذهبه ص ٣١٥ ومابعدها ٠

(١) أى « أن الاشياء التى نتصورها بجلاء وتمايز كثيرين هى جميعا حقيقية » ٠

(٢) أى « الجسم المتصل المتحرك الذى هو موضوع البراهين الهندسية » جلسون التعليق ٤ ص ٣٤٧ ٠

فاننى مثـلا أرى أنه اذا فرضت مثلثا ، لزم أن تكون زواياه الثلاث مساوية لزاويتين قائمتين ، ولكن ليس فى هذا مايجعلنى أستيقن أن فى العالم مثلثا ، ذلك على حين أننى عندما عدت الى امتحان ما عندى من الصورة الذهنية لموجود كامل ، ألفيت أن الوجود كان داخلا فيها على الوجه الذى يدخل به فى الصورة الذهنية لمثلث أن زواياه الثلاث مسـاوية لقائمتين ، أو كمـا يدخل فى الصورة الذهنية لدائرة أن كل أجزاء محيطها متساوية البعد عن مركزها بل وهو أكثر من هـذين وضوحا ، وينتج عن ذلك أن كون الله ، الذى هو هـذا الموجـود الكامل ، موجودا على الأقل مساو فى اليقين لخير مايمكن أن يكون برهانا هندسيا (١) ٠

---

(١) أطلق كانت على هذا الدليل اسم الدليل الوجودى Ontologische Beweis فأصبح بعد ذلك معروفا بهذا الاسم (انظر نقد العقل الخالص Kritik der reinen vernuntf الكلام فى استحالة دليل وجودى على وجود الله ص ٥٩٢ وما بعدها من الطبعة الاولى سنة ١٧٨١ و ص ٦٢٠ وما بعدها من الطبعة الثانية سنة ١٧٨٧) وجملة هذا الدليل أن الله كامل اذن فهو موجود لأن الكمال يتضمن الوجود كما يتضمن مفهوم المثلث أن زواياه الثلاث مساوية لزاويتين قائمتـين ٠ واعترض جاسندى على ديكارت بأن الوجود ليس كمالا ٠ واصل الاختلاف بينه وبين ديكارت أن ديكارت يبدأ كما نعرف من التفكير لاثبات الوجود أنا أفكر Cogito أى أن الوجود الخارجى عنده تابع للماهية أما عند جاسندى فالماهية منتزعة من الوجـود العينى ، ويقول ديكارت أنه يستحيل أن نتصور شيئا له كل الكمالات وليس له وجود اذ أن التناقض ظاهر فى ذلك ٠ (راجع التأملات السادسـة ١٢) على أن نقد كانت أقوى من نقد جاسندى فهو يقول « من البين أن الوجود ليس محمولا =

(٣٧) ولـكن السبب فى أن الكثيرين يعتقـدون بالصعوبة فى معرفة ذلك ، بل معـرفة ماهى نفسـهم

= حقيقيا . أى ليس تصورا لشىء ما يمكن اضافته الى تصور لشىء Ein Begriff von irgend etwas, was zu dem Begriff eines Dinges hinz ~ okommen Konne الكتاب المذكور ص ٤٩٨ من الطبعـة الاولى و ٦٢٦ من الطبعة الثانية ويفسر ذلك بأن الوجود هو مجرد الرابطة فى الحكم أن ما يربط المحمول بالموضوع فقولك الله هو قادر على كل شىء قضية تشتمل على تصورين الأول الله والثانى قادر على كل شىء أما كلمة هو (وفى اللغات الاوربية يستعمل فعل الكينونة فهو فى هذا المثال ist أى يكون ولما لم يكن فى العربية هذا الاستعمال قلنا للدلالة على الحكم بدلا من الفعل يكون ist فليست محمـولا وانما هى تقيم العلاقة بين المحمول والموضوع . وعلى ذلك فهو يقول . ان القائلين باثبات وجود الله ، اعتمادا على تصورنا له ، هم بين أن يقعوا فى التناقض المنطقى أو الدور . ذلك بأن تصور الله ، الذى هو موضـوع القضـية ، ان كل متضمنا للوجود ، فالاستدلال به على الوجود استدلال على الشىء بنفسه وهو الدور ، وان كان تصور الله خلوا من الوجود ، فالوجود اذن فى المحمـول فيكون أحد طرفى القضية المتساوية الطرفين متضمنا للوجود والطرف الآخر خلوا منه والحكم على هذا النحو تناقض فى المنطق .

ولكن هذا النقد انما يتوجه به على غير ديكارت (لأن الدليل الوجودى كان معروفا قبل ديكارت) لأن موضع هذا البرهان من مذهب ديكارت يحميه لأن مبدأ تحقق الأشياء عند ديكارت هو فى العقل ، ولا معرفة يقينية عنده الا ما ذهب من العقل الى الحس . ثم ان الوجود يصح أن يكون محمولا لأنه ليس مستمدا من التجربة والحواس بل هو مستمد من العقل . وهو يرى أنه « حينما نقول ان لازما تحتوى عليه طبيعة أى شىء أو تصوره ، فهذا كما لو نقول انه حقيقى لذلك الشىء أو ممكن اثباته له » الردود على الاعتراضات الثانية ١٢ التعريف التاسع .

ودفع تهمة وقوعه فى الدور بقوله « .. اننى لم أقع فى الخطأ الذى يسميه المناطقة بالمصادرة على المطلوب ، فان اعتبار الوجود من لوازم ماهية الله لا يزيد على اعتبار مساواة زواياه المثلث الثلاث مساوية لقائمتين » . من كتاب له اقتبسه هملان فى مذهب ديكارت ص ٢١٣ . راجع للدفاع عن ديكارت ضد كانت وجاسندى هملان الكتاب المذكور ص ٢١٢ وما بعدها وجلسون التعليق ٤ ص ٣٤٧ وما بعدها وبرنشفيك الرياضة وما بعد الطبيعة عند ديكارت ١٧ ، ٣٠٨ وما بعدها .

أيضا ، هو أنهم لايرفعون عقولهم قط الى مافوق الأشياء المحسوسة ، وأنهم تعودوا ألا يعتبروا شيئا من الأشياء الا اذا تخيلوه (١) وهـذه طـريقة فى التفكير خاصة بالأشياء المادية ، حتى ان كل مالايمكن تخيله يبدو لهم غير قابل لأن يفهم · وهذا بين من أن الفلاسـفة (٢) أنفسهم يتخذون شعارا لهم فى المدارس أنه لاشىء فى العقل لم يكن أولا فى الحس (٣) ، ومع ذلك فانه ليقينى أن الصورتين الذهنيتين لله والنفس (الناطقة) لم تكونا قط فى الحس · ويبـدو لى أن الذين يـريدون أن يستعينوا على فهمهـا بخيـالهم ، يفعلون كما لو أنهم أرادوا الاستعانة بعيونهم على سماع الأصوات ، أو شم الروائح · الا أن هناك هذا الاختلاف ، وهو أن حاسة البصر لاتؤكد لنا تحقق الأمور التى يختص بادراكها ،

---

(١) انظر التعليق على كلمة الخيال فى القسم الخامس ·

(٢) يقصد فلاسفة العصور الوسطى ·

(٣) اشارة الى الكلمة المشهورة فى العصور الوسطى « لا شىء فى العقل لم يكن أولا فى الحس Nihil est in intellectu quod prius non fuerit in sensu وكان هذا المذهب معروفا عند العرب ومن أنصاره أبو حامد الغزالى الذى يعبر عنه بقوله « لا يحل فى العقل الا ما يحل فى الحس » تهافت الفلسفة طبعة القاهرة ١٣٢١ ص ٧٨ ويقول الاستاذ فورلانى Furlani ان هذه الكلمة انتقلت الى أوربا عن طريق العرب · انظر مقالته المذكورة سابقا ابن سينا ومبدأ ديكارت أنا أفكر اذن فأنا موجود فى مجلة Islamica المجلد الثالث الكراسة الاولى ص ٦٨ ·

أقل ممـا تفعل حـواس الشم والسـمع ، فى حين أنه لايستطيع خيالنا ولا حواسنا أن تجعلنا نتأكد من شيء ، اذا لم يتوسط عقلنا فى ذلك .

وأخيرا ، اذا كان هنـاك بعض من النـاس من لم يقتنعوا اقتناعا كافيا بوجـود الله ووجـود أنفسهم ، بالحجج التى أوردتها ، فانى أريد أن يعـرفوا أن كل الأشياء الأخرى التى يرون أنهم أكثر وثوقا بها ، وذلك مثل أن يكون للمرء جسم ، وأن توجد الكواكب والأرض ، وماشابهها من الأمور ، هى أقل ثبوتا ، لأنه مع أن للمرء (ـ كما يقول الفلاسفة ـ) ثقة أخلاقية (١) بهـذه الأشياء ، التى يبدو معها أن المرء لايقدر على الشك فيها الا اذا كان مسرفا (٣٨) ، ومع ذلك أيضا ، فعندما يكون المرء بصدد يقين ميتافيزيقى (٢) ، فانه لايقدر ،

---

(١) يفسر ديكارت ذلك بقوله « .. سوف أميز هنا بين نوعين من اليقين الأول يسمى أخلاقيا ، أى كافيا لتدبير شئوننا الخلقيـة ، أو هو مثل يقيننـا بالأشياء التى تمس السلوك فى الحياة لم نعتد قط أن نشك فيها ، مع أننا نعرف انه قديجوز أن تكون باطلة على الاطلاق . وهكذا فان الذين لم يذهبوا البتة الى رومة لا يشكون فى أنها مدينة فى ايطاليا ، مع أنه يجوز أن كل الذين عرفوهم بها ربما خدعوهم . وأما اليقين الثانى فهو عندما نرى أنه يستحيل أن يكون الشيء غير ما نحكم به » من مبادىء الفلسفة اقتبسه جلسون فى تعليقه ٤ ص ٣٥٨

(٢) هذا هو النوع الثانى من اليقين الذى تكلم عنه فى النص الذى اقتبسناه من مبادىء الفلسفة .

الا اذا كان محـروما من العقل ، على انكار أنه يكفى علة لنفى كمال اليقين ، أن يلاحظ أنه من المسـتطاع على هذا الوجه أن يتخيل النائم ، أن له جسما آخر ، وأنه يبصر كواكب أخرى ، وأرضا أخـرى ، دون أن يكون من ذلك شيء . لأنه من أين للمرء أن يعرف أن الفكر التى ترد اليه فى الحلم هى أقرب الى البطلان من الفكر الأخرى ، مع أنها فى أكثر الأحـايين ليست أقل قوة ووضوحا ، ومع أن خيرة العقلاء يبحثون فيها ماشاءوا ثم لايستطيعون ــ فيما أعتقد ــ أن يقيموا حجة واحدة كافية لنزع هذا الشك ، مالم يفرضوا قبلا وجود الله : أولا : لأن هذا الذى قررته ، هـو الذى اتخـذته غير بعيد قاعدة ، أى أن الأشياء التى نتصورها جد واضحة وجد متمايزة هى جميعا حقيقة ، هذا الذى جعلته أولا قاعدة ليس ثابتا الا لأن الله كائن أو موجود وأنه ذات كاملة ، وأن كل مافينا يصدر عنه (١) .

ويتبع ذلك أن صورنا الذهنية ومعارفنا لما كانت موجودات خارجية (٢) صادرة عن الله فهى بما هى به

---

(١) هذا ما يسمى بالسند الالهى لصحة الحقائق التى نتصورها بتمايز وجلاء فان الله لما كان له كل الكمالات يستحيل عليه أن يخدعنا (انظر المقدمة) .

(٢) ترجمنا فى هذا القسم كلمة idée بكلمة صورة ذهنية لتميز معناها عند ديكارت عن معنى كلمة صورة لأن الصورة من ادراكات الخيال وهى ما لابد =

واضحة متمايزة ، لايمكن أن تكون الا حقيقة بحيث أنه ، اذا كان كثيرا مايكون فى تلك الصور الذهنية أو المعارف مايحتوى على بطلان ، فذلك لايمكن أن يكون الا فى ماكان منها محتويا على شيء ذى غموض وابهام ، فانها فى هذا تشارك العدم ، أعنى أنها ليست فينا بهذه المثابة من الغموض الا لأن كمالنا ليس تاما من كل وجه • وظاهر أن التناقض فى أن البطلان أو النقص يصدر عن الله ، بهذا الاعتبار ، ليس أقل (٣٩) من التناقض فى أن الحقيقة أو الكمال يصدر عن العدم • ولكن اذا لم نعرف أن كل مافينا من واقعى وحقيقى ، يأتى من ذات كاملة وغير متناهية ، فمهما كانت صورنا

لوجوده من مادة أو جسم بينما يقصد ديكارت بالصورة الذهنية مما يتضح من قوله « أعنى بكلمة الصورة الذهنية مثال الشيىء الذى بحضوره فى نفس المدرك يعرف الشيء ، بحيث لا أستطيع أن أعبر عن أمر من الأمور بالفاظ ، عندما أفهم ما اقول ، الا كنت بنفس التعبير مثبتا أن الأمر تعبر عن الألفاظ متمثل فى نفسى • وهكذا لا أدعو الصور الحسية المنقوشة فى الخيال باسم الصور الذهنية ، بل بالعكس فانا لا ادعوها قط بهذا الاسم مادامت فى الخيال أى مادامت منطبعة فى بعض أجزاء المخ ، ولكننى أدعوها بذلك حينما تحصل علما للجانب العقلى الذى يعنى بهذا الجزء من المخ » الردود على الاعتراضات الثانية ١٢ التعريف الثانى •

ومما يجب الانتباه اليه أن للصورة الذهنية عند ديكارت وجودا حقيقيا ويسميها أحيانا موجودات ذهنية res cogitata • والصورة الذهنية حقيقية الوجود من وجهين الأول باعتبارها كيفية للجوهر المفكر ، والثانى لأنها مثال لحقيقة خارجية (انظر التعريف الثالث الردود على الاعتراضات الثانية ١٢ وانظر جلسون فى التعليق ٤ ص ٣١٨ ـ ٣٢١) •

الذهنية من الوضوح والتمايز ، فلن يكون لنا أى دليل يجعلنا نستيقن أنه كان لها كمال كونها حقيقية (١) ٠

ولكن بعد أن جعلتنا معرفة الله والنفس على ثقة من تلك القاعدة (٢) ، فمن السهل أن نعرف أن الأحلام التى نتخيلها أثناء النوم ، لاينبغى فى شىء أن تجعلنا نشك فى صحة الفكر التى تحصل لنا ونحن فى اليقظة ٠ لأنه اذا حدث ، حتى أثناء النوم ٠ أن وردت على المرء صورة ذهنية متمايزة جدا ، كأن يهتدى أحد أصحاب علم الهندسة الى برهان جديد ، فلايمنع نومه أن يكون برهانه صحيحا ٠ أما فيما يختص بالخطأ الأكثر وقوعا فى أحلامنا ، وهو ينحصر فى أن الأحلام تصور لنا أمورا مختلفة كما تفعل حواسنا الظاهرة ، فليس مهما أن يكون ذلك الخطأ سببا فى الارتياب فى صحة مثل هذه الصور (٣) (التى نتلقاها أو نستطيع تلقيها من الحواس) ، وذلك لأنها تقدر أيضا على خداعنا فى أحايين

---

(١) يعتمد فى ذلك على القول بأن الحقيقة تنحصر فى الوجود والبطلان ينحصر فى عدم الوجود ، واذن فاذا كانت هناك فكرة باطلة فذلك لأنها غير موجودة ٠

(٢) « ان كل ما نتصوره بوضوح وتميز هو حقيقى »

(٣) فى النص الفرنسى كلمة Idées ونرى أنها تترجم هنا بالصور لانه يتحدث عن الحواس كما انه حددها بالجملة التى وردت فى النص اللاتينى زائدة على النص الفرنسى ٠

كثيرة ، دون أن نكون فى النوم : ومثال ذلك أن الذين يصـابون بمرض اليرقان ، يبصرون كل شىء أصـفر اللون ، وكذلك فان الكواكب والأجرام الأخرى النائية جدا تظهر لنا أصغر بكثير مما هى . ثم انه سواء كنا فى يقظة أو كنا فى نوم ، لايلزمنا أن نقتنع بأمر ما الا بيقين عقلنا . ويجـدر بالملاحظة أننى أقـول عقلنا ، ولا (٤٠) أقول قط خيالنا أو حواسنا (١) . وكذلك فمع أننا نرى الشمس واضحة جدا ، فانه لايلزمنا من أجل هذا أن نحكم بأنها ليست من الحجم الا كما نراها ، ونحن نستطيع أن نتخيل فى تمايز رأس أسد مركبا على جسم عنز دون أن يلزمنا أن نستنتج من هذا ، أن فى العالم هذا الحيوان الخرافى : لأن العقل لايملى علينا أن مانراه أو نتخيله كذلك هو حقيقى . ولكنه يملى علينا أن كل مايحصل عندنا من صور ذهنية ومعارف يجب أن يكون لها أسـاس من الحقيقة ، لأن الله الذى هو تام فى كماله وفى ثبوته لم يكن ليضعها فينا لولا ذلك . ولأن استدلالاتنا أثناء النوم لاتكون قط من اليقين والكمال بمثل حالتهـا فى اليقظة ، وان كانت خيـالاتنا تكون أحيانا اذ ذاك فى نفس القوة والوضوح ، أو أشد فان

---

(١) نظر التعليق على كلمة الخيال فى القسم الخامس .

العقل يملى علينا أيضا أن فكرنا لما لم يكن ممكنا أن تكون جميعا حقيقية ، لأننا لسنا على كمال مطلق ، فان مافيها من حقيقة أولى أن يكون حتما فى الفكر التى تحصل عندنا ، ونحن فى اليقظة لا فى أحلامنا ٠

القسم الخامس

قد أرتاح لأن أستمر هنا في تبين سلسلة الحقائق الأخرى التي استنبطتها من هذه الأولى . ولكن لما كان تحقيق هذا الغرض ، يحتاج الى أن أتكلم الآن في مسائل كثيرة هي موضع اختلاف بين العلماء (١) الذين لاأريد أن أحشر نفسي في جمعهم ، فاني أعتقد ان الأفضل أن أكف عن ذلك الكلام ، وان أقتصر على القول على العموم ماهي تلك الحقائق ، كي أفسح المجال لمن هم أكثر حكمة حتى يقرروا ان كان من المفيد أن يعرف عنها الجمهور (٢) شيئا (٤١) أكثر تفصيلا ظللت دائما مصمما على العزم الذي اعتزمته ، ألا أفرض مبدءا آخر غير الذي أخذت به غير بعيد في الاستدلال على وجود الله والنفس ، وألا أقبل شيئا على أنه حق ، ما لم يظهر

(١) يقصد بالعلماء علماء العصور الوسطى . أما المسائل التي لا يريد أن يحشر نفسه في زمرة العلماء الذين يتجادلون فيها فهي تختص بالطبيعة وخصوصا مسالة حركة الأرض (راجع هملان ديكارت ٣ ص ٢٦) .

(٢) في النص اللاتيني « جمهور المتأدبين » .

لى أنــه أكثر وضــوحا وتوكدا من براهين أصــحاب الهندسة من قبل • وعلى كل حال فاننى أجرؤ على القول، بأنه ليس الذى وجدته هو مجرد سبيل يسد حاجتى فى قليل من الزمن ، فى كل أصول المعضلات التى تعالج عادة فى الفلســفة (١) ، ولكننى لاحظت أيضــا بعض القوانين ، التى أقامها الله فى الطبيعة ، والتى طبع فى نفوسنا معارفها (٢) ، بحيث أنه بعد التفكير فيها تفكيرا كافيا ، لانقدر على الشك فى أنها روعيت بدقة فى كل ماهو موجود ، أو كل مايحدث فى العالم • وبعد ذلك فبالتفــكير فى تسلسل تلك القــوانين بــدا لى أننى استكشفت حقائق كثيرة أنفع وأهم من كل ماتعلمته من قبل ، بل ومن كل ما أملت أن أتعلمه •

ولما كنت قد اجتهدت فى شرح أصول تلك الحقائق فى رسالة منعتنى بعض الاعتبارات عن اذاعتها (٣) ، فاننى لاأقدر على التعريف بها أكثر من أن أذكر هنــا بايجاز ماتحويه هذه الرسالة • وكان غرضي أن أضمنها

---

(١) أى فى الطبيعيات المعروفة فى العصور الوسطى جلسون ٤ ص ٣٧٢ •

(٢) أى أنها موجودة فى نفوسنا بدون كسب أو تحصيل •

(٣) يقصد كتابه العالم الذى سيتحدث عنه كثيرا فى هذا الفصل وكان قد بدأ الكتابة فيه فى أواخر عام ١٦٢٩ (انظر كتابه الى مرسن Mersenne فى ١٨ ديسمبر سنة ١٦٢٩ فى الأعمال الكاملة ج ١ ص ٨٤) •

كل ماكنت أرى أننى أعرفه قبل كتابتها ، مما يتصل بطبيعة الأشياء المادية ٠ ولكن كما أن المصورين لما كانوا لايقدرون على أن يمثلوا بالتساوى على لوح ذى سطح واحد كل الوجوه المختلفة لجسم صلب ، فانهم يختارون أحد الوجوه الرئيسية يضعونه وحده نحو الضوء ، ويظللون الوجوه الأخرى ، (٤٢) بحيث لاتظهر الا على مقدار مايمكن رؤيتها عند النظر الى هذا الوجه، كذلك لما كنت أخشى ألا أقدر على أنأضع فى مقالتى (١) كل ما فى ذهنى ، فاننى عملت على أن أعرض فى هذه الرسالة عرضا جد مفصل ما كنت أتصوره من معنى الضوء ، ثم أزيد بهذه المناسبة شيئا عن الشمس ، وعن الكواكب الثابتة ، لأنالضوء كله يكاد يصدر عنها ، وعن السموات لأنها هى التى تنقله ، وعن السيارات وذوات الأذناب وعن الأرض ، لأنها هى التى تعمل فى انعكاسه، وخصوصا عن كل الأجرام التى فوق الأرض ، لانها اما ملونة ، أو مشفة ، أو مضيئة ، وانتهى بالانسان لأنه الناظر الى كل تلك الأشياء ٠ بل ، ولكى أظلل كل هذه الأشياء قليلا ، ولكى أستطيع فى حرية أن أقول حكمى فيها دون أن أكون مرغما على اتباع الآراء المتداولة بين

---

(١) يقصد أيضا كتابه العالم ٠

العلماء (١) أو نقضها ، فانني اعتزمت أن أترك كل هذا العالم ، لمجادلات هؤلاء العلماء ، وألا أتحدث الا عما يحصل فى عالم جديد ، لو أن الله خلق الآن فى جهة ما ، فى الأمكنة الخيالية ، مادة كافية لتكوينه ، ولو أنه حرك حركة مختلفة ، وعلى غير نظام الأجـزاء المختلفة لهذه المادة ، بحيث انه يكون منهـا خليطا (٢) هو من الاضطراب كما يستطيع أن يتوهم الشعراء ، ولايفعل بعد ذلك شيئا الا أن يعير الطبيعة مـدده العادى (٣) ، وأن يدعها تعمل تبعا للقوانين التى أقامها • وكذلك ، فانى أولا ، وصفت هذه المادة واجتهدت أن أمثلها على وجه ألا يكون شىء فى العالم فيما أرى أكثر منها وضوحا ولا قبولا للفهم منه ، حاشا الذى ذكر آنفا عن الله وعن النفس : ذلك بأننى فرضت أيضا عن قصد (٤٣) أنه ليس فى هذه المادة شىء من هذه الصور أو الصفات التى يتجادلون فيها فى مدارس العصور الوسطى • وليس فيها على العموم شىء ليست معـرفته طبيعية بالنسـبة

---

(١) أى فلاسفة العصور الوسطى وعلماء اللاهوت فيها

(٢) الكلمة الفرنسية هى Chaos والمقصود بها المادة التى لا صورة لها

(٣) « معنى هذا فى لغة علم أصول الدين فى العصور الوسطى ، العمـل الذى لا يفعل به الله غير حفظه للعالم بقوانينه • حفظا مستقلا عن التدخلات الخارقة للعادة التى يغير بها المجرى العادى للطبيعة » جلسون التعليق ٤ ص ٣٨٤ •

لعقولنا ، الى حد أنه لايستطاع حتى ادعاء الجهل بها ٠ وفضلا عن ذلك ، بينت قوانين الطبيعة ، وبدون ان أؤسس استدلالاتى الا على مبدأ كمالات الله غير المتناهية، فانني حاولت أن أثبت بالبرهان كل القوانين التى أمكن ان يشك فيها بعض الشك ، وأن أبين أنها بحيث لو أن الله خلق عوالم كثيرة ، فلايكون فيها واحد لاتراعى فيه تلك القوانين ٠ وبعد ذلك ، بينت كيف أن أكبر جزء من مادة هذا الخليط ، كان ينبغى تبعا لتلك القوانين أن ينتظم ويترتب على هيئة معينة تجعله مشابها لسماواتنا ، وبينت أيضا كيف أن بعض أجزائه كان ينبغى مع ذلك أن يؤلف أرضا ، وأن البعض الآخر كان ينبغى أن يؤلف سيارات وكواكب من ذوات الأذناب ، والبعض الآخر شمسا وكواكب ثابتة ٠ وهنا توسعت فى موضوع الضوء ، ففسرت باطناب كثير ماهو ذلك الضوء الذى ينبغى أن يوجد فى الشمس وفى الكواكب ، وكيف اذا بدأ من هناك يخترق فى لحظة واحدة (١) ما للسموات من أمكنة شاسعة ، وكيف ينعكس من السيارات وذوات الأذناب على الأرض ٠

---

(١) هنا يغفل ديكارت أن انتقال الضوء هو حركة تستغرق من الزمان بحسب المسافة التى يقطعها من المصدر الى نقطة الوصول ٠

وزدت علــى ذلك أشنياء كثيرة ، تختص بالجـــوهر ، وبالأين (١) وبالحركات ، وبكل الصفات المختلفة لهذه السموات وهــذه الكواكب ، بحيث رأيت فيما ذكرته كفاية للتعريف بأنه لايشاهد فى سماوات هــذا العالم وكواكبه شىء لايلزمه ، أو لايمكنه على الأقل أن يظهر مشابها كل المشابهة (٤٤) لسماوات العالم الذى وصفته وكواكبــه ، ثم انتقلت من ذلك الى قــول مفصــل عن الأرض : كيف أن كل أجزاء الأرض مع أننى فرضت فرضا صريحا أن الله لم يضع أى ثقل (٢) فى المادة التى تتركب منها ، تميل نحو المركز ميلا متعادلا ، وكيف أنه لما كانت المياه والهواء فوق ســطحها ، فان وضــع السماوات والكواكب ، لاسيما وضع القمر ، كان ينبغى أن يسبب على سطح الأرض مدا وجزرا ، شبيهين فى كل أحوالهما بالمد والجزر اللذين يلاحظان فى بحارنا ، وعدا ذلك فانه يسبب مجرى معينا من الماء ومن الهواء من الشرق الى الغــرب على حــد ما يلاحظ بين المدارين ، وكيف استطاعت الجبال والبحار ، وعيون الماء والأنهار أن تتكون فيها بالطبيعة ، وأن تحصل فيها المعادن داخل

---

(١) اى حلول الجسم فى المكان .

(٢) يقصد اى جاذبية (انظر جلسون التعليق ٤ ص ٣٨٨) .

المناجم ، وأن تنمو النباتات فى المزارع ، وأن تتولد فيها على العموم كل الأجسام التى نسميها مخلوطة أو مركبة . ومن بين أشياء أخرى ، لما كنت لاأعرف بعد الكواكب شيئا فى العالم ينتج الضوء الا النار ، اجتهدت أن أوضح تمام الوضوح كل مايتصل بطبيعتها ، وكيف تحدث وكيف تتغذى ، وكيف لايكون لها بعض الأحايين الا حرارة بدون ضوء ، وفى أحايين أخرى لايكون لها الا ضوء بدون حرارة ، وكيف تقدر على أن تحدث ألوانا فى أجسام متباينة ، وتحدث صفات أخرى مختلفة ، وكيف تصهر بعض الأجسام ، وتجعل الأخرى صلبة ، وكيف تكاد تستهلك جميعها أو تحيلها الى رماد ودخان ، وأخيرا كيف تكون من هذا الرماد زجاجا بمجرد تأثيرها القوى . لأنه لما ظهرت لى أن احالة الرماد الى زجاج تستحق من الاعجاب فوق ماتستحقه استحالة أخرى تحدث فى الطبيعة ، فقد كان لى ارتياح خاص الى وصفها .

ومع ذلك فانى لم أرد أن أستنبط من كل هذه الأشياء ، أن هذا العالم قد خلق على الوجه الذى فرضته ، فان الأرجح أن يكون الله قد صنعه منذ المبدأ على ماينبغى أن يكون ولكنه من اليقينى ، وهذا رأى متداول

بين علماء الدين على العموم ، أن العمل الذى يحفظه به الآن هو نفس العمل الذى صنعه به (١) ، بحيث أنه لو لم يصوره فى المبدأ بغير صورة الخليط ، مادام أنه حين أقام قوانين الطبيعة ، أولاها مدده لتعمل على مقتضى عادتها ، فان المرء يستطيع أن يعتقد ، دون جحود بمعجزة الخلق (٢) أنه بذلك فقط تستطيع كل الأشياء التى هى مادية محضة ، مع الزمن ، أن تصير الى مانراها عليه الآن · وتصور طبيعتها ، حينما يشاهد تولدها شيئا فشيئا على هذا الوجه ، أيسر كثيرا من ألا تعتبر الا وهى كاملة الصنع ·

وانتقلت ، من وصف الأجسام غير الحية والنباتات،

---

(١) هذا ما يسمى بنظرية الخلق المستمر ونحن نورد هنا ما يقوله فى الفقرة الواحدة والعشرين من الجزء الأول من المبادىء ٦ ليتبين كيف يبرهن ديكارت على هذه النظرية · قال فى الكلام على أن مدة حياتنا تكفى وحدها لاثبات أن الله موجود « أنا لا أعتقد أنه يمكن للمرء أن يشك فى صحة هذا البرهان . اذا انتبه الى طبيعة الزمان أو الى طبيعة مدة حياتنا ، لأنها بحيث أن أجزاءها لا يعتمد بعضها على البعض الآخر ولا توجدها قط . ولا يلزم من أننا موجودون الآن أن نكون موجودين فى لحظة تالية ، اذا لم تستمر بعض العلل ، أى نفس العلة التى احدثتنا ، فى احداثنا ، أى اذا لم تستمر فى حفظنا · ونحن نعرف بسهولة أنه ليس فينا قط قوة نستطيع بها أو نحافظ بها على البقاء لحظة واحدة ·· » انظر أيضا قوله فى ص ٦٣ والتعليقة رقم ٢ فى نفس الصفحة ·

(٢) « يعتبر الخلق معجزة باعتباره يحدث من العدم وجودا . فهو اذن يفوق قوى كل مخلوق · واذن فهو عمل يختص به الله » جلسون التعليق ٤ ص ٣٩٢ ·

الى وصف الحيوانات وخصوصا الى وصف الانسان ولكن لما لم أكن حصلت علما عن الانسان كافيا للكلام عنه بنفس الأسلوب الذى تكلمت به عن غيره ، أى أن أثبت المعلولات بالعلل ، وأن أبين من أى العناصر ، وعلى أى هيئة ، وجب أن تحدثها الطبيعة فانني قنعت بأن أفرض أن الله قد خلق جسم انسان مشابها كل المشابهة (٤٦) لجسم من أجسامنا سـواء كان فى السـحنة الخـارجية لجوارحه أو فى التناسق الداخلى لأعضائه ، وبدون أن يركبه من مادة غير التى وصفتها ، وبدون أن يضع فيه، فى المبدأ ، أى نفس ناطقة ، ولا أى شيء آخر يكون فيه نفسا نباتية (١) أو حاسـة ، الا اذا هاج فى قلبه

---

(١) « هى مبدأ استبقاء الشخص بالغذاء وتنميته به واستبقاء النوع بتوليد مثل الشخص ولتلك النفس قوة غاذية من شأنها أن تحيل جسما شبيها بجسم ماهى فيه بالقوة الى ان تكون شبيهة بالفعل لرد بدل ما يتحلل . وقوة نامية وهى التى فى القوى الانسانية وادراكها « ان قوى روح الانسان تنقسم الى قسمين : قسم تبلغ به تمام النشوء على نسبة طبيعية ، وقوة مولدة تولد جزءا من الجسم الذى هى فيه يصلح أن يتكون عنه جسم آخر بالعدد مثله بالنوع » ابن سينا فى ذوات الأشياء الثابتة وذوات الأشياء غير الثابتة وهى فى الرسالة الأولى التى عنوانها عيـون الحكمة من تسع رسائل فى الحكمة وكذلك يقول فى الرسالة الثالثة التى عنـوانها فى القوى الانسانية وادراكاتها « أن قوى روح الانسان تنقسـم الى قسمين : قسم موكل بالعمل ، وقسم موكل بالادراك ، والعمل ثلاثة أقسـام : نشىء وانسانى وحيوانى .. العمل النشىء حفظ الشخص وتنميته بالغذاء وحفظ النوع بالتوليد وقد سلط عليهما احدى قوى روح الانسان وقوم يسمونها القوة النباتية الخ » وراجع له أيضا النجاة القسم الثانى مطلع المقالة السادسة .

بعض هذه النيران التى ليس لها نور والتى وصفتها من قبل والتى لم أتصورها من طبيعة مغايرة للتى تسبب الحرارة في الكلأ الذى يخزن قبل أن يصبح يابسا أو تلك التى تخمر الأنبذة الجديدة حينما نتركها للاختمار عصيرا كدرا بدون بذور ، لاننى لما درست الوظائف التى يمكن تبعا لتلك الفروض أن توجد فى هذا الجسم، وجدت فيها تماما كل الوظائف التى يمكن أن تكون فينا دون أن نفكر فيها ، وتبعا لذلك دون أن تشترك ذلك نفسنا ، أعنى الجزء المتميز عن الجسم وهى التى قيل عنها من قبل أن طبيعتها ليست الا أن تفكر ، وهذه الوظائف هى كل مايمكن أن يقال ان الحيوان عديم النطق يشابهنا فيه • ولم أستطع من أجل هذا أن أجد بينها وظيفة من تلك التى باستقلالها عن الفكر تكون وحدها هى التى تخصنا باعتبارنا أناسى ، بينما وجدتها جميعا فيها بعد ذلك ، لما فرضت أن الله قد خلق نفسا ناطقة ، وأنه أضافها الى ذلك الجسم فى هيئة معينة وصفتها •

ولكن لكى يستطيع المرء أن يتبين كيف بحثت فى هذا الموضوع ، فانى أريد أن أورد هنا تفسير حركة القلب والشرايين ، التى لما كانت الأولى والأكثر عموما

بين مايشاهد المرء فى الحيوان ، (٤٧) فانه بذلك يحكم بسهولة بما ينبغى أن يراه فى الحركات الأخرى •

ولكى تقل الصعوبة فى فهم ما سأقوله فى هذا الموضوع ، فانى أريد من الذين لم يتعمقوا فى علم التشريح ، أن يجتهدوا قبل قراءة ذلك ، فى أن يشرح أمامهم قلب حيوان كبير له رئتان ، لانه يشبه من كل الوجوه قلب الانسان مشابهة كافية ، وأن يبين لهم التجويفان الموجودان فيه : أولا التجويف الموجود فى جهته اليمنى ، والذى تتصل به أنبوبتان واسعتان جدا وهما الوريد الاجوف وهو المجتمع الرئيسى للدم ، وهو مثل ساق الشجرة وكل الأوردة الأخرى كأنها فروعها • ثم الوريد الشريانى (١) الذى سمى كذلك تسمية غير جيدة ، لأنه فى الحقيقة شريان ، يبدأ من القلب ، ثم ينقسم بعد خروجه منه الى فروع كثيرة تنتشر فى كل مكان من الرئتين ، ثم التجويف الموجود فى جهة القلب اليسرى ، وتتصل به على ذلك الوجه أنبوبتان فى حجم السابقتين او أكبر ، وهما الشريان الوريدى (٢) وقد

---

(١) أى الشريان الرئوى الذى ينقل دم الأوردة من التجويف الأيمن الى الرئة (جلسون : التعليق على المقال ص ٣٩٨) •

(٢) قال حنين بن اسحاق العبادى « •• وهذا العرق هو المعروف بالشريان الوريدى سمى بهذا الاسم لأن هيئته هيئة وريد وفعله فعل شريان » رسالة الفرق=

سمى كذلك تسمية غير جيدة أيضا ، لأنه ليس الا وريدا ، يأتى من الرئتين ، حيث ينقسم الى فروع كثيرة ، تشتبك مع فروع الوريد الشريانى ، ومع فروع تلك الأنبوبة التى تسمى قصبة الرئة ، والتى يدخل خلالها هواء التنفس ، ثم الشريان الكبير (١) ، الذى يخرج من القلب فيبعث بفروعه فى الجسم كله ٠ وأريد أيضا أن يبين لهؤلاء بعناية الصمامات الصغيرة الاحدى عشرة ، التى كأنها أبواب صغيرة كثيرة ، تفتح وتغلق الثغرات الأربع ، الموجودة فى هذين التجويفين : ثلاثة منها فى مدخل (٤٨) الوريد الأجوف ، موضوعة وضعا خاصا بحيث لاتقدر البتة على أن تمنع الدم الذى يحويه من أن ينسكب فى التجويف الأيمن للقلب ، ومع ذلك فهى تمنعه تماما من أن ينفذ الى الخارج ، وثلاثة فى مدخل الوريد الشريانى ، وهى موضوعة بعكس الأولى بحيث تسمح للدم الذى هو فى داخل هذا التجويف ، أن يمر الى الرئتين ، ولكنها لاتسمح للذى هو فى داخل الرئتين أن يعود الى التجويف ، وكذلك اثنان آخران فى مدخل الشريان الوريدى ، وهما يسمحان للدم أن

= بين الروح والنفس نشرها الآباء اليسوعيون فى مجموعة مقالات فلسفيه قديمه لبعض مشاهير فلاسفة العرب ٠ ص ١٢٢ ٠

(١) وتسميه العرب الأبهر ٠

يسيل من الرئتين الى تجويف القلب الأيسر ، ولكنهما يمنعان رجوعه ، وثلاثة فى مدخل الشريان الكبير ، وهى التى تبيح للدم أن يخرج من القلب ، ولكنها تمنعه من أن يعود اليه . ولا حاجة الى البحث عن علة أخرى لعدد هذه الصمامات ، غير أن فتحة الشريان الوريدى ، لما كانت على شكل اهليلجى (١) بسبب المكان الذى هى فيه ، فيمكن أن يحكم اغلاقها بصمامتين ، على حين أن الفتحات الأخرى لما كانت مستديرة أمكن اغلاقها بثلاثة على وجه أفضل . ثم اننى أريد أن ينبه هؤلاء الى ملاحظة أن نسيج الشريان الكبير والوريد الشريانى أصلب وأمتن بكثير من نسيج الشريان الوريدى ، والوريد الأجوف ، وأن هذين الأخيرين يتسعان قبل أن يدخلا القلب ، وفيه يكونان شبه كيسين ، يسميان باذينتى القلب ، وهما مكونتان من لحم يشبه لحم القلب ، وأن يلاحظوا أن الحرارة فى القلب أكثر منها فى أى مكان آخر من الجسم ، وأخيرا فانه اذا دخلت قطرة من الدم فى تجاويفه فان هذه الحرارة قادرة (٤٩) على ان تجعلها

---

(١) اى بيضوى .

تتمدد بسرعة وتنبسط كما هو شأن السوائل كلها غالبا ، عندما ندعها تسقط قطرة قطرة فى وعاء شديد الحرارة ·

لأننى بعد هذا ، غير محتاج الى آن آقول شيئا آخر لتفسير حركة القلب ، غير آنه عندما لاتكون تجاويفه ملأى بالدم ، فانه يسيل اليها بالضرورة من الوريد الأجوف فى التجويف الأيمن ، ومن الشريان الوريدى فى التجويف الأيسر ، مادام هذان الوعاءان مملوءين بالدم دائما وفتحاتهما التى تطل على القلب ، لايمكنها اذ ذاك آن تكون مغلقة ، ولكن عندما تدخل كذلك قطرتان من الدم ، كل واحدة فى آحد تجويفى القلب فان هذه القطرات ، التى لايمكن الا آن تكون كبيرة ، لأن الثغرات التى تلج منها الى التجاويف واسعة جدا ، ولأن الأوعية التى ترد منها ملأى بالدم جدا ، تتخلخل (١) وتتمدد بسبب الحرارة التى تقابلها هناك ، والتى بواسطتها يتمدد القلب فتدفعان وتغلقان الأبواب الخمسة الصغيرة التى هى فى مدخل الوعاءين ، والتى

---

(١) التخلخل هو حركة الجسم من مقدار الى مقدار أكبر يلزمه ان يصير قوامه أرق مع وجود اتصاله راجع ابن سينا فى الحدود وهى الرابعة من تسع رسائل فى الحكمة وابن سينا يورد حدودا أخرى للتخلخل ولكن ديكارت يقصد الحد الذى اقتبسناه وهو ما يتفق مع التعريف الحديث لتلك الظاهرة الطبيعية ·

جاءتا منها ، وبذلك يمنعان أن يصـــعد الى القلب أى مزيد من الدم ، وباستمرارهما فى التخلخل شيئا فشيئا، تدفعان وتفتحان الأبواب الستة الأخرى التى هى فى مدخل الوعاءين الآخرين والتى تخرجان منها ، وبهذه الطريقة تمددان كل فروع الوريد الشريانى والشريان الكبير مصاحبة للقلب فى نفس اللحظة تقريبا ، الذى سرعان ماينقبض بعد ذلك ، كما تفعل كذلك أيضا هذه الشرايين ، وذلك لأن الدم الذى دخــل فيهــا يبرد فى داخلها وتغلق أبوابها الستة ، وتنفتح أبواب الوريد الأجوف والشريان الوريدى الخمسة وتفسح الطــريق لقطــرتين آخــريين من الدم ، تمــددان (٥٠) القلب والشرايين من جديد كما فعلت السابقتان ٠ ولما كان الدم الذى يدخل هذا القلب كما وصفت ، يمر بهذين الكيسين الذين يســميان بأذينتيه ، نشـــأ عن ذلك أن حركتهما تكون مخالفة لحركة القلب وأنهما ينقبضان عندما ينبسط ٠ ثم لكى لايغامر هؤلاء الذين لايعرفون قوة البراهين الرياضية ، ولم يتعودوا التمييز بين الحجج الحقيقية والشبيهة بها (١) نكران ماقلت دون امتحانه ، أريد أن أنبههم الى أن الحركة التى وصفتها تتبع حتما

(١) أى المحتملة أو الراجحة ٠

نفس وضع الأعضاء التى يستطيع المرء رؤيتها فى القلب بالعين والحرارة التى يقدر على الاحساس بها فيه بالأصابع ، وعن طبيعة الدم الذى يمكنه أن يعرفه بالتجربة ، كما تتبع حركة الساعة بالضرورة ، القوة ، والوضع ، والشكل التى هى لما فيها من لولب وعجل .

ولكن اذا سأل سائل كيف لاينضب دم الأوردة ، وهو يصب دائما على هذا الوجه فى القلب ، وكيف لاتمتلىء به الشرايين امتلاء مفرطا مادام كل الذى يمر بالقلب يصير اليه ، فاننى غير محتاج الى أن أرد عليه بأكثر مما كتبه من قبل طبيب من انكلترا (١) ، يجب أن يثنى عليه لحله تلك المعضلة ، ولكونه اول من قال بوجود مسارب صغيرة كثيرة فى نهايات الشرايين ، منها يدخل الدم الذى يصلها من القلب فى الفروع الصغيرة للأوردة ، ومنها يصير من (٥١) جديد الى القلب ، بحيث لايكون جريانه الا دورة مستمرة . والذى يثبت هذا أفضل اثبات هو التجربة العادية للجراحين الذين اذا ربطوا الذراع برفق فوق المكان الذى يفتحون منه

---

(١) كتب فى هامش النص الفرنساوى هارفى حركة القلب باللغة اللاتينية وهارفى المذكور هو طبيب انجليزى مشهور باستكشافه لدورة الدم وقد عاش من سنة ١٥٧٨ الى سنة ١٦٥٨ .

الوريد يجعلون الدم يخرج منه بأكثر غزارة مما لو لم يربطوه ويحصل العكس اذا ربطوه من أسفل ، بين اليد والفتحة ، أو اذا ربطوه من أعلى ربطة قوية جدا • لانه من الواضح أن الرباط المشدود برفق ، يمكنه أن يمنع الدم الموجود من قبل فى هذا الذراع من أن يعود الى القلب بواسطة الأوردة ولا يمنعه من أجل هذا من أن يأتى منه من جديد بواسطة الشرايين ، لأن وضعها تحت الأوردة ولأن جلودها لما كانت أصلب ، فضغطها أقل سهولة ، وكذلك فان الدم الذى يرد من القلب ينزع الى أن يمر بها نحو اليد ، بقوة أكثر منها عند عودته من اليد الى القلب بطريق الأوردة • ولما كان هذا الدم يخرج من الذراع بواسطة الفتحة التى هى فى أحد الأوردة ، فيجب حتما أن تكون له بعض مسارب تحت الرباط ، أى فى اتجاه نهايات الذراع وبها يستطيع الدم أن يأتى من الشرايين • ويثبت هذا الطبيب أيضا اثباتا قويا مايقوله عن جريان الدم ، بوجود صمامات صغيرة ، وهى موضوعة فى أماكن مختلفة على طول الأوردة ، بحيث لاتسمح للدم أن يمر بها من وسط الجسم الى النهايات ولكنها تسمح له بالعودة من النهايات الى القلب فقط • وأكثر من ذلك فهو يثبت دعواه

بالتجــربة التى تبين آن كل الدم الموجــود فى الجســم يستطيع آن يخرج منه فى قليل من الزمن بواسطة شريان واحد عندما يكون مقطوعا حتىولو كان مربوطا باحكام قريبا جدا من القلب ، وآن يكون مقطوعا فيما بين القلب والرباط على وجه لايجعل محــلا لتخيل آن الدم الذى يخرج منه يأتى من جهة آخرى (٥٢) غير القلب ٠

ولكن هناك آشياء آخرى كثيرة تشهد بآن السبب الحقيقى فى حركة الدم هو ماقلته ٠ مثلا ، آولا ، الفرق الذى نلاحظه بين الدم الذى يخرج من الأوردة والدم الذى يخرج من الشرايين ، لايمكن آن ينتج الا من آن الدم يتخلخل ، وكآنه يصفى ، وهو مار بالقلب ، فهــو آلطف وآكثر حيــاة وآقوى حرارة ، بعد خــروجه منه مباشرة ، آى عند وجوده فى الشرايين ، منه قبيل آن يدخل القلب ، أى عند وجوده فى الأوردة ، واذا انتبه المرء الى ذلك ، فانه يجد آن هذا الفرق لايظهر جيدا الا بالقرب من القلب ، ولايظهر كذلك فى آبعــد الأماكن عنه ٠ ثم ان صلابة الجلد ، الذى يتركب منــه الوريد الشريانى والشريان الكبير ، كافية فى اثبات آن الدم يدفعها بقوة آكثر مما يفعل مع الأوردة ٠ ولماذا يكون تجويف القلب الأيسر والشريان الكبير آوسع وآكبر من

التجويف الأيمن والوريد الشرياني ؟ الا أن يكون السبب هو أنه لما لم يكن دم الشريان الوريدى ، موجودا فى غير الرئتين منذ مروره بالقلب ، فهو ألطف وأقوى تخلخلا وأسهل من ذلك الذى يأتى مباشرة من الوريد الأجوف .
وماذا يستطيع الأطباء أن يستنبطوه ، عندما يجسون النبض ، اذا لم يعرفوا أنه ، تبعـا لتغير طبيعة الدم ، فانه يستطيع أن يتخلخل بواسطة حرارة القلب بقوة أقل أو أكثر ، وبسرعة أشـد أو أضعف من ذى قبل ؟ واذا بحث المرء عن كيفية سريان تلك الحرارة الى (٥٣) الأعضاء الأخرى ، فهلا يجب الاعتراف بأن ذلك يكون بواسطة الدم الذى يمر بالقلب فتزداد حرارته فيه ، ومنه ينتشر الى كل أنحاء الجسم ، ومن ثم فان المرء اذا نزع الدم من بعض الأجـزاء فانه بذلك ينزع منـه الحرارة ، ولو كان القلب حـارا كنار مستعرة لما كان كافيا فى تدفئـة الأقدام والأيدى هـذه التدفئة مادام لايبعث اليها بالدم من جديد باسـتمرار . ثم ان المرء يعرف من هذا أيضا ان الوظيفة الحقيقية للتنفس هى استحضار الكفاية من الهواء النقى فى الرئة كى يمكن للدم الذى يأتى اليهـا من تجـويف القلب الأيمن حيث تخلخل واستحال الى شبه بخـار ، أن يخثر ويسـتحيل

ثانية الى دم قبل أن يسقط فى التجويف الأيسر ، وبدون هذا فهو لايقدر على أن يكون صالحا لأن يكون غذاء للنار الموجودة فيه . ويؤيد هـذا أن المرء يرى أن الحيوانات التى ليس لها رئات ليس لها أيضا الا تجويف واحد فى القلب ، وأن الأطفال الذين لايستطيعون استعمالها وهم أجنة فى بطون أمهاتهم لهم فتحة منها يسـيل الدم من الوريد الأجوف الى تجويف القلب الأيسر ، ومجرى فيه يأتى من الوريد الشريانى الى الشريان الكبير بدون أن يمر بالرئة . ثم انه كيف يحصل الهضم من المعدة ، اذا لم يرسل القلب اليها حرارة بواسطة الشرايين ومعهـا بعض من أشد أجزاء الدم سيلانا تعين على اذابة اللحوم التى وضعت فيهـا ؟ وكذلك أليس العمل الذى يحيـل عصير تلك اللحوم الى دم سهل المعرفة ، اذا راعينا أنه يصفى عند مروره وتكرار مروره بالقلب مرات ربما كانت أزيد من مائة مرة أو مائتين فى كل يوم ؟ وهل للمرء حاجة الى شىء آخر لتفسير تغذية السوائل (١) الموجودة فى الجسم وتوليـدها ، غير القـول بأن القوة (٥٤) التى بهـا يمر الدم عنـد تخلخله من القلب الى نهايات الشرايين تجعل بعض أجزائه تقف فى الأجزاء

(١) أى الريق والعرق والبول .

التى توجد فيها من الأعضاء وفيها تحل محل أخرى تطردها منها ، وأنه تبعا للوضع أو الشكل أو صغر المسام التى تصادفها فان بعض أجزاء الدم تسير الى بعض الأماكن مختارة لها على البعض الآخر كما أن كل انسان يستطيع رؤية غرابيل مختلفة متفاوتة الخروق يستخدمها فى فصل حبوب مختلفة بعضها عن بعض ؟ وأخيرا فان أكثر ما فى كل ذلك استحقاقا للذكر هو تكوين الأرواح الحيوانية التى تشبه ريحا لطيفا جدا ، أو هى أشبه ماتكون بلهب جد نقى وجد مضىء ، يصعد باستمرار وبغزارة من القلب الى المخ فينتقل منه بواسطة الأعصاب الى العضلات ، ويعطى الحركة لكل الأعضاء ، دون أن يلزم المرء أن يتخيل علة أخرى تجعل أجزاء الدم التى لما كانت هى الأكثر حركة ونفوذا ، فهى الأصلح لتكوين هذه الأرواح ، أن تتجه نحو المخ بدلا من أى اتجاه آخر ، الا أن تكون تلك العلة هى أن الشرايين التى تحملها هناك هى التى تأتى من القلب فى خطوط أكثر ماتكون استقامة وأنه تبعا لقواعد الميكانيكا التى هى نفس قواعد الطبيعة ، فانه عندما تميل أشياء كثيرة مجتمعة الى التحرك نحو جهة واحدة مثل أجزاء الدم التى تخرج من تجويف القلب

الأيسر مائلة الى جهة (٥٥) المخ ، فبما أنه لايكون لتلك الجهة سعة للجميع ، فان ماكان منها أضعف وأقل حركة، ينبغي أن يدفع بواسطة الأقوى ، وبذلك تذهب هـذه وحدها اليها ٠

شرحت كل هذه الأشياء بتفصيل واف في الرسالة التي أشرت آنفا الى عزمي على نشرها ٠ وبينت فيها بعد ذلك ماينبغي أن يكون عليه تكوين أعصاب الجسم الانساني وعضلاته ، حتى تجعل الأرواح الحيوانية (١) التي هي داخل الجسم ذات قوة تحرك أعضاءه : كما ترى الرءوس على أثر قطعها لاتزال تتحرك وتعض الأرض مع أنها لم تعد حية ، وبينت أيضا أي التغييرات تحصل في المخ لتسبب اليقظة ، والنـوم ، والأحـلام ، وكيف يستطيع الضوء ، والأصوات ، والروائح ، والمطاعم ، والحرارة ، وسائر صفات الأشياء الخارجية ، أن تطبع فيه صورا مختلفة بتوسط الحواس وكيف يستطيع الجوع والظمأ وسائر الانفعالات الباطنة أن تبعث اليه أيضا بصـورها ووضـحت ما الذي ينبغي اعتبـاره الحس

---

(١) « الروح الحيوانية هي للحيوان الناطق وغير الناطق وهي في القلب وتنبعث منه في الشرايين وهي العروق الضوارب ، الى أعضاء البدن » الخوارزمي مفاتيح العلوم ص ٨٣ من طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢ ٠

المشترك (١) الذى يقبل كل تلك الصور · وما المراد بالخيال (٢) الذى يحفظ هذه الصور وبالمتصرفة (٣)

---

(١) فى العصور الوسطى كانت تقسم الحواس تبعا لتقسيم أرسطو الى ظاهرة وباطنة : أما الظاهرة فهى الحواس الخمس ، وأما الباطنة فقد قصرها أرسطو على ثلاث وهى الحس المشترك والخيال والحافظة على أن علماء العرب توسعوا فى فهم الخيال والحافظة فنتج عن ذلك تقسيم آخر للحواس الباطنة وهـــذا ما سنعرض له عن قريب · أما الحس المشترك فلقد كانوا يقولون وكذلك يقول ديكارت انها قوة مرتبة فى تجويف معين فى الدماغ وهى التى تجتمع فيها كل الصور المدركة بالحواس الخمس · وقد كتب عنها ابن سينا فى الشفاء ص ٣٣٢ من طبعة طهران « أما الحس الذى هو المشترك فهو بالحقيقة غير ما ذهب اليه من ظن أن للمحسوسات المشتركة حسا مشتركا بل الحس المشترك هو القوة التى تتأدى اليها المحسوسات كلها فانه لو لم تكن قوة واحدة تدرك الملون والملموس لما كان لنا أن نميز بينها » وقال فى صفحة ٣٣٣ « فهذه القوة هى التى تسمى الحس المشترك وهى ركن الحواس ومنها تتشعب الشعب واليهـا تودى الحواس » ويسمى الحس المشترك أيضا الحس العام ·

(٢) استعمل ديكارت هنا كلمة Mémoire وهى فى هذا الموضع ترادف كلمة Imagination أى الخيال وهو القوة التى تحفظ ما يقبله الحس المشترك من الصور وتستبقيه بعد غيبة المحسوسات فالخيال اذن خزانة الحس المشترك ، وهذا ما يتفق فيه ديكارت مع فلاسفة الاسلام ·

(١) استعمل ديكارت كلمة Fantaisie وقد رأيناها معربة عند ابن سينا فى كتاب النجاة ص ٢٦٥ طبة القاهرة سنة ١٣٣١ فى قوله « فمن القـــوى المدركة الباطنة الحيوانية قوة فنطاسيا أى الحس المشترك » وهذا غير صحيح وربما نشأ الخطأ من أن محلهما فى الدماغ واحد فهو عند ديكارت الغدة الصنوبرية ولكنهما مختلفان فى الوظيفة (راجع جلسون التعليق ٤ ص ٤٢٠) والحس المشترك فى اليونانية هو (كوينى آيستيس) وليس فنطاسيا كما أننا رأينا الكلمة معربة أيضا عند محمد ابن أحمد الخوارزمى ويعرفها بقوله « فنطاسيا هى القوة المخيلة من قوة النفس وهى التى يتصور بها المحسوسات فى الوهم وان كانت غائبة عن الحس وتسمى القوة المتصورة والمصورة » مفاتيح العلوم ص ٨٣ من طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢ وهذا كلام ظاهر فيه الخلط · وعلى العموم فالمقصود بالمتصرفة القوة التى بها « تركيب المحسوسات

التى تستطيع تغييرها بطرق مختلفة ، وأن تؤلف منها صورا جديدا ، وهى بتوزيعها الأرواح الحيوانية على هذا الوجه فى العضلات تحرك أعضاء هذا الجسم فى هيئات متباينة كثيرة · وبحسب مناسبات الأمور التى تعرض لحواسه والانفعالات الباطنة التى هى فيه على مقدار ماتستطيع أعضاؤنا أن تتحرك دون أن تقودها الارادة (١) ولن يبدو ذلك غريبا قط للذين هم بسبب

= بعضها الى بعض وتفصل بعضها من بعض لا على الثبوت الذى وجدناها عليه من خارج ولا مع تصديق بوجود شىء منها أو لا وجود ··· وهذه هى التى اذا استعملها العقل تسمى متفكرة واذا استعملتها قوة حيوانية تسمى متخيلة » ابن سينا الشفاء ص ٣٣٣ طبعة طهران · وهذا ما يتفق مع مراد ديكارت وهو أقرب الى تعريف أرسطو لفنطاسيا فى كتابه عن النفس بقوله : « هى حركة للعقل منشؤها الاحساس » ·

ثم ان ابن سينا قد أضاف الى تلك القوى قوة أخرى يسميها بالوهمية (راجع تهافت الفلاسفة لابن رشد حيث يقول « ··· ابن سينا وهو يخالف اللاسفة فى أنه يضع فى الحيوان قوة غير القوة المتخيلة يسميها وهمية الخ » ص ١٢٧ طبعة القاهرة سنة ١٣٢١ ويقصد بها ابن سينا القوة التى تدرك المعانى غير المحسوسة فى المحسوسات الجزئية وبتعبير آخر ادراك المعنى الجزئى المتعلق بالمعنى المحسوس مثل ادراك الشاة العداوة فى الذئب : واذن فقوى النفس الحيوانية التى يعبر عنها بالحواس الباطنة هى خمس : الحس المشترك وهو الذى يقبل صور المحسوسات كلها والخيال وهو خزانته أى القوة التى تحفظ تلك الصور والوهم وهو ادراك المعانى غير المحسوسة فى المحسوسات مثل ادراك الشاة للعداوة فى الذئب ثم الحافظة أو الذاكرة وهى خزانة الوهم ثم المتصرفة وهى التى تتصرف فى المحسوسات فتؤلف بعضها مع بعض وتفصل بعضها من بعض غير متبعة فى ذلك نظام وجودها فى الخارج كما تفعل فى المعانى وهذه القوة اذا استعملها العقل تسمى مفكرة واذا استعملها الوهم تسمى متخيلة ·

(١) لأن الوظائف التى سبق ذكرها كلها حيوانية وهى ليست فى حاجة الى تدخل العقل بواسطة الارادة ·

معرفتهم أن كثيرا من المتحركات بذاتها والآلات المتحركة تستطيع صناعة الناس عملها دون أن يستعمل (٥٦) فى انشائها الا قطع قليلة اذا قورنت بالكثرة العظيمة من العظام والعضلات والأعصاب والشرايين والأوردة ، ومن كل الأجزاء الأخرى الموجـودة فى جسم كل حيـوان ، سيعتبرون هـذا الجسم كآلة لمـا كانت مصنوعة بأيدى الله ، فهى الى حد يجل عن المشابهة خير نظاما ، ولها من ذاتها حركات أدعى للاعجاب من أى آلة يقدر الناس على اختراعها .

وقفت هنا خاصة لكى أبين أنه اذا وجدت آلات لها أعضاء وصورة قرد أو صورة أى حيوان آخر غير ناطق فانه لن تكون لنا أية وسيلة لنعرف أنها ليست من نفس طبيعة هـذه الحيوانات فى كل شىء فى حين أنه لو أن منها ما له شبه بأجسامنا وكان يقلد من أعمالنا مايمكن تقليده امكانا خلقيا (١) ، لكان لنا دائما طريقتان جد وثيقتين لمعرفة أنها ليست من أجل هذا ناسا على الحقيقة . أولى هاتين الوسيلتين هى أن هذه الآلات لن تقدر مطلقا على أن تستعمل الكلمات أو أى اشارات أخرى تؤلفها

(١) أى كافيا لسد حاجات الحياة العملية (انظر ص ٦٩) وهذا بالنسبة للانسان هو الامكان العادى .

كما نفعل نحن لنصرح للآخرين بأفكارنا فقد يستطاع أن يتصور خير تصور أن آلة تصنع على هيئة مخصوصة بحيث تنطق بكلمـات بل وان تنطق ببعضها بمناسـبة أعمال بدنية تسبب تغييرا فى أعضائها : كأن تلمس فى بعض المواضع فتسأل عما يراد أن يقال لها ، وتلمس فى موضع آخر فتصيح بأن ذلك يوجعها وماشابه ذلك ، ولكن لايستطاع أن يتصور أنها تنوع تأليف الألفـاظ لتجيب أجوبة مطابقة لكل مايقـال فى حضرتها كمـا يستطيع أن يفعل أغبى الناس · وأما (٥٧) الثانية فهى أنه مع أنها تعمل أشياء كثيرة مثلما يعمل أى واحد منا بل قد تعمل خيرا مما يعمل فانها لابد تفشل فى أعمال أخرى منها مايتبين أنها لاتعمل عن علم ، ولكن بواسطة وضع أعضائها فانه على حين أن العقل هو آلة عامة يمكن استخدامها فى كل أنواع الطوارىء فان هذه الأعضاء فى حاجة الى وضع خاص لكل عمل على حدة ، ومن ثم ينتج أنه من المستحيل أخلاقيا (١) أن يكون فى آلة من تنوع الأعضاء مايكفى لجعلها تعمل فى كل ظروف الحياة على نحو مايبعثنا عقلنا للعمل ·

وبنفس هاتين الوسيلتين يستطيع المرء أن يعرف

---

(١) اى عادة وغرضه لحاجة الحياة العملية (انظر ص ٦٩) ·

الفرق بين الانسان والحيوان · لأنه مما يستحق الذكر أنه ليس من الناس الأغبياء والبلداء ، حتى دون استثناء البلهاء منهم ، من لايقدرون على تأليف كلمات مختلفة ، وأن يركبوا منهـا كلاما به يجعلون أفـكارهم مفهومة وبالعكس فليس من حيوان آخر مهما كان كاملا ومهما نشأ نشأة سعيدة يستطيع أن يفعل ذلك · وهذا لاينشأ عن نقص فى الأعضاء ، لأن المرء يرى العقعق والببغاء تستطيع أن تنطق مثلنا ، أى نطقا يشـهد بأنهـا تعى ماتقول ، فى حين أن الناس الذين ولدوا صما وبكما ، فحرموا الأعضاء التى يستخدمها غيرهم (٥٨) للكلام مثل حرمان الحيوان أو أشد اعتادوا أن يستنبطوا من تلقاء أنفسـهم بعض اشـارات يتفاهمون بهـا مع من يجدون فرصة لتعلم لغتهم لأنهم يعيشون معهم · وهذا لايشهد بأن للحيوانات عقلا مطلقا · فاننا نشـهد أن معرفة الكلام لاتحتاج الا الى شيء من العقل جد قليل ، ولما كان من الملاحظ التباين بين أفراد النوع الواحـد من الحيوان ، كما فى أفراد الانسان ، وأن البعض أيسر أن يراض من البعض الآخر فانه لايصدق أن قردا أو ببغاء من أكمل نوعه ، يكافيء فى ذلك طفلا من أغبى الأطفال ، أو على الأقل طفلا ذا مخ مضطرب ، ولايكون

هـذا الا اذا كانت روح الحيـوانات من طبيعة مخالفة لطبيعة روحنا كل المخالفة • ولاينبغى أن يخلط بين الكلام والحـركات الطبيعية التى تعبر عن الانفعـالات ويمكن أن تجيد تقليدها الآلات كما تقلدها الحيوانات، ولاينبغى أيضـا الذهاب مـع بعض المتقـدمين الى أن الحيوانات تتكلم ، ولو أننا لانفهم لغتها ، لأنه لو كان ذلك حقا لكان فى استطاعتها أيضا مادامت لها أعضاء كثيرة تشابه أعضاءنا ، أن تتفاهم معنا كما تتفاهم مع أمثالها • وكذلك مما يستحق الملاحظة ، أنه مع وجود حيوانات كثيرة تظهر من الصنعة فى بعض أعمالها أكثر مما نظهر ، فانه يرى أن نفس تلك الحيوانات لاتظهر شيئا من الصنعة فى أعمال كثيرة أخرى ! بحيث لايدل ماتعمله أحسن منا على أن لها نفسـا ، فانه على هـذا الاعتبار (٥٩) كان ينبغى أن يكون لها منها أكثر مما يكون لأى واحد منا فتعمل فى كل الأمـور أحسن مما نعمل ولكن هذا يدل على أنه ليس لها نفس وأن الطبيعة هى التى تعمل فيها تبعا لوضع أعضائها كما يرى فى الساعة التى لاتتركب الا من عجل ولولب فانها تستطيع أن تحصى الساعات وتقيس الزمان بأكثر منا دقة مع كل ما لنا من تيقظ وفطنة •

وصفت النفس الناطقة بعد ذلك وبينت أنها لايمكن البتة أن تكون منتزعة من قوة المادة كما تنتزع الأشياء الأخرى التى تكلمت عنها ولكن يجب حتما أن تكون مخلوقة · وبينت كيف أنه لايكفى أن تكون ساكنة فى الجسم الانسانى كما يسكن البحار فى سفينته (١) · لايكفى هذا الا فى أن يمثل تحريكها لأعضائه بل ان هناك حاجة الى أن تكون متصلة بالبدن ومتحدة معه على وجه أوثق حتى يكون لها عدا ذلك عواطف وشهوات مماثلة لما عندنا منها بذلك يتألف انسان حقيقى · ثم اننى أطنبت هنا قليلا فى الكلام على مسألة الروح لأنها من أهم المسائل ، اذ ليس خطأ بعد خطأ الجاحدين لله ، وهو خطأ أعتقد أننى دحضته دحضا كافيا فيما سبق ، ليس خطأ يبعد النفوس الضعيفة عن طريق الفضيلة المستقيم ، كتوهم أن روح الحيوانات هى من نفس طبيعة روحنا ، ويتبع هذا التوهم ، أنه ليس يوجد مانخشاه أو

---

(١) هذا التشبيه من أرسطو هملان مذهب ديكارت ٣ ص ٢٧٧ ويقول ديكارت ما يوضح ذلك فى التأملات السادسة ١٢ « اننى لست مقيما فى جسمى كما يقيم البحار فى سفينته ، ولكننى فوق ذلك متصل به اتصالا وثيقا ومختلط معه بحيث أؤلف معه وحدة منفردة · لأنه اذا لم يكن ذلك . فما كنت لأشعر بالم اذا أصيب بدنى بجرح . وأنا الذى ليس الا شيئا مفكرا ، ولكنى أدرك ذلك الجرح بالعقل وحده ، كما يدرك البحار بنظرة أى عطب فى السفينة » ·

نأمله ، بعد هذه الحياة ، كشأن الذباب والنمل فى حين
أنه من علم مبلغ اختلافهما ، كان أحسن فهمـا للحجج
التى تثبت أن روحنا هى من طبيعة مستقلة كل الاستقلال
عن الجسم ، وأنها تبعا لهذا ليست عرضة للموت معه ،
(٦٠) ثم انه على مقـدار كوننـا لانرى غير الموت علة
لفنائها ، فانه يحملنا ذلك بالطبع على أن نحكم من هذا
بأنها خالدة ٠

القسم السادس

مضت الآن ثلاثة أعوام منذ انتهيت من الرسالة التى تحتوى على كل هذه الأشياء . وأخذت فى مراجعتها ، كى أضعها بين يدى طابع ، عندما علمت أن أشخاصا أجلهم ، ولهم من السلطة على أعمالى ما لا يقل عما لعقلى من السطة على أفكارى ، لم يقروا رأيا فى علم الطبيعة، أذاعه البعض (١) قبل الآن بقليل ، ولا أريد أن أقول اننى كنت على هذا الرأى ، ولكنى أريد أن أقول اننى لم ألاحظ فيه قبل استنكارهم ، ما أستطيع أن أتوهمه مضرا بالدين أو بالدولة ، وبالتالى ، ما كان يمنعنى أن أكتبه لو أن العقل أقنعنى به ، وأن هذا جعلنى أخشى أن يكون بين آرائى ما أخطأت فيه ، رغم ما كان لى من

(١) يقصد بالبعض غاليليه وبالأشخاص الذين يجلهم رجال الدين الذين كانوا يختصون بمراقبة الحركة الفكرية . ولقد أذاع غاليليه فى سنة ١٦٣٢ كتابه الذى يقول فيه بدورة الأرض فدانته محكمة التفتيش بروما . ولقد أتم ديكارت كتابه العالم Le Monde سنة ١٦٣٣ ولكن علمه بنصيب غاليليه ورغبته فى عدم اثارة رجال الدين عليه جعلاه يعدل عن نشر كتابه (انظر المقدمة) .

عظيم العناية فى أن أدخل فى اعتقادى شيئا جديدا ، مالم تقم له عندى البراهين الوثيقة جـدا ، وألا أكتب عنه شيئا يمكن أن ينال أى انسان بأذى : وهـذا كان كافيا ليضطرنى الى تغيير ماكنت صممت عليه من نشر هذه البحوث . فانه وان كانت الحجج التى صممت من أجلها العزم أولا قوية جدا ، فان ميلى الذى جعلنى دائما أكره صناعة عمل الكتب ، سرعان ماجعلنى أجد الكفاية من الحجج الأخرى لاعفـائى من ذلك العمـل . وكلا (النوعين) من هذه الحجج ذو شأن يجعل لى غرضا بذكرها ـنا ، بل وقد يكون للجمهور أيضا فائدة فى معرفتها .

ماكنت قط عظيم العنـاية بالأشـياء التى كانت تصدر عن نفسى ، وحين كنت لاأجنى من ثمرات المنهج الذى أستخدمه غير اقتناعى فى معضلات من معضلات العلوم النظرية ، أو محـاولتى أن أدبر أخـلاقى على مقتضى الحجج التى علمنى اياها هذا المنهج (١) . لم أكن لأعتقد أننى مضطر الى أن أكتب عنه شيئا ، ذلك بأنه فيما يتعلق بالأخلاق ، فان كل انسان يكتفى بعقله ،

---

(١) تعرضنا لهذه المسألة أى عل الأخلاق المؤقتة التى بسطها ديكارت فى القسم الثالث من المقال هى مستمدة من منهجه أم لا وذلك فى التعليق على القسم الثالث وقد أشرنا أيضا الى تلك العبارة (انظر ص ٣٧ و ٣٨) .

بحيث كان يمكن أن يكون مصلحون على عدد الرءوس ، لو ساغ لغير الذين نصبهم الله حكاما على أممه ، أو للذين أفاض عليهم من البركة والهمة مايكفى لأن يكونوا أنبياء ، أن يتناولوا بالتغيير شيئا من الأخلاق ، ومع أن أنظارى كانت ترضينى كثيرا ، فاننى كنت أعتقد أن لغيرى أنظارا أيضا قد يكونون بها أشد اعجابا ٠ ولكنى على أثر تحصيلى لبعض المعارف العامة فى علم الطبيعة واختبارى لها فى معضلات مختلفة خاصة ، لاحظت مدى ماتستطيع أن تقود اليه ، ومبلغ اختلافها عن المبادىء التى يستعان بها حتى الآن ، على أثر ذلك اعتقدت أننى لاأقدر على ابقائها مختبئة ، دون أن أخل اخلالا كبيرا بالقانون الذى يلزمنا أن نوفر الخير العام لكل الناس على قدر ما فى استطاعتنا لأن هذه الأنظار فى علم الطبيعة بينت لى امكان الوصول الى معارف مفيدة للحياة فائدة كبيرة ، وبدلا من هذه الفلسفة النظرية ، التى تعلم فى المدارس ، فانه يمكن أن نجد عوضا عنها فلسفة عملية ، (٦٢) بها اذا عرفنا ما للنار ، والماء ، والهواء، والكواكب ، والسماوات ، وكل الأجرام الأخرى التى تحيط بنا من قوة وأعمال ، معرفة متمايزة كما نعرف مهن صناعنا المختلفة ، فاننا نستطيع استعمالها بنفس

الطريقة فى كل المنافع التى تصلح لها ، وبذلك نستطيع أن نجعل أنفسنا سادة ومسخرين للطبيعة (١) • وهذا جدير بأن يرغب فيه لابتداع ما لا يحصى من المصنوعات، التى تجعل المرء ينعم بدون جهد بثمرات الأرض وبكل مافيها من أسباب الرفه ، بل ولأجل حفظ الصحة أيضا ، التى هى بلا ريب الخير الأول وهى الأصل لما عداها من خيرات هذه الحياة ، فان الروح نفسـها تتصل اتصالا قويا بالمزاج ، وببنية أعضاء البدن ، بحيث أنه اذا كان ممكنا وجود بعض الوسائل التى تجعل الناس عامة أكثر حكمة وحذقا مما هم عليه حتى الآن ، فانى أعتقد أنه يجب البحث عن هذه الوسيلة فى الطب • حقا ان الطب المستعمل الآن يشتمل على قليل من الأشياء التى لها منفعة تذكر ، ولكن دون أن أقصد الى تحقيره ، فانني واثق أنه لايوجد انسان ، حتى ممن يحترفونه ، لايعترف بأن كل مايعرف منه يكاد لايكون شيئا ، اذا قورن بمـا يبقى غير معروف وأن من المستطاع التخلص مما لايحصى من الأمراض ، بدنية كانت أو نفسية بل وقد يتخلص

---

(١) يرى الاستاذ لالاند أن ديكارت يقتبس مثله الأعلى للعلم ، الذى يعبر عنه هنا ، من باكون Bacon ولقد أورد فى مقالته المشهورة بعض نصوص من باكون ومن ديكارت الحجج التى يراها كافية للتدليل على هذا الرأى (انظر جلسون التعليق ص ٤٤٦) •

أيضا من ضعف الهرم ، (٦٣) اذا عرفت أسبابها معرفة كافية ،وعرفت كل الأدويةالتى زودتنا بهاالطبيعة(١)٠

ولما كان من غرضى أن أنفق كل حياتى فى البحث عن علم ضرورى جدا ، ولما ألفيت طريقا يظهر لى أنه باتباعه يجب حتما أن يوجد هذا العلم ، مالم يعق دونه اما قصر الحياة ، أو نقص فى التجارب ، حكمت أنه ليس من دواء لهذين العائقين ، خير من أن أبلغ الجمهور بأمانة كل القدر القليل الذى أتيح لى الاهتداء اليه ، وأن أدعوأهل العقول الجيدة لمحاولة التقدم، باشتراكهم فى التجارب التى ينبغى القيام بها كل وفق ميله وعلى قدر استطاعته ، وأن يبلغوا الجمهور أيضا كل الأشياء التى تعلموها حتى يبدأ اللاحقون من حيث انتهى السابقون ، وبذلك نصل أعمار الكثيرين وأعمالهم ، فنتقدم جميعا أكثر مما يستطيع كل فرد مستقلا ٠

بل قد لاحظت ، فيما يختص بالتجارب أنها كلما

---

(١) كان ديكارت يعتقد أن العلم يستطيع أن يحمى الانسان من الأمراض من ضعف الشيخوخة ولما مات أعلنت صحيفة أنفرس خبر وفاته بهذا التعبير : (مات فى السويد أحمق كان يقول ان فى استطاعته أن يعمر فى الحياة ما شاء » الأعمال الكاملة طبعة أدام وتانرى ج٠ أ ص ٦٣٠ وروى مؤرخ حياته بايبه عن بعض أصدقاء ديكارت أنه دهش عندما بلغه نعيه اذ أنه كان وثقا أنه سيعيش على الأقل خمسة قرون ، مالم يمت موتا غير طبيعى ، راجع الأعمال الكاملة ج ١١ ص ٦٧٠ ـ ٦٧٢ ٠

تقدمنا فى المعرفة كانت ألزم اذ أنه يحسن فى المبدأ ألا نستخدم الا مايقع منها من تلقاء نفسه تحت حواسنا ، وما لانستطيع الجهل به ، مادمنا نفكر فيه تفكيرا مهما كان قليلا ، بدلا من أن نشغل أنفسنا بالأندر منها والأصعب · والسبب فى ذلك أن هذه التجارب النادرة تضلل كثيرا ، عندما لانكون بعد على علم بعلل أكثرها شيوعا وكذلك فان الظروف التى تتصل بها تكاد تكون دائما من الخصوصية وهى من الدقة بحيث تشق ملاحظتها · ولكن الترتيب الذى اتبعته فى هذا كان كما يلى : أولا ، حاولت أن أجد على العموم المبادىء ، أو العلل الأولى ، لكل ماهو موجود ، أو يمكن أن يوجد فى العالم ، من غير (٦٤) أن أعتبر فى سبيل هذا الغرض غير الله وحده الذى خلقه ، وبدون أن أستنتجها الا من بعض بذور الحقيقة التى هى فى نفوسنا بالطبع (١) · وبعد ذلك ، بحثت فى ما هى المعلولات الأولى التى هى الأكثر جريانا فى العادة والتى يمكن استنتاجها من هذه العلل : ويبدو لى أننى بهذا ، وجدت سماوات ، وكواكب ، وأرضا ، بل ووجدت فوق الأرض ، ماء ، وهواء ، ونارا ، ومعادن ، وبعض أشياء أخرى مشابهة لهذه ،

(١) أى المبادىء الأولى الموجودة بالفطرة فى النفس ·

وهى أكثر الأشياء شيوعا وأبسطها ، وعلى ذلك فهى أسهلها أن تعرف • ثم اننى لما أردت أن أنحدر الى الاشياء التى هى أخص ، عرض لى منها كثير متباين ، بحيث لم أعتقد أن فى استطاعة العقل الانسانى أن يميز بين صور أو أنواع الاجرام التى هى فوق الأرض وما لا يحصى غيرها مما يمكن أن يوجد ، اذا أراد الله ايجادها ووضعها فوق الأرض ، ولا اعتقدت ، كما ينتج عن هذا أننا نستطيع تصريفها فى منفعتنا الا أن يكون بأن نتوصل الى العلل عن طريق المعلولات ، وأن نستخدم كثيرا من التجارب الخاصة • وبعد ذلك فاننى لما مررت بعقلى على كل الأشياء التى عرضت لحواسى ، فاننى أجرؤ على القول بأننى لم ألاحظ شيئا منها لم يسهل على تفسيره بالمبادىء التى اهتديت اليها • ولكن يجب أن أعترف أيضا بأن قوة الطبيعة رحبة وواسعة جدا ، وأن هذه المبادىء بسيطة وعامة جدا ، بحيث أكاد ألاحظ أى أثر خاص لاأعرف أولا أنه ممكن (٦٥) استنباطه من هذه المبادىء بكيفيات كثيرة مختلفة ، وأن أكبر معضلة لدى هى فى العادة أن أجد من بين هذه الكيفيات الكيفية التى يتصل بها هذا الأثر بهذه المبادىء • لأننى لاأعرف لهذا حلا الا أن أبحث من جديد

عن بعض تجـــارب ، لاتكون نتيجتها ، اذا كان يجب تفسيرها على كيفية من هــذه الكيفيات ، كنتيجتها اذا كان يجب تفسيرها على كيفية أخرى ٠

على أننى الآن بحيث أرى ، كما يبدو لى ، أى طريق يجب علينا سلوكه كى نقوم بأكثر التجارب التى تنفعنا فى هذه الغاية ، ولكننى أرى أيضا أنها من العظمة ومن كثرة العدد ، بحيث لاتبلغ كفايتها كلها يداى ولا رزقى، ولو أن لى ضعفه ألف مرة ، فعلى قدر ما سيكون لى منذ الآن من اليسر لكى أحقق منها كثيرا أو قليلا ، سأتقدم كذلك كثيرا أو قليلا فى معرفة الطبيعة ٠ وهذا ماكنت آمل أن أوضحه بالرسالة التى كتبتها ، وأن أبين فيهـا بيانا جليا كثير الفائدة التى يستطيع الجمهور أن ينالها من ذلك ، وأن أطلب الى كل الذين يرغبون على العموم فى خير النــاس ، أى كل الذين هم أهــل الفضيلة فى الحقيقة ، لا بالمظهر الخادع ، ولا بمجـرد القول ، أن يبلغونى التجـارب التى عمـلوها ، وأن يعينونى فى التجارب التى بقى استيفاؤها ٠

ولكن عــرض لى منــذ ذلك الحين ، حجج أخرى جعلتنى أغير رأيى ، وأن أفكر فى أنه يلزمنى فى الحقيقة أن أستمر فى كتابة كل الأشياء التى أحكم بأن لها بعض

الأهمية ، على مقدار ماتكشف لى عن الحقيقة ، وأن أعنى بها كعنايتى لو أننى أريد طبعها • وذلك لكى تكون لى (٦٦) فرصة أكبر لاجادة تمحيصها ، كما أننا ندقق بلاشك فيما نعتقد أنه معروض لأنظار الكثيرين أكثر مما نفعل فيما لانعمله الا لأنفسنا ، وكثيرا ماكانت الأشياء التى بدت لى حقيقية عندما بدأت فى تصورها ، تبدو لى باطلة عندما كنت أريد وضعها على الورق ، ولكيلا أضيع أى فرصة لافادة الجمهور ، اذا كنت قادرا على ذلك ، واذا كان لكتاباتى شىء من القيمة ، فان الذين سوف يحصلون عليها بعد مماتى يقدرون أن يستخدموها استخداما مناسبا ، ولكن لم يكن واجبا على أن أقر نشرها فى حياتى ، حتى لاتكون المعارضات والمجادلات التى ربما تكون كتاباتى عرضة لها ، أو الشهرة مهما تكن ، التى تكسبنى اياها ، لتهيىء لى أى فرصة لتضييع الوقت الذى أنا عازم على انفاقه فى تعليم نفسى لأنه وان كان حقا أن كل انسان مضطر أن يزيد فى خير الآخرين على قدر مايستطيع ، وأن كون المرء غير مفيد لأحد هو نفس كونه لايساوى شيئا ، ومع ذلك فانه حق أيضا أن عناياتنا يجب أن تتجاوز حدود الوقت الحاضر ، وأنه من الخير أن نهمل الأشياء التى ربما

جاءت ببعض الفائدة للأحياء ، آذا كان هذا على نية آن نعمل أشياء أخرى تأتى بفائدة آكبر لأحفادنا ٠ كما آنى فى الحقيقة أريد آن يكون معلوما آن المقدار القليل الذى عرفته حتى الآن يكاد لايكون شيئا بموازنته مع الذى أجهله ، وانى لا أيأس من القدرة على معرفته ، لأنه يكاد يكون سواء مثل الذين يكشفون قليلا فقليلا (٦٧) عن الحقيقة فى العلوم ، كمثل الذين عندما يبدأون فى آن يصيروا أغنياء ، يكون عناؤهم فى تحصيل المقادير الكبيرة أقل من عنائهم من قبل وهم فقراء فى تحصيل ما هو أقل بكثير ٠ وقد يستطاع مقارنتهم برؤساء الجيش تزداد قواهم على قدر انتصاراتهم ، والذين يحتاجون الى السياسة لكى يحفظوا أنفسهم بعد خسارة معـركة آكثر من حاجتهم اليها بعد كسبها ليستولوا على المدن والأقاليم ٠ لأنه فى الحقيقة أن يخوض المرء غمار معركة مثل آن يحـاول التغلب على كل المعضـلات والأخطاء التى تعـوقنا عن الوصول الى معرفة الحقيقة ، وأن خسران معركة مثل قبول رأى فاسد يختص بمسألة عامة ومهمة الى حد ما ، ويجب بعد ذلك من الحذق للعودة الى نفس الحالة التى كان المرء فيها من قبل ، آكثر مما يجب لتحصيل تقـدم عظيم ، اذا كان للمرء مبادىء وثيقة ٠ آما آنا ، فاذا كنت قد وجدت فيما سـبق بعض الحقـائق فى العلوم

(وآمل أن الأشياء التى يحتوى عليها هذا المجلد تدعو الى الحكم بأننى وجدت بعضا منها) فاننى أقدر على أن أقـول انهـا ليست الا توابع ولواحـق خمس أو ست معضلات رئيسية تخطيتها ، وهى ما أعتبرها كمعارك كان الحظ فيها الى جانبى ٠ بل لن أخشى أن أقول ، انى أرى أننى لم أعد فى حاجة الى تحصـيل غير اثنتين أو ثلاث أخرى مثلها للوصول الى كل غايتى ، ولست من التقدم فى السن بحيث لايكون لى وفقـا لسـير الطبيعة العادى ، متسع من الوقت لتحقيق هذه الغاية ٠ ولكننى أعتقد أنى مضطر الى أن (٦٨) أقتصد فيما بقى لى من الوقت على مقـدار قـوة أمـلى فى القـدرة على حسن استخدامه ، وستكون لى بغير شك فرص كثيرة لتضييعه، اذا نشرت أصول مذهبى فى الطبيعيات (١) ٠ لأنها وان كانت كلها تقريبا من الوضوح بحيث لايلزم لتصديقها الا الاصغاء اليها ، وبحيث أنه ليس منها ماأعتقد أنه يعجزنى أن أقيم عليه البراهين ، وعلى كل حال فلأنه من المستحيل أن تتفق مع كل الآراء المختلفة التى يقول بها غيرى فاننى أتوقع أنى سأحيد عنها كثيرا لما ستولده من معارضات ٠

---

(١) أى بالاشتغال فى الردود على اعتراضات العلماء والانتباه الى أعمال رجال الدين وكيدهم ، لأنهم كانوا يقاومون كل ما يعارض طبيعيات أرسطو ٠

ومن المستطاع أن يقال ان هذه المعارضات تكون نافعة لانها تعرفنى أخطائى ، ولانها تزيد فى فهم الآخرين لما قد يكون فى مبادىء من صواب وكما أن الكثيرين يستطيعون أن يبصروا أكثر مما يبصر انسان واحد ، فان الذين بدءوا منذ الآن فى الاستعانة بأصول طبيعياتى ، سيعينوننى أيضا باستكشافاتهم • ولكن مع اقرارى بأننى جد معرض للخطأ ، وانى أكاد أتمسك دائما بالأفكار الأولى التى ترد على ، فان التجربة التى أحصل عليها من الاعتراضات التى يمكن أن توجه الى تمنعنى أن آمل فى منفعة منها • لاننى كثيرا ماجربت قبل الأحكام : سواء كانت صادرة عمن كنت أعتبرهم دقاء لى ، أو صادرة عن آخرين كنت أعتقد أننى ت لهم لا بالصديق ولا بالعدو ، بل ومن بعض الذين رفت أن خبثهم وحسدهم يجعلانهم يكشفون مايستر الحب عن أصدقائى ، ولكنه ندر أن اعترض على بشىء لم أتوقعه البتة مالم يكن هذا الشىء بعيدا (٦٩) جدا عن موضوعى ، بحيث اننى لم أكد قط أجد منتقدا لآرائى ، ولم يبد لى أنه اما أقل تدقيقا أو أقل نصفه منى • وكذلك لم ألاحظ أبدا أنه بواسطة المجادلات التى تثار فى المدارس ، قد استكشفت حقيقة كانت مجهولة

من قبل ، لأنه بينما يحاول كل أن ينتصر ، يجتهد فى تعزيز المحتمل أكثر من اجتهاده فى وزن الحجج من كل الجهات ، وان الذين ظلوا زمنا طويلا محامين بارعين لايكونون بعد هذا لذلك السبب ، خير القضاة ٠

أما المنفعة التى سينالها الآخـرون من نشر أفكارى فانها لن تكون كبيرة جدا مادمت لم أتقـدم بها تقـدما كبيرا يجعلها غير محتاجة الى اضافة كثير من الأشياء اليها قبل تطبيقها على العمل ٠ وأعتقد أننى أقـدر على أن أقول دون غرور انه اذا كان يوجد شخص يقـدر على ذلك ، فاننى أكون حتما أولى بذلك من كل أحد غيرى ، وليس هذا لأنه لايمكن أن يكون فى العالم عقول كثيرة أفضل من عقلى الى الحد الذى لايجارى ، ولكن لأنه ليس من المستطاع أن يجيد المرء تصور شىء وأن يجعله ملكا له ، اذا تعلمه من غيره كما لو استكشفه بنفسه وذلك حقيقى جدا فى هذا الموضوع ، بحيث انى كثيرا ماشرحت بعض آرائى لأشخاص أولى عقول جيدة ، وبينما كنت أتحدث اليهم كان يظهر لى أنهم يفهمونها فهما متميزا ، ومع هذا فانهم عندما كانوا يعيدونها ، كنت ألاحظ أنهم كانوا يكادون دائما يغيرونها بحيث لم أكن لأستطيع أن أعترف بأنها آرائى ٠ وبهذه المناسبة فانه يسرنى كثيرا

أن أرجو أحفادنا ألا يصدقوا ماسيقال لهم أنه صـادر عنى ، اذا لم أكن أنا قـد أذعتـه بنفسى • وماكنت لأعجب البتة من هذا الشطط الذى يعـزى الى هـؤلاء الفلاسفة المتقدمين ، الذين ليست لدينا كتاباتهم (١)، ولست أحكم من اجل هـذا أن أفـكارهم كانت مجانبة للعقل ، مع العـلم بأنهم كانوا من خيرة العقـلاء فى أزمنتهم ، ولكننى احـكم فقط بأن أفـكارهم سـاءت روايتها • كما أننا نرى أيضا أنه لم يكد يحصـل أن أحـد أتباعهم قد فاقهم ، وانى لواثق أن أكثر متابعى أرسطو حماسة الآن ، يرون أنفسهم سعداء لو أن لهم من العلم بالطبيعة ماكان له حتى بشرط ألا يتجاوزوا قدر ماعلمه • انهم مثل اللبلاب الذى ليس مستعدا لأن يرتفع الى مافوق الأشـجار التى تسـنده ، بل وكثيرا مايهبط بعد أن يبلغ ذروتها ، لانه يبـدو لى أيضا أن هؤلاء يهبطون ، أى أنهم يردون أنفسهم ، على وجه ما ، أقل علما مما لو كفوا عن التحصيل ، هم لعدم اقتناعهم بمعرفة كل ماهو مشروح بطريقة مفهومة عند المؤلف الذى يقرءونه يريدون فوق ذلك أن يجدوا لديه حلا

---

(١) يقصد بعض الفلاسفة السابقين كسقراط لا سيما ديموقريطس (انظر جلسون التعليق ص ٤٦٢) •

لمعضلات كثيرة لايقول فيها شيئا ، وربما لم يفكر قط فيها · ومع ذلك فان طريقتهم فى التفلسف موافقة جدا لأولى العقول الضعيفة ، لأن غموض التمييزات والمبادىء التى يستعينون بها سبب فى أنهم يستطيعون الكلام فى كل الأشياء بجرأة كأنهم يعـرفونها ، وأن يؤيدوا كل مايقولون فيها (٧١) ضد أشد الناس تدقيقا وأكثرهم حذقا دون أن تكون للمرء وسيلة لاقناعهم · وهم فى هذا يظهرون لى كمثل أعمى ، يريد أن يشاجر بصيرا دون أن يكون مغبونا ، فيصل به الى قاع كهف شديد الظلمة وأستطيع أن أقول ان لهؤلاء مصلحة فى أن أكف عن نشر مبادىء الفلسفة التى آخذ بها ، لأنها لما كانت على ماهى عليه من قوة البساطة والوضوح فاننى أكاد أكون لو أنى نشرتها كما لو أننى فتحت بعض المنـافذ وجعلت النـور يدخـل الى هـذا الكهف حيث هبطوا للتشاجر · لكن خير الناس عقـولا أنفسـهم ليست لهم فرصة ليتمنوا معرفة هـذه المبادىء ، لأنهم اذا كانوا يريدون معرفة الكلام فى كل شىء وأن يشتهروا بأنهم علماء ، فأيسر لهم أن يدركوا هذا بأن يرضوا بالمحتمل الذى يمكن أن يوجد بدون عناء فى كل أنواع المسائل من أن يبحثوا عن الحقيقة التى لاتظهر الا قليلا قليلا

فى بعض المسائل ، واذا عرض القول فى مسائل أخرى فهى تجبر المرء على أن يعترف صراحة أنه يجهلها · أما اذا كانوا يؤثرون معرفة قليل من الحقائق على غــرور التظاهر بعدم جهل شىء ما ، لأن هــذه المعــرفة أفضل كثيرا بلا ريب ، واذا كانوا يريدون السعى وراء مطلب شبيه بمطلبى ، فانهم ليسوا فى حاجة لاجل هذا الى أن أقول لهم أكثر مما قلت فى هذا المقال · لأنه اذا كانوا أهلا لأن يتقدموا أكثر مما تقدمت فانهم يكونون بالاولى أهــلا لأن يستكشفوا بأنفســهم كل ماأعتقــد أننى استكشفته · ولما كنت لم أدرس شيئا قط الا بترتيب فانه من المؤكد أن مابقى على استكشافه هو فى نفسه أصعب وأخفى (٧٢) من الذى استطعت قبــل الآن آن أصل اليه ، ويكون سرورهم بتعلمه منى أقل بكثير من سرورهم بتعلمه بأنفسهم ، وعدا هذا فان ماسيعتادونه ببحثهم أولا عن الأمور السهلة ثم تجاوزهم اياها قليلا قليلا على قدر الى أمور غيرها أصعب منها ، سيكون لهم أنفع من كل ماتستطيعه تعليماتى · كذلك مايختص بى ، فاننى مقتنع بأننى لو كنت علمت منذ صباى كل الحقائق التى بحثت عن براهينها منذ ذلك الحين ، ولو كنت لم أكابد أى عناء فى تعلمها لكنت ربما لم أعلم قط شيئا

غيرها • وعلى الأقل ماكان يكون لى ماأعتقد من الاعتياد والسهولة اللتين أعتقد أنهما لى فى استكشاف الجديد من الحقائق دائما على قدر اجتهادى فى البحث عنها • وفى كلمة واحدة اذا كان فى العالم صنيع لايمكن أن يحسن انجازه الا الذى بدأه بنفسه ، فذلك هو الصنيع الذى أعالجه •

وحقيقة ، فانه فيما يختص بالتجارب التى تنفع فى ذلك ، فان رجلا واحدا لايمكن أن يكفى للقيام بها جميعا ، ولكنه لايستطيع أيضا أن يستخدم فى ذلك غير يديه استخداما مفيدا ، اللهم الا أن تكون أيدى الصناع ، أو مثلهم من الناس ممن يستطيع أن يدفع لهم أجرا ، والذين يبعثهم الأمل فى الكسب ، وهو وسيلة فعالة جدا ، الى أن يحكموا صنع كل مايأمرهم بصنعه من الأشياء • فان المتطوعين ، الذين ربما ندبوا أنفسهم لمعاونته ، تطلعا ، أو رغبة فى المعرفة ، فعدا أن لهم فى العادة من المواعيد أكثر مما لهم من الأعمال وانهم لايعملون الا خططا جميلة لاينجح واحد منها قط ، فانهم يرغبون حتما فى أن يكافأوا بأن توضح لهم بعض المعضلات أو على (٧٣) الأقل بثناء ومسامرات غير مجدية ، وكل وقت يصرفه فى هذا وان قل ، فهو مضيع •

وأما التجارب التى قام بها آخرون من قبل حتى لو أنهم أرادوا ابلاغهـا اليه ، وهم لايبلغونه قط مايدعـونه أسرارا ، فأكثر هذه التجارب ، يتألف من ظروف كثيرة، أو من أجـزاء نافلة . بحيث يتعسر عليه أن يستخلص منها الحقيقة ، وفوق ذلك فانه يكاد يجدها كلها سيئة الشرح جدا ، بل قد تكون فاسدة جدا ، لأن الذين قاموا بها تعلموا أن يجعلوا لها مظهر اتفاق مع مبادئهم ، فلو أن فيها بعض ماينفعه ، ماكافأ الوقت الذى ينبغى انفاقه فى اختياره . وعلى ذلك فانه اذا كان فى العالم شخص، ـينا أنه قادر على استكشاف أعظم الأشياء ، وأكثر ، أن يكون نافعا للناس ، وأنه ، من أجل هذا ، كل الناس ، بكل الوسائل ، أن يعينوه لكى يبلغ ـالبه غاية النجاح ، فاننى لاأرى أنهم يقدرون على ىء ينفعه ، اللهم الا أن يمدوه بنفقات التجارب التى يحتاج اليها ، ثم بعد ذلك ، أن يحـولوا دون وقته أن يذهب به تدخـل فضـولى ، ولكننى عدا أننى لا أزهى بنفسى الى حد أن أرغب فى أن أعد بأمر بتجاوز المألوف، ولا أن أتشبع بأفـكار خادعة ، الى حـد أن أتخيل أن الجمهور يجب أن يهتم بخططى كثيرا ، فان نفسى (٧٤) ليست ايضا من الضعة بحيث أرضى بأن أقبـل من أى

انسان مهما كان أى نعمة ، يمكن أن يظن أننى لم أكن أهلا لها .

كل هذه الاعتبارات معا ، كانت سببا منـذ ثلاث سنين فى أننى لم أرد أن أذيع الرسالة التى كانت بين يدى ، بل وأن أصمم على ألا أظهر طول حياتى ، غيرها مما يكون عاما أو يمكن أن تفهم منه أصول طبيعياتى ولكن عرض منذ هذا الحين سببان آخران ، اضطرانى الى أن أورد هنا بعض المحاولات الخاصة (١) ، وأن أذيع بين الناس بعض بيان لما عملته وماأنويه . أما السبب الأول فهو أننى اذا أغفلت هذا ، فان الكثيرين الذين علموا بعزمى من قبل على نشر بعض الكتابات ، ربما تخيلوا أن الأسباب التى بعثتنى الى أن أعدل عن عزمى ترجع الى عيب فى أكثر مما فى الواقع لأنه ولو أنى لا أغلو فى حب المجد ، بل واذا جاز لى القول ، فاننى أكرهه مادام حكمى أنه يجافى الراحة التى أقدرها فوق كل الأشياء ، فاننى لم أحاول مع ذلك أن أخفى أعمالى كما تخفى الجرائم ، ولم أستعن بكثير من الحيطة كى أكون غير معروف ، وذلك لأننى كنت أعتقد أننى بهذا

---

(١) يقصد رسائله الثلاث انكسار الأشعة وعلم الأنواء والهندسة التى ظهرت جميعا مع المقال عن المنهج سنة ١٦٣٧ .

أسىء الى نفسى كما أن ذلك يسبب لى نوعا من الاضطراب
يجافى أيضا ماأنشـده من الراحـة الكاملة للنفس ·
ولانه ، لما كنت كذلك غير مهتم بأن أكون مشهورا أو
غير مشهور ، ولم أقدر على أن أتحامى حصولى على بعض
ضروب الشهرة ، رأيت أنه يجب على أن أعمـل مافى
وسعى لأتحامى على الأقل أن تكون لى شـهرة سـيئة ·
والسبب الثانى الذى حملنى على كتابة هذا ، هو أننى
لما رأيت فى كل يوم تزايد التعويق الذى يصيب خطتى
فى تعليم نفسى ، وذلك بسبب حـاجتى الى تجـارب
لا تحصى ، يستحيل أن أنجزها دون معاونة الغير ، ومع
أننى لاأغتر بنفسى الى حد أن آمل أن تأخذ الدولة بقسط
وافر من مشاغلى ، فاننى على كل حال لاأرغب فى أن
أقصر فى حق نفسى الى حد أن أبرر لمن يعيشون بعدى
أن يعيبونى يوما ما بأننى كنت أستطيع أن أترك لهم
أشياء كثيرة خيرا مما فعلت ، هذا اذا لم أكن قد أفرطت
فى اهمال تفهيمهم ما الذى يستطيعون به أن يشاركوا
فى تحقيق خططى ·

وقد رأيت أنه كان هينا على أن أختار بعض المواد،
التى وان كانت ليست موضـوع مجـادلات كثيرة ،
ولا تجبرنى على أن أفشى من مبادئى فوق ماأريد ، فانها

لاتضعف عن أن تبين بوضـوح كاف ماأقـدر عليه أو ما لا أقدر عليه فى العلوم • ولا أستطيع أن أقول اننى نجحت فى ذلك ، وماأريد أن أتنبأ بأحكام أى انسان ، عندما أتحدث بنفسى عن كتاباتى ، ولكن يسرنى كثيرا أن تمتحن ، ولكى يتيسر لذلك أكثر مايمكن من الفرص أبتهل الى من قد يكون لهم عليهـا اعتراض أن يكلفوا أنفسهم مشقة ارسـال اعتراضاتهم الى وراقى (١) ، وعنـدما يعلننى بذلك ، فانى أجتهـد فى أن أقـرن الاعتراض بردى عليه فى الوقت عينه ، وبهذه الطريقة يرى القراء هذا وذاك معا ، فيكون أسهل لهم أن يحكموا بما هو أحق • فاننى لاأعد بأن أكتب قط ردودا مطولة، ولكننى أقتصر عـلى أن أقر (٧٦) باخطـائى بصراحة كثيرة ، اذا عرفتها ، أو أن أقول فى بساطة اذا لم أقدر على ادراكها ، ماأعتقد أن الدفاع عمـا كتبته يحتـاج اليه ، دون أن أضيف الى ذلك تفسير أى مسألة جديدة ، حتى لاأنتقل الى غير نهاية من واحدة الى أخرى •

واذا كانت بعض المسائل ، التى تكلمت عنها فى بدء علم انكسار الأشعة (٢) وعلم الانواء تصـدم فى بادىء الأمر ، وذلك لأننى أسميها فروضا ، ولأنه يبدو

---

(١) الوراق هو صاحب المكتبة وناشر الكتب •

(٢) يعرفه مرسن فى كتابه الحقيقة فى العلوم بأنه العلم « الذى يعرفنا كيف

أننى لاأعنى باثباتها ، فليكن للقارىء صبر على استيفاء ماكتبته بانتباه ، وآمل أنه يجد فيه رضاه ، لأنه يبدو لى أن الحجج تتــوالى فيها كأن الأواخـــر تبرهن عليها الأواخـــر ، التى هى معلولاتهــا (١) · ولاينبغى أن

نبصر بواسطة الشعاع المنكسر كما هو الحال عندما نرى جزءا منها فى الماء والآخر فى الهواء » أدام حياة ديكارت ١٨ (١٨٥) ·

ويدخل فيما يسميه العرب بعلم المناظر وهو ما يسميه الأوربيون Optique ويترجمه المحدثون بكلمة علم الضوء ويعرفه ابن خلدون فى مقدمته بقوله « هو علم تتبين به أسباب الغلط فى الادراك البصرى بمعرفة كيفية وقوعها بناء على أن ادراك البصر يكون بمخروط شعاعى رأسه يقطعه الباصر وقاعدته المرئى ، ثم يقع الغلط كثيرا فى رؤية القريب كبيرا والبعيد صغيرا وكذا رؤية الأشــباح الصغيرة تحت الماء ووراء الأجسام الشفافة كبيرة ، ورؤية النقطة النازلة من المطر خطا مستقيما والشعلة دائرة وأمثال ذلك الخ » وابن خلدون يعتبره من العــلوم الهندسية ولكن ديكارت يراه من العلوم الطبيعية الممزوجة بالرياضة ·

(١) قال هملان : أن كون الله مصدرا للخير هو وجه للتعبير عن عقلية الوجود ، واذا كنا نقدر أن نقيم مبدأ وضوح المعانى وتميزها* نظرية للوجود ، أى اذا كان المذهب العقلى يؤدى الى نظرية للوجود كافية ، فنحن اذا عدنا من الوجود كما هو محدد ، نستنبط اذن من طبيعته أن الحقيقة تتمثل للعقل بواسطة وضوح المعانى وتميزها · وبعبارة أخرى من المستطاع أن يقال أن الله يكشف لنا الحقائق بواسطة المعانى الواضحة المتميزة ، ثم يقول « العلاقة بين مبدأ المعانى الواضحة المتميزة والقول فى الله ، أو فى الوجود العقلى كما يبدو لنا ، تكاد تكون كمــا يظهر ، نفس العـــلاقة التى يســـلم بهـــا ديكارت بين الوقائع والفروض فى الطبيعيات ، الأوائل هى برهان الأواخر والأواخر هى برهان الأوائل ، دون أن يكون فى هذا أقل دور » مذهب ديكارت ٣ ص ١٤٢ وقارن هذا بما كتبناه فى المقدمة عن نظرية المعرفة عند ديكارت ولا سيما ص (مط) و (ن) ·

(*) أى قول ديكارت بأن كل ما نتصوره بوضوح وتميز حقيقى ومعنى حقيقى عنده هو معنى واقعى ·

يتوهم أننى أقع هنا فى الخطأ الذى يسميه المناطقة بالدور (١) ، لانه لما كانت التجربة تجعل أكثر هذه المعلولات مؤكدة جدا ، فان العلل التى استنبطت منها هذه المعلولات لاتصلح لأن تثبت وجودها بمقدار ماتصلح لأن تفسرها ، ولكن الأمر على العكس فان العلل تثبتها المعلولات · وأنا لم أدعها فروضا ، الا لكى يعلم أنى أعتقد بالقدرة على استنباطها من هذه الحقائق الاولى التى شرحتها من قبل ولكنى أردت عن قصد ألا أفعل هذا كى أمنع بعض العقول التى تتوهم أنها سرعان ماتعرف فى يوم واحد كل مافكر فيه الغير عشرين عاما اذا قال لهم عنه كلمتين أو ثلاثا والذين يكونون أكثر تعرضا للخطأ ، وأقل قدرة على ادراك الحقيقة كلما كانوا أكثر تدقيقا وأكثر نشاطا من أن يتخذوا من ذلك فرصة ليقيموا فلسفة متطرفة فوق مايعتقدونه مبادىء ، وأن ينسب الى مافيها من خطأ (٢) · لأنه فيما يختص بالآراء

---

(١) الدور خطأ فى المنطق ينحصر فى البرهان على شىء بشىء آخر يتوقف على الأول ·

(٢) صح حدس ديكارت ومع هذا . فان الاستاذ ليفى برول L. Lévy-Bruhl يقول عند كلامه عن تطرف بعض الفلاسفة فى القرن الثامن عشر وعدائهم للدين والنظم الاجتماعية القائمة « ان مبادىء ديكارت مسئولة ، الى حد كبير ، عن تكوين فلسفة شديدة الاختلاف مع فلسفة ديكارت » النزعات العامة لبيل وفنتنل les tendances générales de Bayle et de Fontenelle . فى مجلة تاريخ

التى هى كلهـا آرائى فاننى لاأدافع عنهـا باعتبارها جديدة مادام اذا قدر المرء حججها فاننى واثق أنه يجدها بسيطة جدا ومطابقة للعقل العـادى بحيث تظهر أقل شذوذا وغرابة من كل ماسواها مما يمكن أن يكون فى نفس الموضوعات ، وأنا لاأزهى أيضـا لأننى المبتدع الأول لأى رأى منها ولكن لأننى لم أقبلها قط لأن آخرين قالوا بها ، ولا لأنهم لم يقولوا بها ، ولكننى لم أقبلها الا لأن العقل أقنعنى بها ٠

واذا كان الصناع لا يستطيعون أن يحققوا عاجلا الاختراع الذى شرحته **فى علم انكسار الاشعة** ، فاننى لاأعتقد أنه يمكن القول من أجل هذا بأنه ردىء : لأنه مادام الحذق والمران لازمين لصنع الآلات التى وصفتها وضبطتها دون أن ينقص هذا أى شرط ، فان دهشتى اذا نجحوا لأول وهلة لن تكون أقل من دهشتى لو استطاع انسان فى يوم واحد أن يتعلم العزف بالعـود ببراعة وذلك لأنه أعطى لوحا جيدا للرموز الموسيقية ٠ واذا كنت أكتب باللغة الفرنسية التى هى لغة بلادى بدلا من

= الفلسفة Rev. d'histore de la philosophie السنة الاولى
(١٩٢٧) ص ٥٠ ٠

أن أكتب باللغة اللاتينية التى هى لغة أساتذتى فذلك لأننى آمل أن هؤلاء الذين لايستعينون الا عقلهم الفطرى الخالص سوف يكونون أحسن حكما فى آرائى من أولئك الذين لايؤمنون الا بالكتب القديمة . وأما من يجمعون بين (٧٨) العقل والتحصيل وهم وحدهم من أتمنى أن يكونوا قضاتى فاننى على ثقة من أنهم لن يكونوا من التحزب للغة اللاتينية بحيث يأبون الاصغاء لحججى لأنى أشرحها بلسان عامى .

بقى أننى لاأريد أن أتحدث هنا حديثا خاصا عن التقدم الذى آمل أن أتقدمه فى العلوم فى المستقبل ، ولا أريد أن آخذ على نفسى أمام الناس عهدا على الا أنفق بقية حياتى فى غير الاجتهاد فى تحصيل شىء من العلم بالطبيعة يكون بحيث يمكن أن تستخلص منه للطب قواعد أوثق مما وجد حتى الآن ، وأن ميلى ليبعدنى بعدا كبيرا عن كل أنواع المقاصد الأخرى لاسيما تلك التى لاتكون مفيدة للبعض الا اذا أضرت بآخرين (١). فلو اضطرتنى بعض الظروف الى أن أعالجها فما كنت

---

(١) ربما يريد ديكارت أن يقول هنا انه لا يقبل أن يجيب دعوة أحد الأمراء كى يطبق فى مصلحته علومه فى حيل الحروب . وهذا تفسير لاستاذنا مسيو لالاند شافهنا به سنة ١٩٢٧ عند قراءته للمقال فى الجامعة المصرية ووافق على اثباته هنا أثناء طبع هذا الكتاب .

لأعتقد أننى أكون أهلا للنجاح فيها . وانى لأعلن هذا وأعلم خير العلم أن هذا الاعلان لايستطيع أن يجعلنى مبجلا فى العـالم . ولكن ليست لى أى رغبة فى هـذا أيضا ، وسأكون دائمـا معترفا بالجميل للذين بفضلهم أستمتع بوقتى من غير عائق أكثر من اعترافى بالجميل لمن قـد يهـدون الى أكبر مافى الأرض من منـاصب التشريف .

انتهى

فهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٣٠٠٢

ISBN ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٠٥٩٦ ـ ١

هذا الكتاب :

يحدثنا تاريخ الحياة العقلية والروحية الإنسانية ، بأن كثيرا من الأمم القديمة ، قد كانت لها فلسفاتها التى انطوت عليها دياناتها ، وبأن هذه الفلسفات إنما كانت بمثابة المرآة التى تتجلى على صفحتها المعانى الفلسفية والروحية والخلقية التى كانت ما تزال بعيدة عن الفلسفة بمعناها الحقيقى .

ومن هذا المنطلق ، يتحدث هذا الكتاب ـ عبر مقال طويل يستغرق ستة فصول ـ عن الفلسفة القديمة .. فلسفة العصور الوسطى .. الفلسفة الحديثة .. فلسفة ديكارت ومنهجه .. مقال ديكارت عن المنهج .. ويختتم بمقال عن المنهج فى ترجمة العربية .

مطابع الهيئة

١٥٠ قرشا